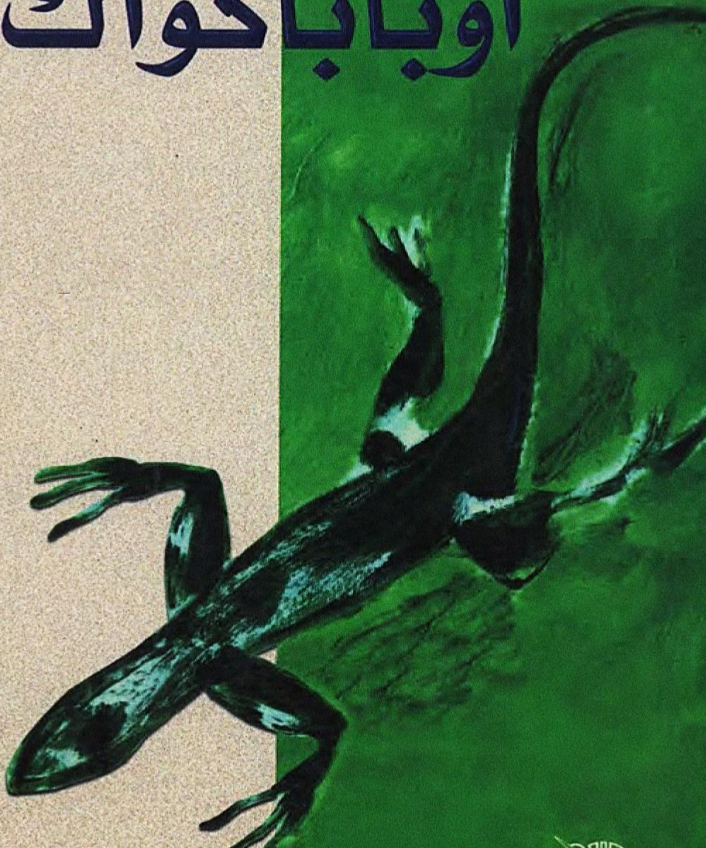
برناردو أتشاغا

أوباباكواك



ترجمة صالح علماني

العنوان الأصلي للكتاب: **Obabakoak**

اســـــــم الكـــاتب: BERNARDO ATXAGA

اســـــــم المترجـــم: صالح علماني

تمت ترجمة هذه الطبعة بمساعدة الإدارة العامة للكتب والأرشيف والمكتبات في وزارة التربية والثقافة الاسبانية.

La presente edicion ha sido traducida mediante una ayuda de la direccion General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Educacion y Cultura de Espana.

برنـاردو أتشـاغـا

أوباكوآك

ترجمة: صالح علماني

الطبعة الأولى ــ 1999

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494

تليفاكس: 2775872

اخراج: هالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

بحثاً عن الكلمة الأخيرة

فتيان وخضر

منذ زمن بعيد، عندما كنا ما نزال فتياناً وخضراً، جاء إلى المدرسة الابتدائية التي كنا ندرس فيها رجل ذو شارب وقبعة مزركشة بمربعات، وأعلن لنا بحركة جدية جداً أنه آت ليلتقط لنا أول صورة جماعية في حياتنا. استمعنا إليه ونحن نفلت الضحكات، لأن مظهره بدا لنا ظريفاً جداً، وخصوصاً قبعته؛ ولأننا لم نكن قد سمعنا حتى ذلك الحين أي شيء عن عبارة **صورة جماعية**. بعد ذلك مشينا في أثر المعلمة ونحن نخوض في الماء في الشارع ونقذف حقائبنا في الهواء، حتى وصلنا إلى مدخل الكنيسة.

ولكن السعادة لا تكتمل أبداً. فما إن وصلنا حتى تعكرت حفلتنا قليلاً. فعلى المقاعد هناك، كانت تجلس جميع فتيات المدرسة الاعدادية، أشد خصومنا كراهية إلى أنفسنا في ذلك الحين: بعض الغبيات المتغطرسات اللواتي ما كن يتنازلن حتى بتحيتنا في الشارع. «من لم يقذفهن بحجر فليرفع يده» هكذا كان يقول لنا السيد الخوري في كل مرة تذهب إليه إحداهن شاكية. فتبقى كل الأيدي في الجيوب، وتنظر كل العيون إلى الأرض. وها نحن لسوء الحظ نجدهن أمامنا، وعلى شفاههن ابتسامات خبيثة.

ـ ماذا تنتظرون؟ اذهبوا هناك، صديقاتكم سيجملن مظهركم! ـ هكذا كانت تستعجلنا، نحن الصبيان خصوصاً، معلمتنا المستغربة جداً من الاستياء الذي بدا على وجوهنا حيال تلك الحفلة التصورية.

بما أن المعلمة لم تكن تعيش في القرية، فإنها لم تكن تعلم بأمر صراع الأجيال السائد في أوبابا.

كانت هناك قرصات، وشدّ شعر وحوادث أخرى متفرقة بينما هن يزيّننا. ولكن، حين انتظمنا أخيراً في صفوف على بعض الأدراج الحجرية، نحن جميع أطفال وطفلات القرية ممن كنا آنذاك في نحو التاسعة من عمرنا، التقطت لنا الصورة؛ فاتحدنا فيها إلى الأبد نحن الذين سندخل بعد قليل، مثل مسافرين متنوعي المصائر، في تيار الحياة ونتفرق تماماً.

بعد أسبوع من ذلك وصلت حزمة الصور إلى المدرسة، وكنا جميعنا راغبين في رؤية أنفسنا وكيف بدونا في الصورة. وهناك كنا: البنات عابسات وصغيرات، والصبيان أشد عبوساً وليسوا أكثر صغراً، بوقار جدير بالتماثيل الرومانية، ولكن الأمر لم يكن رزانة ولا رصانة ولا أي شيء آخر ينتهي بـ(نة)، بل كان مجرد تصميم على الانتقام الذي كنا ـ خصوصاً نحن ذوي الشعور المجعدة ـ قد توصلنا إليه قبل لحظات من التقاط الصورة. لقد كانت تلك النظرات تقول: «سيكون هناك مزيد من الأحجار»، وكانت تلك الأفواه المزمومة تضيف: «قريباً جداً».

وزعت المعلمة علينا نسخ حزمة الصور، ونصحتنا بأن نحتفظ بها، لأننا فيما بعد، عندما نصبح في مثل سنها مثلاً، سنبتهج كثيراً حين نستطيع رؤية صورة مثل تلك. ولأننا تلاميذ طيبون، فقد خبأنا الصورة؛ وما إن خبأناها حتى نسيناها تماماً، لأننا في ذلك الحين، ومثلما قلت سابقاً، كنا فتياناً وخضراً، ولم نكن نشعر بأي همّ بشان الماضي.

الحقيقة أن الدنيا كانت تكفينا. فقد كانت تنفتح أمامنا مثل ذيل طاووس، وتأتينا كل يوم بألف شيء مختلف، واعدة إيانا بألف شيء آخر أو بعشرة آلاف أو بمئة ألف شيء آخر للمستقبل. ما الذي كانته الدنيا؟ من المستحيل معرفة ذلك، ولكنها على الأقل كانت تبدو فسيحة جداً، غير محدودة في الزمان وفي المكان على السواء. هذا ما كنا نتخيله، ولهذا كانت العناوين التي نكتبها على مغلفات الرسائل طويلة جداً. فلم يكن يكفينا أن

نبين لساعي البريد، على سبيل المثال، اسم ابن عمنا، والمدينة التي يعيش فيها؛ وإنما كنا نوضح جيداً كذلك اسم المحافظة التي توجد فيها المدينة، واسم الدولة التي توجد فيها المحافظة، واسم القارة التي توجد فيها الدولة. ثم نكتب بعد ذلك، في نهاية القائمة، بحروف كبيرة **كوكب الأرض**، حتى لا يخطئ ساعي البريد ويوصل الرسالة إلى مجرة أخرى.

انقضت شتاءات وأصياف، ومثل من يشاركون في لعبة «أوكا»[1] رحنا نبتعد عن بيتنا الأول: متقدمين بخفة أحياناً، قافزين من منزلة أوكا إلى أخرى؛ ومنحرفين حيناً عن المناظر المبهرة، أو ساقطين في سجون أو جحيمات. وهكذا جاء اليوم الذي نهضنا فيه من السرير وتأكدنا في المرآة من أننا لم نعد في التاسعة، وإنما أصبحنا أكبر بعشرين أو خمس وعشرين سنة؛ وأننا مازلنا شباباً، ولكننا لم نعد خضراً.

ووسط ذهولنا، رحنا نستعرض مسيرة حياتنا بهمة. كيف وصلنا إلى هنا؟ كيف ابتعدنا إلى هذا الحد؟ صحيح أننا نشعر بالتعب أكثر مما كنا نشعر به في المدرسة الابتدائية؛ وصحيح أن العناوين الجغرافية على رسائلنا أصبحت أكثر اقتضاباً؛ ولكن، ما هي الأشياء الأخرى التي تبدلت فضلاً عن ذلك؟ كانت المسألة تبدو معقدة وكنا نفكر بعد تفكير طويل ـ متصرفين في هذه القضية مثل شخصيات مسرح الدمى ـ في أن أفضل ما نفعله هو العودة إلى التفكير من جديد.

وسط هذه البلبلة، ومثلما كانت قد قالت لنا المعلمة، تذكرنا الصورة الجماعية الأولى في حياتنا. فكنا نُخرجها بين الحين والآخر من بين الدفاتر القديمة، ونتوسلها أن تكشف لنا معنى الوجود. فتحدثنا الصورة عن الآلام مثلاً، وتطلب منا أن نمعن النظر إلى هاتيك الشقيقتين، آنا وماريا، المتوقفتين إلى الأبد في المنزلة رقم 12 من **رقعة الأوكا العظيمة**؛ أو

---

[1] أوكا (oca): لعبة بالنرد على قطعة كرتون تحتوي على أشكال ومنازل مختلفة يجرى الانتقال عليها من منزلة إلى أخرى حسب رمية النرد.

أن نفكر في مصير خوسيه اريغي، ذلك الزميل الذي تحول من طفل باسم في بناء المدرسة الحجري إلى رجل معذب، انتهى إلى الموت في مركز للشرطة.

ولكن إجابات الصورة لم تكن محزنة دائماً. فقد كانت تكتفي عموماً على التشديد على تلك المقولة القديمة بأن الحياة هي رحيل، وكانت تجعلنا نبتسم من التناقضات التي تنتج عن ذلك الترحال. فمانويل، محاربنا الأفضل في النضال ضد بنات المدرسة الاعدادية، انتهى به المطاف إلى الزواج من إحداهن، وقد اشتهر عنه بأنه زوج مطيع. والأخوان مارتين وبيدرو ماريا اللذان كانا يتغيبان دائماً عن دروس الديانة، أصبحا مبشرين وهما يعيشان الآن في أفريقيا.

على أي حال، لم يلبث اهتمامي بالصورة أن تلاشى بسرعة. فقد كانت إجاباتها في الواقع على شيء من الحمق، ومكرورة، وغير قادرة على مفاجأتي مطلقاً. كان لابد لي من مواصلة التساؤل. أجل، ولكن بطريقة أخرى، وفي مكان آخر.

كانت قد مضت سنة والصورة مخبأة في الكوميدينو المجاور للسرير ـ مع المجازفة كذلك بأن تبقى هناك إلى الأبد ـ عندما جاء أحد زملائي في العمل وطلب مني أن أعيره إياها. قال لي إنه فتح مخبراً للتصوير، وإنه سينتهز فرصة اقتصاره على التجارب لتكبير حجم الصورة خمس أو ست مرات مما هي عليه. وعلل ذلك بالقول:

ـ لكي تتمكن من تعليقها على الجدار.

عندئذ، وفور انتهاء صديقي من عمله، نطقت الصورة القديمة فعلاً وكشفت سرها. فمع التكبير اكتشفت فيها تفصيلاً لم يكن يلفت انتباهي من قبل، وقد دفعني ذلك التفصيل إلى تتبع آثار بعض الوقائع المفاجئة.

ولكن قبل أن أروي ما حدث يجب علي أن أعترف بأنه من غير المعتاد أن يكون الكاتب مشاركاً أو شاهداً على القصص الجديرة بأن تروى، وربما كان هذا هو سبب بذله الجهود لاختراع القصص من مخيلته. ومع ذلك، فإن هذا القانون لن ينطبق لمرة واحدة. فالمؤلف هنا سيأخذ المادة القصصية

من واقعه بالذات. وهو لن يتصرف بالتالي ككاتب، وإنما سيكون مجرد ناسخ، وهو ليس الأمر نفسه رغم توافق الإيقاع.

بعد أن انتهينا من هذه المقدمة، فلنمض في القصة، كلمة فكلمة حتى نصل إلى الكلمة الأخيرة.

الصورة المكبرة التي صنعها زميلي كانت، مثلما قلت من قبل، أكبر خمس مرات من الصورة الأصلية، وبفضل التكبير أصبح بالإمكان رؤية الأعشاب التي تنمو ما بين شقوق الدرج الحجري، أو أزرار معطف أحدِ مَنْ هم في الصورة، وهي جميعها تفاصيل لم تكن إلا مجرد لطخات غير واضحة المعالم.

وبينما أنا أبحث عن هذا النوع من التفاصيل، دققت صدفة بالذراع اليمنى لأحد زملائي ـ عفريت الصف ـ ويدعى إسماعيل. كان يدس ذراعه في المحفظة التي يحملها على مستوى صدره، ويُخرجها من الطرف الآخر حيث تظهر أصابع يده. ولم تكن تلك اليد فارغة. فقد كان ثمة شيء يبرز منها. «أهي مدية؟» فكرت بذلك وأنا أتذكر عادته في حمل السكاكين. ولكن غير ممكن، فما يحمله ليس بالشيء المدبب. وقررت عندئذ الاستعانة بعدسة مكبرة، وهكذا استطعت اكتشاف طبيعة ذلك الشيء. لم يعد ثمة مجال للشك، فما كان يحمله إسماعيل في يده هو حِرْذون.

«كان يريد تخويف الآخرين»، فكرت في ذلك وأنا أتذكر الخوف الذي كنا نشعر به نحن أطفال أوبابا من الحراذين. فقد كان آباؤنا يقولون لنا:

ـ إياكم أن تناموا على العشب. إذا فعلتم ذلك، سيأتي حرذون ويدخل إلى رأسكم.

وكنا نسأل:

ـ من أين سيدخل؟

ـ من الأذن.

فنسأل من جديد:

ـ ولماذا سيدخل؟

ـ ليأكل دماغكم. فليس هناك ما يلذ للحرذون مثل أدمغتنا.

ونلح في السؤال:

ـ وماذا يحدث بعد ذلك؟

فيؤكد أباؤنا بجدية بالغة:

ـ تصبحون مجانين، مثل غريغوريو ـ وغريغوريو هو اسم أحد شخصيات أوبابا، ويضيفون: ـ هذا في أفضل الحالات. لأن الحراذين لم تأكل في الحقيقة إلا القليل من دماغ غريغوريو.

بعد ذلك، ولكي لا يخيفوننا كثيراً، كانوا يخبروننا بأن هناك وسيلتين للوقاية من الحراذين. إحداهما عدم النوم على العشب. والأخرى ـ من أجل الحالات التي يتمكن فيها الحيوان من الدخول إلى الرأس فعلاً ـ هي الذهاب مشياً بأسرع ما يمكن إلى سبع قرى والطلب من خوارنتها قرع أجراس كنائسهم؛ لأن الحراذين لن تتحمل عندئذ ضجة كل تلك النواقيس، وستخرج من الرأس وتهرب مذعورة.

هذه هي الفكرة التي كانت تجول في رأسي بينما أنا أتأمل الصورة، وبدا لي أن المشهد الذي اكتشفته للتو يمكن أن يُفسر على أنه محاولة شقاوة. فذلك العفريت إسماعيل كان قد قرّب الحرذون من أذن الزميل الذي أمامه ـ المدعو ألبينو ماريا ـ، لكي يتحرك هذا الأخير من مكانه، بدافع القرف أو الخوف، ويفسد بذلك انتظام الجماعة كلها. ولكن ألبينو ماريا، لسبب ما، تحمّل ذلك الاعتداء. ولم تكن هناك بالتالي حاجة لإعادة التقاط الصورة.

ومع ذلك، كان هناك شيء يمنعني من تقبل ذلك التفسير دون تحفظ. وهذا الشيء هو تذكر ما حدث لألبينو ماريا، الذي ما لبث بعد وقت قصير أن تحوّل من أحد أذكى تلاميذ المدرسة إلى أكثرهم بلاهة، ثم أخذ يمضي من سيئ إلى أسوأ، وتزداد بلاهته أكثر فأكثر إلى أن لم يعد قادراً على القراءة أو الكتابة: سيرورة محزنة لم تتوقف إلا بعد سنوات، حين كان ألبينو ماريا قد تحول إلى واحد آخر من مجانين القرية.

وبينما أنا أتأمل الصورة فكرت في سخريات الحياة، وبدا لي أن الحرذون الذي كان قرب أذن ألبينو ماريا كان تكهناً، لمخطط غامض، بكل

ما سيحدث لزميلنا فيما بعد. وفي لقطة رمزية، كانت حركة إسماعيل توحد الماضي بالمستقبل.

ولكن، هل هذا الاتحاد في الواقع هو مجرد رمز وحسب؟

هناك تساؤلات لا مجال فيها للريب تفرض نفسها علينا أحياناً ونحن نمشي في الشارع، بين الناس، عند الغروب... وقد كان هذا التساؤل يراودني مرة بعد أخرى كلما خرجت للتنزه. ماذا إذا كانت تلك العلاقة أكثر فيزيائية مما يبدو للوهلة الأولى؟ وماذا إذا كان الحرذون قد دخل فعلاً من أذن ألبينو ماريا؟ ولكن لا، لم يكن ذلك ممكناً.

ولكن، على عكس ما كنت أتوقعه، أخذت الفرضية تكتسب قوة. وفي أحد الأيام، كنت أراجع الصورة واكتشفت أن ما كان يحمله إسماعيل في يده ليس حرذوناً، وإنما فرخ حرذون.. شيء يمكن أن تتسع له الأذن. وبحثت بعد ذلك في الموسوعات والمراجع المتخصصة بشؤون البراري، وعرفت أن النوع المسمى Lacerta viridis[1] (لاسيرتا فيريديس) يمكن له أن يكون خطراً على الإنسان، بالرغم من أن تلك الكتب على الأقل، لم تكن تحدد طبيعة الخطر.

وماذا عن غشاء الطبل؟ هكذا خطر لي فجأة. فلو أن الحرذون تمكن من الدخول فعلاً في أذن الصبي، فلا بد أن يكون غشاء طبلة أذنه مثقوباً. ليس هناك أي احتمال آخر.

لهفتي جعلتني راغباً في أن أعرف بأسرع ما يمكن صحة أو خطأ ذلك التعليل. فتناولت الهاتف واتصلت بعمي الانديانو[2] الذي يعيش في أوبابا.

ـ أنت تعرف أنني قلما أخرج إلى الشارع. يجب أن تسأل شخصاً آخر ـ هكذا رد علي عمي دون أن يبدي أي فضول حول القضية. والواقع أنه لم

---

(1) باللاتينية في الأصل، وتعني "الحرذون الأخضر"

(2) الانديانو: تسمية تطلق على من يهاجرون للعمل في أميركا.

يكن يهتم إلا بالقراءات الأدبية التي ينظمها حين نجتمع في بيته في يوم الأحد الأول من كل شهر. وقد قال لي: ـ أنت لم تنس موعدنا، أليس كذلك؟ الأحد القادم لدينا اجتماع.

ـ لا تقلق. سأكون عندك. وسيكون لدي ما لا يقل عن أربع حكايات.

ـ هذا خبر طيب للعم مونتيفيديو.

هكذا كان يحب أن يسمي نفسه: **العم مونتيفيديو**. فقد عاش زمناً طويلاً في تلك المدينة في أميركا، ومازالت له بعض المصالح التجارية هناك: مكتبان ومخبز.

ـ هل أنت متأكد من أنه خبر طيب؟ فأنت لا يعجبك أي شيء مما أكتبه! كل قصصي تبدو لك مُنتحَلة!

ـ وهل هذا كذب؟ فكتّاب هذه الأيام لا يفعلون شيئاً سوى الانتحال. ولكن، بما أن الأمل هو آخر ما يمكن للمرء أن يفقده...

ـ حسن. سنتحدث يوم الأحد.

ـ لنرى إذا كنت تأتيني بكاتب آخر يا ابن أخي. فكلما كثر عدد المشاركين يكون الوضع أفضل.

ـ سأحاول يا عمي. ولكنني لا أضمن ذلك، لأن الناس صاروا يخافونك. إنهم يتساءلون عما إذا كان هناك شيء يعجبك في هذا العالم. اللهم إلا روايات القرن التاسع عشر بالطبع.

فأطلق عمي ضحكة مجلجلة من الجانب الآخر للخط الهاتفي. وسألته:

ـ من أستطيع أن أسأل عن ألبينو ماريا؟

ـ لماذا لا تتصل بالبار؟ يكفي أن تقول لهم إنك تقوم باستقصاء عن حالات العاجزين جسدياً. فكلمة استقصاء تصنع المعجزات في أيامنا هذه.

عملت بنصيحة عمي، وتوصلت إلى النتيجة التي كان قد توقعها. فقد أبدت صاحبة البار اهتماماً بالغاً، وقالت لي:

ـ أجل، يبدو لي أنه أصم. انتظر لحظة. سأسأل بعض الأشخاص الموجودين على مائدة الكونتوار.

وبينما أنا أنتظر على الهاتف، فكرت في أن القصص تميل إلى تعقيد الأمور. ثم سمعت بعد قليل:

ـ أجل، إنه أصم لا يسمع أي شيء بأذنه اليمنى.

بدا لي أن الوقت قد حان لاستشارة طبيب، لأنه كما يبدو واضحاً في الصورة، لايمكن للحرذون ـ إذا كان قد دخل ـ أن يدخل إلا من الأذن المذكورة.

لست بحاجة إلى كلام كثير لكي ألخص ما جرى بعد ذلك. فالطبيب الذي استشرته ـ وهو صديق لي، لديه ميل إلى الأدب ـ رأى أن ما قلته له غير ممكن. ولكنه كرجل مختبرات، تقبل تلك الحادثة كفرضية يمكن إخضاعها للبحث.

ـ سأذهب إلى مكتبة المستشفى وسأبحث في قاعدة المعلومات. ربما يكون لدينا شيء عن الأمراض التروبيكالية. اتصل بي بعد عدة أيام.

ولكنني لم أكن بحاجة إلى الاتصال به. فقد اتصل هو نفسه في صباح اليوم التالي. وقال متجاوزاً إلقاء التحية:

ـ أجل، الأمر محتمل.

ـ أتتكلم بجد؟

كان يوماً صيفياً حاراً، ولكن العرق الذي بلل يدي في تلك اللحظة لم تكن له أي علاقة بدرجة حرارة الجو.

ـ ماسيو، بيرير، سبورزهين، بيشوب...

أدركت أنه يقرأ عن شاشة الحاسوب.

ـ من هم هؤلاء؟ أهم المؤلفون الذين كتبوا حول الموضوع؟

ـ حول الموضوعات التروبيكالية بصورة عامة. ولكن تظهر الآن على شاشة الحاسوب فصول من كتبهم، وكلها تضم شيئاً ما عن عدوانية العظاءات. *On lizards and mental pathology*[1] ...

إنه يقرأ عن الشاشة من جديد. وقد أضاف بعد ذلك:

---

(1) بالانكليزية في الأصل، وتعني: ... عن العظاءات والأمراض العقلية.

ـ لقد تحدثت مع زملائـي، وجميعنـا متفقـون. إذا كـان مـا تفكـر فيـه صحيحاً، وربما لا يكون كذلك في الغالب...

فأيدته:

ـ بالطبع. هذا ما أفكر فيه. إنه احتمال وحسب.

ـ أجـل. ولكنـني كنـت أريـد أن أقـول لـك. إذا كـان ذلـك صحيحـاً، فستكون هذه هي الحالة الأولى في أوربا. يبدو الأمر مثيراً، أليس كذلك؟

وقاطعته:

ـ هل تريد الذهاب إلى أوبابا يوم الأحـد القـادم؟ سـتكون هنـاك جلسـة قراءة. لابد أنك مازلت تذكر عمي الذي من مونتيفيديو، أليس كذلك؟

فقال ضاحكاً:

ـ كيف لا أتذكره! لقد دمر قصتي في خمـس ثـوانٍ. ولم يهمـه في شـيء أنها قصتي الأولى.

ـ اسمع، الآن سأقول لك ما سنفعله. سنخرج من هنا يـوم السـبت بعـد الظهر، وسنذهب إلى قرية علـى شـاطئ البحـر. لا، لـن أخـبرك أي قريـة بالتحديد. سنذهب لزيارة شخص... أجـل، إسمـاعيل. أرى أن الأسـرار لا تنفع معك حقاً. أجل، إنه يعيش هناك الآن، يملك حانـة قـرب الشـاطئ. وبعد الزيارة نذهب إلى أوبابا. ويمكننا أن ننتهز الفرصة كذلك لنستحم قليلاً في البحر

بقي صامتاً لبرهة.

ـ وهل سيتقبل عمك منتحلاً على شاكلتي؟

ـ كل ما كُتب منذ القرن التاسع عشر هو منتحل بالنسبة إليه. فإذا كان هذا هو ما يقلقك، بإمكانك أن تطمئن.

ـ سأذهب إذن. إنني راغب في التعرف على ألبينو ماريا.

كان يبدو متلهفاً. ولكنها لم تكن لهفة طبيب، وإنما لهفة هاوٍ للأدب.

ـ حسن إذن. اتفقنا. سـأمر لأخـذك يـوم السـبت السـاعة السـابعة. إذا حدثت أي مشكلة اتصل بي.

ولكن لم تحدث أي مشكلة. وفي الساعة السابعة وبضع دقائق من يوم السبت التالي، كانت سيارتنا تدخل الطريق العام. لقد بدأت الرحلة إلى أوبابا.

القرية الساحلية كانت على بعد أقل من ساعة عن مدينتنا، وقد استغلينا ساعات الضوء المتبقية لنتنزه على كورنيش الميناء ونتناول العشاء في الهواء الطلق. بعد ذلك، عندما أصبحت الساعة الحادية عشرة، انطلقنا على الطريق الساحلي إلى حانة زميلي القديم في المدرسة.

قال لي صديقي الطبيب مشيراً إلى إعلان مضيء:

ـ أرأيت اسم المحل؟

فقرأت:

ـ «الحرذون».

ـ يبدو أن ميول إسماعيل لم تتبدل.

ـ هذا ما أراه.

كانت الحانة تغص بالمراهقين، وقد تكلفنا مشقة في العثور على مكان يناسب رغبتنا في الاستطلاع. وأخيراً، وبفضل تلطف بعض ذوي الدراجات النارية، شغلنا جزءاً من الكونتوار كانوا يضعون عليه خوذهم وقفازاتهم. وبعد ذلك جلسنا على المقاعد الخشبية وعيوننا مسلطة على إسماعيل.

إنه ما يزال نحيلاً مثلما كان دائماً، ولكنه لم يعد يبدو ذلك الصبي المتوحش الذي كانه في أوبابا. لقد تبدل كثيراً. إنه يرتدي الآن كنزة ذات لون أصفر كتبت عليها كلمات بالإنكليزية. حين رآنا، اجتاز الكونتوار كله لكي يأتي ويصافحنا.

ـ يا للمفاجأة؟ أنت هنا؟

لم يكن مظهره هو الذي تغير فقط. بل إن أساليبه أصبحت رقيقة، وابتسامته صريحة. ما الذي ستقوله لي الصورة حين أنظر إليها في المرة القادمة؟ ربما لن تقول شيئاً. فقد قالت لي مرات كثيرة من قبل إن العيش والترحال كلمتان مترادفتان.

أجبته:

ـ كما ترى. فنحن نخرج أيضاً بين حين وآخر.

ولكننا لم نستطع مواصلة حديثنا، لأن إسماعيل اضطر إلى الذهاب لتلبية طلبات جماعة من الشباب كانوا يستدعونه صارخين.

وقبل أن يغادرنا قدَّم إلى كل منا سيجارة ذات تبغ أشقر، وقال شيئاً حول تلوث البحر وهو يشير إلى منظر بحري يعلقه هناك.

قلت:

ـ لم أفكر مطلقاً في أن إسماعيل سيتحول يوماً إلى ايكولوجي.

فهمس لي صديقي:

ـ من المؤكد أنه يتصنع.

بعد نصف ساعة من ذلك، وكان المحل ما يزال يغص بالناس، بدأنا التمهيد للقضية التي قادتنا إلى هناك. قلنا له إننا نشعر بالفضول لمعرفة تفاصيل واقعة جرت في الفترة التي كنا نذهب فيها كلانا إلى المدرسة الابتدائية في أوبابا. وإننا نرجو منه ألا يقلق؛ وإن اهتمامنا، لكي نقول ذلك بطريقة ما، هو اهتمام ذو طابع علمي محض.

أطل من عيني إسماعيل مزيج من الخوف والريبة. إنها النظرة نفسها التي كانت تطل من عينيه حين كان في التاسعة من عمره، وكان يحمل سكيناً في جيبه. إنه لم يتغير في هذا الأمر على الأقل.

قال:

ـ قولا ما تريدان.

وبدأت بالقول:

ـ أنت كنت تحب الحراذين كثيراً، أليس كذلك؟ ـ ولكنني لم أقل ذلك بلهجة اتهامية، وإنما بمرح أقرب إلى المداعبة.

ـ ولماذا تقول هذا الآن؟ هل بسبب التسمية التي أطلقتها على المحل؟

كانت نبرته مستاءة وشبه متوعدة. ولكنني كنت أعرف أنه جبان، كنت أعرف ذلك منذ أزمنة المدرسة الابتدائية. صحيح أنه كان شيطاناً شقياً، ولكنه لم يكن ينفع للمشاجرات وجهاً لوجه.

ـ لا ، لست أعني اسم المحل. إنني أعني حرذون الصورة، الذي كنت تحمله قريباً من أذن ألبينو ماريا. وما أريد معرفته هو إذا ما كان ذلك الحرذون قد دخل في رأسه أم لا.

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أنت أحمق! ــ صرخ بي. ثم ابتعد عنا وراح ينظف كؤوساً.

وقال صديقي:

ـ لقد جرحت مشاعره.

ولكن إسماعيل عاد إلينا من جديد:

ـ كنت آمل منكما أن تكونا في مستوى أعلى. لا أكاد أصدق أن مثقفين مثلكما ما يزالان يؤمنان بهذه الترهات. بصراحة... لقد خيبتما أملي.

واصل إسماعيل التكلم صارخاً. وكانت حركاته تنم عن الازدراء.

فتيان الدراجات النارية الذين كانوا إلى جوارنا توجهوا بأنظارهم نحونا. وبدأ الوضع يبدو أشبه بمشاجرة.

ـ لقد أصبحت عصبياً جداً يا إسماعيل ــ أجبته محاكياً لهجة أهالي أوبابا. وكنت أشعر بالانشراح. فكأسا الجن اللذان شربتهما كانا قد بدأا مفعولهما في جسدي.

ـ أنا في بيتي وأستطيع أن أصرخ مثلما يحلو لي! ولست أحب أن يأتيني أي شخص باتهامات غبية!

عندئذ قررت سلوك أساليب التصرف في أوبابا، فأمسكت يده بين يدي. وهذه الحركة تعني أني أوافقه الرأي وأحبه مثل أخ. ألسنا من القرية نفسها؟ ألا نظهر كلانا في الصورة نفسها؟ لابد أن يكون هذا كافياً، وعليه أن يثق بي.

قلت له:

ـ أنت تعرف جيداً أني لا أشعر بأي ضغينة نحوك.

وقال صديقي الطبيب:

ـ نريد فقط معرفة أمر ضئيل القيمة يا رجل. إنني أعالج ألبينو ماريا، وأريد أن أعرف ما الذي حدث في ذلك اليوم. ولاشيء سوى هذا.

ذهلت لبراعة صديقي. لقد كانت تلك دون ريب هي أفضل طريقة لطرح القضية.

لم يتأخر رد فعل إسماعيل طويلاً. فقد عادت الطمأنينة إلى عينيه، وسأل:

ـ ولماذا تريد معرفة ذلك؟

ـ لأن أمه تقول إن ألبينو بدأ يصاب بالصمم منذ ذلك اليوم.

كنت مستغرباً من طريقة صديقي الماهرة في الكذب.

ـ سأخبركما بالحقيقة. ولكنني لا أظن أن ذلك سيفيدكما كثيراً ــ قال إسماعيل ذلك بينما هو يمسح يديه بخرقة: ـ لست أدري ما الذي جرى لذلك الحرذون. صحيح أنه كان في يدي... أظن أنني فعلت ذلك لإحداث شغب. لكي تصبح الصورة مضحكة بالطبع، ولأجعل كل من هم أمامي يتحركون ويصرخون... يخيل إليّ أنني كنت أريد إحداث شيء من هذا القبيل. ولكنني لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك. أذكر أن الحرذون قد انسل من بين أصابعي. أجل. ولكنني لا أظن أنه قد دخل إلى رأس ألبينو ماريا. ولأكون صريحاً، يبدو لي أن حدوث ذلك مستحيل.

ـ طبعاً. وهذا ما نعتقده نحن أيضاً. ولكننا كنا نمر من هنا وخطر لنا أن ندخل ونسألك، وليس أكثر من هذا.

كانت نبرة صديقي الآن مهادنة. وقال إسماعيل مبتسماً:

ـ الحقيقة أنني كنت شريراً جداً في صغري! لقد كنت شريراً حقاً!

فقال صديقي معترفاً:

ـ كل واحد منا كان شريراً على طريقته. أنا الذي تراني الآن، أحرقت بيت جدي. ولكني لم أفعل ذلك متعمداً.

ـ آي..آي!

من الواضح أن هذا النوع من التعليقات كان يعجب إسماعيل. ربما كان يخفف من عذاب ضميره.

بعد وداع قصير خرجنا من الحانة وتوجهنا إلى مرآب الميناء.

وحين أصبحت أنا وصديقي في السيارة ـ وكنا نشعر بخيبة أمل كبيرة ـ اتفقنا على صحة ما قاله بلزاك: الحياة لا تصنع قصصاً مكتملة؛ ولا يمكننا العثور على نهايات قوية وحاسمة إلا في الكتب .

قلت له:

ـ لن نعرف مطلقاً ما الذي جرى للحرذون.

فرد عليٌّ صديقي:

ـ هذا أمر لم يُحسم بعد. وقبل أن نغلق ملف القضية علينا أن نتحدث مع ألبينو ماريا.

ـ أظننا سنتمكن من اللقاء به غداً. إنه لا يغادر أوبابا عادة.

ـ عسى أن يكون الأمر كذلك.

ـ بما أننا نتحدث عن بلزاك وعن النهايات القوية، ما هي أفضل حكاية تعرفها؟ أعني ما هي القصة ذات النهاية المحكمة برأيك.ـ خطر لي قول ذلك فجأة. وكانت لا تكاد تظهر سيارات على الطريق في تلك الساعات، فكان خواء الاوتستراد يخلق جواً مناسباً للمناجيات.

ورد علي صديقي:

ـ لا يمكنني أن أخبرك هكذا بغتة.

فقلت له:

ـ إذا أنت رغبت إذن ، يمكنني أن أخبرك برد بوريس كارلوف. ألا تعرف ما هي أفضل قصة في العالم برأي بوريس كارلوف؟

ـ موافق. وهذا سيكون بمثابة تدريب لنا من أجل جلسة الغد. فمع وجود عمك كقاضٍ، لن يكون هناك شيء غريب.

توقفنا في استراحة على الطريق. وبعد ذلك، عندما جلسنا في أحد الأركان، رويت لصديقي من الذاكرة الحكاية الصوفية القديمة. وقد فعلت ذلك في الواقع مستخدماً الألفاظ نفسها التي سأستخدمها الآن لإعادة كتابة الحكاية. أما قصة الحرذون وكلمتها الأخيرة فيمكنها أن تنتظر.

خادم التاجر الثري

كان ياما كان، في مدينة بغداد، خادم يعمل في خدمة تاجر غني. وفي أحد الأيام، توجه الخادم منذ الصباح الباكر إلى السوق لشراء لوازم البيت. ولكن ذلك الصباح لم يكن مثل غيره من الصباحات الأخرى، لأنه رأى في ذلك الصباح الموت ولأن الموت أومأ إليه.

رجع الخادم المذعور إلى بيت التاجر وقال له:

ـ سيدي، أعطني أسرع حصان في البيت. أريد أن أبتعد كثيراً عن بغداد هذه الليلة. أريد الذهاب هذه الليلة إلى مدينة أصفهان البعيدة.

ـ ولماذا تريد الهرب؟

ـ لأني رأيت الموت في السوق وأومأ إليّ متوعداً.

أشفق التاجر عليه وأعطاه الحصان، فانطلق الخادم آملاً في الوصول إلى أصفهان في الليل.

وفي المساء، خرج التاجر نفسه إلى السوق، ورأى هو أيضاً الموت، مثلما جرى للخادم من قبل. فقال التاجر للمنية وهو يدنو منها:

ـ أيتها المنية، لماذا أومأت إلى خادمي متوعدة؟

فردت عليه المنية:

ـ أتقول إني أومأت متوعدة؟ لا، لم تكن إيماءة توعد، وإنما استغراب ودهشة. فقد فوجئت برؤيته هنا، بعيداً عن أصفهان، لأنه يتوجب عليّ أن أقبض روح خادمك هذه الليلة في أصفهان.

حول الحكايات

بعد سماع حكاية الخادم غرق صديقي في التفكير. كان نظره مثبتاً على فنجان القهوة، كمن يبحث عن التكهن بشيء في الثمالة. ثم قال بعد ذلك:

ـ وأنا أيضاً أوافق بوريس كارلوف الرأي. إنها حكاية جيدة.

وكما في كل محادثة ليلية جديرة بهذا الاسم، حمل ذلك التعليق معه سؤالاً على شيء من الميتافيزيقية، لا تسهل الإجابة عنه:

ـ لماذا هي حكاية جيدة؟ وما الذي تحتاجه الحكاية لتكون جيدة؟

ـ أنا أعرف حكاية أفضل من هذه بكثير. ـ هتف أحدهم إلى جوارنا بلكنة أجنبية.

التفت أنا وصديقي مستغربين وجود ذلك الشاهد غير المنتظر. فقال لنا عندئذ:

ـ إنني أنا.

ولكننا لم نتعرف عليه. كان رجلاً مسناً، له شعر ولحية أبيضان. ومع أنه كان ينحني باتجاهنا مقرفصاً، إلا أنه بدا لي طويلاً.. لابد أن طول قامته يصل إلى مترين.

ـ أنا أعرف حكاية أفضل بكثير. ـ كرر القول. وكانت أنفاسه تعبق برائحة الويسكي.

ـ احكها لنا إذن ـ طلبنا منه أخيراً. وكنت أسأل نفسي إلى أي بلاد ينتمي هذا الشخص. فقد كانت ملابسه تكشف عن أنه أجنبي.

رفع إحدى يديه بوقار، وطلب منا أن ننتظر لحظة. وبينما هو يمضي نحو الكونتوار، كان رأسه وعنقه يبرزان وسط كتلة زبائن المحل. لقد كان طويلاً جداً حقاً.

ـ يجب علينا أن ننتقل إلى مكان آخر ـ قلت ذلك لصديقي. وعللت قراري مضيفاً بأننا إذا لم نفعل فلن نتمكن من التحدث في شؤوننا بهدوء.

كان مظهر ذلك الجد ذي الشعر الأبيض يشير إلى أنه رجل مشوِّق، إنما كان يبدو عليه السكر الشديد. أضف إلى ذلك أنه كان يتوجب علينا مواصلة طريقنا إلى أوبابا.

ـ هل تحدثت مع عمك دي مونتيفيديو؟ هل عرف أنني قادم أيضاً؟

ـ أجل، لقد أخبرته. وقد ابتهج كثيراً عندما قلت له انك أنت أيضاً ستقرأ شيئاً. أنت تعرف طبعه. فكلما كان هناك مزيد من الضحايا، تكون متعته أكبر.

ـ من المناسب لنا إذن أن ننسحب مبكرين. فجلسة الغد ستكون شاقة جداً.

وافقته ضاحكاً:

ـ سنذهب في الحال.

ولكن الرجل الطويل كان قد رجع. وكان يضع الآن قبعة، ويحمل في يده كأس ويسكي.

ـ قصتي مشوقة جداً. إنني أقول الحق. ـ قال بإصرار. وحين حاول الجلوس، تعثر ووقع فوقنا. فصرخ قائلاً:

ـ *I'm sorry* [1]

ـ إننا آذان صاغية ـ قال له صديقي ذلك، فأخرج الرجل آلة تسجيل صغيرة من جيب سترته ووضعها فوق الطاولة. ثم قال مؤكداً بعد أن ضغط ملمس التسجيل:

---

[1] سيرد في سياق القصة عدد من العبارات المماثلة باللغة الامكليزية، ولن نترجمها لأنها عبارات شائعة ومعروفة من جهة، ولأن ترجمتها ستشوه انسيابية القصة من جهة أخرى.

ـ عنوان الحكاية مونكي مونتيفيديو. أو بعبارة أخرى قرد مونتيفيديو.

ولكنه لم يستطع مواصلة الكلام. فقد كان لسانه ثقيلاً، وكان يتلعثم بالكلمات التي ينطق بعضها بالإنكليزية. فأطفأ جهاز التسجيل وهو يطلق زفرة.

ـ غير ممكن ـ قال معتذراً. وراح يرفع يديه إلى أذنيه مرة بعد أخرى.

فقال له صديقي وهو ينهض من مكانه:

ـ أجل، صحيح. الضجة هنا صاخبة. ثم إننا مضطران للذهاب. فلندع الأمر إلى مناسبة أخرى.

فقال الرجل حين نهضنا ثلاثتنا:

ـ *It's a pity.*

ـ أجل. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل! آمل أن نلتقي ثانية. سيسعدنا سماع حكايتك.

ـ وهو كذلك. ولكن ما العمل! لعلنا نلتقي ثانية.

كنت على وشك دعوته إلى جلسة القراءة التي سنعقدها بعد ساعات في أوبابا، ولكنني لم أجرؤ على ذلك ـ بالرغم من أن هذا النوع من المبادرات المفاجئة كان يروق لعمي عادة ـ فقد أخافني بعض الشيء إدمان الرجل على الشراب. وعندما ذهبنا إلى الكونتوار، أخبرنا النادل بأن طلباتنا مدفوعة.

لوحنا للجد ذي الرأس الأبيض شاكرين، ورد علينا هو رافعاً يده إلى حافة قبعته. ثم خرجنا بعد ذلك من استراحة الطريق واتجهنا نحو السيارة.

ـ كنا قد توقفنا عند مواصفات القصة الجيدة.ـ قال صديقي ذلك حين لم نكن قد قطعنا كيلومتراً واحداً على الاوتوستراد. وكان واضحاً أن الموضوع يستحوذ على اهتمامه.

سخرت منه قليلاً بالمزاحٍ من ميله الشديد إلى المحادثات الجديّة. والواقع أنني كنت أحترم كثيراً المراهق، المفعم بالقلق وغير المبالي بالتفاهات

الذي مازال حياً داخل ذلك الطبيب. لم يكن يبدو عليه أنه شخص يعيش في أواخر القرن العشرين.

ـ يمكننا أن نبدأ بتذكر بعض القصص التي تبدو لنا جيدة، لنرى إذا ما كنا نحن الاثنين متفقين فيما يتعلق بالنوعية. ـ قلت له ذلك في الوقت الذي كنت أُشعل فيه أنوار السيارة المنخفضة كيلا أزعج سيارة اللانسيا الحمراء التي تجاوزتنا للتو.

قال صديقي:

ـ أظنه إسماعيل.

ـ ماذا؟

ـ أظن أن إسماعيل هو الذي يقود سيارة اللانسيا. هذا على الأقل ما خُيل إلي.

قلت له:

ـ إنه ذاهب إذن إلى أوبابا لقضاء يوم الأحد، مثلنا.

فضحك صديقي:

ـ ومثلما قلت لك ، فإن قصة الحرذون ستكون لها بقية كبيرة.

ـ مثل تلك القصة التي أراد حكايتها لنا الجد؛ قصة **قرد مونتيفيديو**. إنني واثق من أننا سنتمكن يوماً من سماعها كاملة.

ـ وها نحن نعود مرة أخرى إلى حيث انتهينا. لابد لنا من أن نوضح أفكارنا قبل أن تباغتنا المناسبة. لأننا إذا لم نفعل ذلك، فلن نستطيع أن نقول له إذا ما كانت حكايته سيئة أم جيدة، وسيشعر الجد عندئذ بالغبن ـ قال صديقي ذلك، وكنت أرى أنه يزداد حماسة أكثر فأكثر.

ـ ابدأ أنت . ارو لي قصة تبدو لك جميلة.

ـ سأختار واحدة لتشيخوف.

ولخص لي صديقي القصة التي عنوانها **نعاس**:

فاركا هي خادمة فتية تعمل في بيت ثري، ولا تستطيع النوم مطلقاً. يمنعها من ذلك الطفل الرضيع الذي عليها رعايته، وهو طفل مؤرق لا

يتوقف عن البكاء طول الليل. كانت تؤرجحه وتغني له أغنيات عذبة، ولكن دون جدوى. وكلما كانت رغبتها في النوم تزداد، أوكلما كانت أشد إنهاكاً بسبب قلة النوم، كان صراخ الطفل يزداد. وبقي الأمر يسير على هذا المنوال يوماً بعد آخر، إلى أن جاء صباح أحد الأيام أخيراً، عندما انحنى أبوا الوليد على مهده يريدان تقبيله قبلة الصباح، فتبين لهما برعب أنه...

ما إن انتهى صديقي حتى بدأت أروي له قصة لإيليفين واو عنوانها **نزهة مستر لفداي القصيرة**:

إحدى سيدات المجتمع الراقي تشفق على شيخ وديع ولطيف المعشر يقيم منذ عشرين سنة في مستشفى للمجانين. **لماذا هو في المستشفى؟ إنه يبدو شخصاً طيب القلب، وطبيعياً جداً...** هكذا كانت السيدة تقول للطبيب، فيرد عليها: **إنه هنا بإرادته. هو نفسه لا يريد الخروج. لابد أن الأمر كان مختلفاً في البدء، فقد أقدم كما قيل لي على قتل فتاة شابة كانت تتنزه مطمئنة على دراجتها، وفعل ذلك دون أي سبب. ولكن الوضع مختلف تماماً الآن. لابد له بعد كل هذا الزمن من أن يخرج إلى الشارع.** وعندئذ تحاول السيدة أن تقنع الشيخ بأنه سيكون في وضع أفضل بكثير خارج المستشفى، وبأن الحرية شيء رائع، وتعرض عليه مساعدتها لإنجاز كل الإجراءات اللازمة . فيقول لها الشيخ: **ليست لدي رغبة كبيرة في الخروج من هنا، ولكنني اقتنعت بما قلتِه. أجل، أظن أن تبديل الهواء لن يكون سيئاً. أضف إلى ذلك أن هناك شيئاً أريد أن أنجزه في الخارج.** وهكذا استرد ذلك الشيخ الوديع وطيب المعشر حريته. ولكنه ما لبث أن عاد إلى مستشفى المجانين بعد ساعات قليلة من خروجه. وفي أثناء ذلك، على طريق عام قريب، عثر سائق شاحنة عابرة على دراجة ملقاة على قارعة الطريق، و...

- جيد جداً. إننا متفقان. إنها تبدو لي قصة متقنة. والآن سأروي قصة أخرى عن عِقد. إنها لموباسان. هل تعرفه؟

فقلت ونحن نتجاوز عربة مقطورة:

ـ لقد قرأته منذ زمن بعيد.

وبدأ صديقي:

ـ اسم البطلة ماتيلد لويسيل، أليس كذلك؟ أظن أن هذا هو اسمها.

ولكنه اضطر إلى التوقف لحظة قبل أن يواصل، لأن سائق العربة المقطورة ـ ربما لانزعاجه من تجاوزنا له، أو لرغبته في اللعب ـ أسرع حتى أصبح بمحاذاتنا من جهة اليسار، على مقربة شديدة منا، وكان يصدر ضجة تفوق ما يصدر عن ألف شيطان.

كبحتُ السيارة وتركته يسبقنا. كنت أنا وصديقي بحاجة إلى الصمت. وقد قلنا للسائق ونحن نرى أن لوحة سيارته فرنسية:

ـ رحلة موفقة إلى فرنسا.

فواصل صديقي:

ـ ماتيلد لويسيل أيضاً كانت من فرنسا. عاشت في باريس القرن الثامن عشر المتغنجة تلك. كانت متزوجة من موظف بائس، ولم تكن حياتها معه مشجعة بأي حال. وحدث أن تلقت في أحد الأيام دعوة إلى حفلة رقص يقيمها الوزير رامبونيه. ولكن هذا الخبر الطيب جاء مع ذلك ليزيد من حزن ماتيلد. لقد كانت ترغب من أعماق روحها بالطبع في حضور الحفلة الراقصة. ولكن، كيف ستذهب؟ أي ثوب ستلبس؟ أي حلي ستضع؟ وبينما هي على تلك الحال، تذكرت إحدى صديقات طفولتها التي تزوجت من رجل ثري. وما السيئ في أن أطلب منها أن تعيرني بعض مجوهراتها؟ وقررت عمل ذلك، وحصلت على الحلي بالفعل. وكان بين تلك الحلي عقد لؤلؤ ثمين...

ـ آه، أجل! الآن تذكرت. وإذا لم أكن مخطئاً، فإن ماتيلد لويسيل، وبعد أن استمتعت بالرقص حتى الإنهاك، انتبهت إلى أن عقد اللؤلؤ الذي أعارتها إياه صديقتها لم يعد موجوداً في جيدها. لقد أضاعته...

ـ بالضبط. لقد أضاعت ماتيلد العقد. ولكنها لم تكن تستطيع بالطبع أن تقول ذلك لصديقتها. كان عليها أن تعيده. وهكذا رهنت كل ما تملك، بما في ذلك حياتها، لكي تتمكن من شراء عقد آخر.

ـ أجل، لقد كان ذلك بالنسبة إليها كارثة حقيقية. كان عليها أن تشتغل ليلاً ونهاراً لكي تجمع ثمن العقد. وانظر كيف تنتهي الأمور.. فبعد بضع سنوات ، وبينما هي تتمشى في الشارع، تلتقي صدفة بصديقة طفولتها. وما الذي تعلمه حينئذ؟ إنها تعلم من صديقتها أن لآلئ العقد الذي أعارتها إياه كانت مزيفة، مجوهرات مُقلَّدة!

«ـ لن تصدقي ياماتيلد ـ قالت لها صديقتها ـ ولكن، منذ أخذتِه أنتِ إلى تلك الحفلة الراقصة، لم يعد العقد يبدو هو نفسه، فبريق اللآلئ صار مختلفاً. إنها تبدو وكأنها حقيقية.»

تلت هذه القصة قصة أخرى لشووب، وتبعت قصة شووب واحدة أخرى لتشيستيرتون؛ وهكذا، وبينما نحن نروي الحكايات، خلفنا طريق الاوتستراد وسلكنا الطريق المتعرج الذي يتوغل بين الجبال ليصل إلى أوبابا. وأنزلنا في أثناء ذلك زجاج نوافذ السيارة.

قلت لصديقي:

ـ كنا نسمي هذا الطريق في طفولتنا طريق الفراشات.

ـ لست أستغرب. رد عليّ صديقي بذلك في الوقت الذي كانت فيه أنوار السيارة تضيء أعداداً لاحصر لها من الفراشات البيضاء المتطايرة أمامنا. ثم أضاف: ـ يمكن القول إنها ثلج يتساقط.

قلت متذكراً:

ـ حين كنا صغاراً كنا نأتي بكثرة إلى هنا. على الدراجات بالطبع.. مثل فتيات قصة واو. لقد كنا نقضي الصيف على الدراجات.

وأراد صديقي أن يعرف:

ـ لماذا توجد كل هذه الأعداد من الفراشات؟

ـ يبدو لي أن هذا النوع من الفراش الأبيض يتغذى علــى النعنــاع. وهــذه النبتة تنمو بكثرة في الغابة التي نجتازها. يخيل إليّ أن هذا هو السبب.

هيج ما قلته ذكرياتي، فأخرجت رأسي من نــافذة الســيارة واستنشــقتُ بقوة هواء الصيف الدافئ. أجل، مازالت الغابة تعبق فعلاً برائحة النعناع.

اجتزنا الكيلومترين أو الثلاثة كيلومترات التالية بصمت، كل واحد منــا مستغرق في أفكاره، ونحن نراقب الفراشات، ونتــأمل حركــة الغابــة. وبـين الحين والآخر، عند المرور في مقطع مكشوف من الطريق، كنــا نلمـح أضـواء بيوت بعيدة، معزولة، وواضحة على سفوح الجبال.

وعندما أصبحنا على بعد نصف ساعة عن أوبابا، رأينا ســحابة صغـيرة بيضاء تتشكل في السماء مابين النجوم. وقد تلا ظهور السحابة انفجار ســهم ناري. فاستنتج صديقي:

ـ إنه احتفال في إحدى القرى القريبة.

ـ تلك التي هناك. ـ أجبته وأنا أشير إلى برج أجراس يبرز شبحه وســط الغابة.

ـ يبدو أن الفراشات لا تحب الاحتفالات. انظر، لقد اختفت.

وكان صديقي على حــق. ففـي تلـك اللحظـة لم تكـن مصـابيح الســيارة تكشف إلا الأعلام الملونة الصغيرة التي تزين الطريق.

أوقفنا السيارة عند مدخل القريــة بــالضبط، علــى مرتفـع مشـرف. ومـن هناك، كما من فوق شرفة مرتفعة، كنا نطل على الســاحة كلهــا ونســتطيع رؤية الرقص. وكانت موسيقى الفرقة تصلنا متقطعة، حسب هبات الريح.

سألني صديقي:

ـ إلى ماذا وصلنا إذن في مسألة القصص؟

لم يكن يريد الذهاب للاختلاط بالنــاس قبـل الانتهــاء مـن توضيـح أدق تفـاصيل القضيـة. والحقيقـة أنـني كنــت أشـعر مثــل شــعوره بــالضبط. فالأحاسيس تتفتح فوق ذلك المرتفع على خير ما يرام، حتى أن المرء يشــعر بالرغبة في التدخين وفي أن يحلم مستيقظاً

لم نبق في المكان طويلاً، ولكننا توصلنا مع ذلك، بما يكفي من الهدوء، إلى أن ندرس الهدف الذي يسعى إليه كتّاب جيدون مثل تشيخوف، أو واو، أوموباسان حين يكتبون القصص؛ وباجمالنا للنتائج، توصلنا إلى إقرار الخصائص التي تميز هذا الجنس من الكتابة. ونعمنا بالإحساس بأننا خضنا مناقشة مفيدة جداً.

ففي المقام الأول، تبدى لنا بوضوح التوازي القائم ما بين القصة القصيرة والشعر. ومثلما قال صديقي حين لخص ما قلناه، فانهما كلاهما ينحدران من التقاليد الشفوية، ويكونان قصيرين في العادة. إضافة إلى ذلك، وربما بسبب هاتين الخاصتين، على كل منهما أن ينجز مطلب كونه ذا مغزى. والدليل على ذلك هو أن بعض القصص القصيرة السيئة، وبعض القصائد السيئة هي، كما كتب أحدهم، فارغة وجوفاء وبائسة.

واختتم صديقي قائلاً:

ـ إذا نظرنا إلى الأمر بهذه الطريقة، فإن السر ليس في استنباط قصة، لأن هناك في الحقيقة فائضاً من القصص. السر هو في نظرة المؤلف.. في طريقته في رؤية الأشياء. فإذا كان جيداً حقاً، فإنه يستمد المادة من تجربته الذاتية، ويلتقط منها شيئاً جوهرياً؛ يستخرج منها شيئاً يكون ذا قيمة لأي شخص كان. أما إذا كان المؤلف سيئاً، فإنه لن يتجاوز مطلقاً حدود ما هو طرافة محضة. ولهذا فإن القصص التي تذكرناها اليوم تعتبر جيدة، لأنها تعكس أموراً جوهرية، وليست مجرد طرافات.

الفرقة الموسيقية التي كانت تحيي الحفلة بدأت تعزف مقطوعة عاطفية جداً. وأزواج الراقصين الذين كانوا يرقصون متقافزين قبل قليل، صاروا يفعلون ذلك الآن بحميمية تامة، ودون أن يتحركوا تقريباً.

قلت مؤيداً صديقي ومستعيداً خيط حديثنا:

ـ لهذا السبب كُتبت قصص قصيرة كثيرة حول الموضوعات العظيمة. أعني أنها تدور دائماً حول موضوعات مثل الموت، الحب، وأمور أخرى مماثلة. مثلما يحدث في الأغنيات بالضبط، وهذا أقوله بصورة عابرة فقط.

قال صديقي:

ـ ألم يعطك فالينتينو شيئاً متعلقاً بهذا الأمر؟

ـ من؟ فالينتينو الذي يعيش في آلارو؟

ـ هو نفسه.

كان صديقي يشير إلى كاتب كنا نخرج معه بكثرة.

فقلت متذكراً:

ـ صحيح! لقد أرسل إلي كتاباً لفوستر هاريس.ـ ثم أضفت:ـ وإذا لم أكن مخطئاً، فإن لدى هاريس نظرية مثيرة للفضول بشأن القصة القصيرة. فالقصة حسب رأيه لا تعدو أن تكون أكثر من مجرد عملية حسابية بسيطة. ولكنها ليست عملية أرقام بالطبع، وإنما هي مكونة على أساس جمع وطرح عناصر **الحب، الحقد، الأمل، الشهوة، الشرف** وعناصر أخرى من هذا النوع. فقصة إبراهيم وإسحاق على سبيل المثال، هي عملية جمع: **الشفقة** زائد **الحب البنوي**. أما قصة حواء بالمقابل، فهي عملية طرح نظيفة: حب للرب ناقص حب للعالم. وحسب هاريس أيضاً، فإن عمليات الجمع تؤدي عادة إلى قصص ذات نهايات سعيدة، أما حصيلة عمليات الطرح بالمقابل، فتكون عادة ذات نهايات مأساوية.

ـ ما يقوله إذن مشابه لما قلناه، أليس كذلك؟

ـ أجل، ولكن نظريته أكثر تحديداً. وعلى كل حال، من يدري؟ فربما لسنا سوى تعساء محكومين بأكثر أشكال الحساب بدائية.

عندئذ قال صديقي:

ـ مع ذلك، يبدو لي أن كل ما قيل ليس كافياً. فالنظرة القادرة على التقاط ما هو جوهري ليست كافية. لأن القصة الجيدة تحتاج أيضاً إلى نهاية قوية. هذا ما يبدو لي على الأقل.

ـ وأنا أيضاً أرى أن النهاية الجيدة هي أمر لا غنى عنه. نهاية تكون محصلة لكل ما سبق، وأكثر من ذلك إلى حد ما. وهذه الضرورة تفسر، على ما أظن، كثرة القصص التي تنتهي بالموت. لأنّ الموت هو حدث حاسم، كُلّيّ.

ـ لا شك في ذلك، لاحظ ما يحدث في قصة تشيخوف، أو في قصة واو، أو في قصة الخادم البغدادي التي رويتها لي في الاستراحة. كل هذه القصص عميقة المغزى ولها نهاية قوية. قصة البغدادي تذكرني بما جرى لغارسيا لوركا. لقد هرب من مدريد معتقداً أنهم سيقتلونه هناك، وبعد ذلك ... إنها قصة محكمة.. جيدة جداً. إنها بالنسبة لي أفضل قصص هذه الليلة.

ابتسمت لدى سماع كلمات صديقي. إنه يتذكر أخيراً القصة التي رويتها له في الاستراحة. لقد أزفت إذن اللحظة التي أُخرج فيها الورقة المخبأة في كمي. قلت له:

ـ أجل، مما لا شك فيه أن القصة جيدة. ولكنني أفضل تعديل نهايتها على أي حال.

بدت الدهشة على وجه صديقي. فتابعت:

ـ إنني أتكلم بجد، فقدرية القصة لا تروقني. إنها تبدو لي قدرية لا ترحم، مثل تلك القدرية التي تنعكس في القول: إن الحياة مثل رمية نرد. ما يراد أن يقال لنا من خلال القصة هو أن مصيرنا محسوم منذ الولادة، وأن إرادتنا لا تفيدنا في شيء. وأنه علينا أن نتقبل مصيرنا شئنا ذلك أم أبينا. أليس الموت آت إلينا؟ لم يبق لنا إذن من ملاذ سوى الموت.

هز كتفيه ليُفهمني بأنه لا يرى خياراً آخر. ثم أوضح لي:

ـ مثلما تشاء. ولكن يبدو لي أنها النهاية الوحيدة الممكنة لهذه القصة.

ـ أما أنا فقد أوجدت لها نهاية أخرى.

فقال وهو يقوس حاجبيه:

ـ هل كتبت تنويعاً على القصة؟

ـ أجل. وها هو هنا.

وأخرجت من حقيبة على مقعد السيارة الخلفي ورقتين مملوءتين بالكتابة تماماً.

انفجر صديقي ضاحكاً:

ـ أيوه! الآن فهمتك. حين بدأت الحديث عن الذوق الأدبي لدى بوريس كارلوف وكل تلك الأشياء التي قلتها، انتابتني الشكوك في الواقع. كنا نتحدث عن الحراذين وعن تصرفات إسماعيل، وفجأة غيّرتَ الموضوع دون أن تقدم أي تفسير. طبعاً! كانت تنهشك الرغبة في أن تعرض علي ما كتبته. هل هذا ممكن؟ ستبقى دائماً مثلما كنت!

هذه العبارة الأخيرة قالها لي بسبب سوء سمعتي. فجميع أصدقائي يتفقون على أنني قادر على الإقدام على أي حيلة من أجل التوصل إلى فرصة تتيح لي أن أقرأ لهم أعمالي.

قلت وأنا أرفع عيني إلى السماء:

ـ رباه، اغفر لعبدك هذا الذي لا سبيل إلى تقويمه!

فاقترح صديقي:

ـ موافق، ولكن فلنذهب أولاً إلى ساحة القرية. لستُ مستعداً لسماع تعديلك للقصة إلا وأنا أحمل زجاجة بيرة في يدي.

ـ وأنا علي أن أدفع ثمن البيرة بالطبع.

ـ أكيد.

فهتفت قبل أن نخرج من السيارة:

ـ يجب أن نرى كم هي قاسية حياة الكاتب! عليه أن يرشو الناس حتى من أجل أن يتمكن من العمل.

عندما أصبحنا في الساحة، رأينا موسيقيي الاوركسترا ينسحبون للراحة، وكان قد حلّ محلهم على المنصة عازف أكورديون. وبدأ الناس الآن يتجمعون في الحانتين أو الحانات الثلاث الموجودة هناك، أو على مقربة منها، وهم يضحكون ويتكلمون صارخين.

كاد حصولنا على الشراب أن يكون أصعب من تحديد مواصفات القصص. وأخيراً حصلنا على ما نريد وهربنا من تلك الفوضى بأقصى سرعة حين رأينا أن هناك مقاعد للجلوس في الممر القريب من المقبرة.

كنا سعيدين. فقد كانت ليلتنا تشبه أكثر فأكثر تلك الليالي التي يحتفل بها في إنكلترا أعضاء الـ *Other Society* مرة في السنة. والفارق الوحيد هو أننا لم نلتق في فندق من فنادق البيكاديللي، وأن حكايتنا ـ إلى حد ما على الأقل ـ ليست قوطية.

وبوصولنا إلى هذه النقطة من الطريق، أعود للتوقف ثانية، وأنتقل لنسخ التعديل على القصة الذي رويته لصديقي. أما الرحلة نحو الكلمة الأخيرة فستتواصل فيما بعد.

ديوب، خادم التاجر الثري

كان ياماكان، في مدينة بغداد، خادم يعمل في خدمة تاجر غني. وفي أحد الأيام، توجه الخادم منذ الصباح الباكر إلى السوق للتبضع.

ولكن ذلك الصباح لم يكن مثل كل الصباحات الأخرى، لأنه رأى في ذلك الصباح الموت، ولأن الموت أومأ إليه.

رجع الخادم مذعوراً إلى بيت التاجر، وقال له:

ـ سيدي، أعطني أسرع حصان في البيت. أريد أن أبتعد كثيراً عن بغداد هذه الليلة. أريد الذهاب هذه الليلة إلى مدينة أصفهان البعيدة.

فسأله التاجر:

ـ ولكن، لماذا تريد الهرب؟

ـ لأني رأيت الموت في السوق وأومأ إلي متوعداً.

أشفق التاجر عليه وأعطاه الحصان. فانطلق الخادم آملاً بالوصول إلى أصفهان ليلاً.

كان الحصان قوياً وسريعاً. فوصل الخادم إلى أصفهان متلما كان يأمل مع أول النجوم. وبدأ يطرق الأبواب بيتاً بيتاً، طالباً الملاذ.

كان يقول لمن يستمعون إليه:

ـ إنني هارب من الموت، وأطلب منكم الملجأ.

ولكن أولئك الناس كانوا يرتعبون ويغلقون أبوابهم حين يسمعون ذكر الموت.

بقي الخادم يجوب شوارع أصفهان طوال ثلاث، أربع، خمس ساعات، يطرق الأبواب ويستنفد قواه دون طائل. وقبل الفجر بقليل وصل إلى بيت رجل يدعى كالبوم داهابين.

ـ الموت أومأ إلي مهدداً هذا الصباح، في سوق بغداد؛ وأنا هارب منه. أرجوك أن تمنحني ملجأ.

ـ إذا كان الموت قد توعدك في بغداد، فلابد أن يكون قد ترك تلك المدينة. وثق بأنه قد لحق بك إلى أصفهان. ولابد أنه أصبح ضمن أسوار مدينتنا، لأن الليل يقترب من نهايته.

فهتف الخادم:

ـ إنني مقضي علي إذن!

ورد كالبوم:

ـ لا تيأس. إذا استطعت البقاء حياً حتى شروق الشمس، فسوف تنجو. إذا كان الموت قد صمم على أخذك هذه الليلة، ولم يتوصل إلى تحقيق هدفه، فإنه لن يستطيع ذلك مطلقاً. هذا هو القانون.

فسأله الخادم:

ـ ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل؟

فأمره كالبوم وهو يغلق باب بيته وراءه:

ـ هلم بنا بأسرع ما يمكن إلى دكاني الذي في الساحة.

في أثناء ذلك كان الموت يقترب من أبواب سور أصفهان. وكان الضياء قد بدأ ينتشر في سماء المدينة. ففكر الموت:

«سيبزغ الفجر بين لحظة وأخرى. يجب أن أسرع. وإذا لم أفعل ذلك فسوف أفقد الخادم.»

دخل الموت أخيراً إلى أصفهان، وشم آلاف الروائح المنتشرة في المدينة بحثا عن رائحة الخادم الذي هرب من بغداد. في الحال اكتشف مخبأه: إنه موجود في دكان كالبوم داهابين. وبعد لحظة من ذلك كان يجري نحو المكان.

كان قد بدأ يعلو في الأفق ضباب خفيف. وأخذت الشمس تهيمن على الدنيا.

وصل الموت إلى دكان كالبوم. فتحٍ الباب بقوة و... ملأت الدهشة عينيه. لأنه لم ير في تلك اللحظة خادماً واحداً في الدكان، وإنما خمسة، ستة، عشرة خدم يشبهون ذاك الذي يبحث عنه.

نظر الموت بطرف عينه إلى النافذة. كانت أولىخيوط الشمس قد بدأت تلمع على الستارة البيضاء. ما الذي يحدث هنا؟ لماذا يوجد كل هؤلاء الخدم في الدكان؟

لم يبق لديه وقت ليستقصي ذلك. فأمسك واحداً من الخدم الموجودين في المكان وخرج إلى الشارع. كان الضياء عندئذ يغمر السماء كلها.

في ذلك اليوم خرج الجار الذي يسكن قبالة الدكان في الساحة غاضباً وهو يلعن ويقول:

ـ عندما نهضت صباح اليوم من فراشي ونظرت من النافذة، رأيت لصاً يهرب حاملاً مرآة تحت إبطه. عليه اللعنة ألف مرة! كان عليه ألا يتعرض لرجل طيب مثل صانع المرايا كالبوم داهابين.

مستر سميث

لوح لنا شخص بيده محيياً وراح يقترب من المقعد الذي كنا نجلس عليه. وبما أن ممر المقبرة كان شبه مظلم، فإننا لم نستطع في البدء أن نميز ملامحه. ولأننا لا نعرف أحداً من أهالي القرية، فقد افترضنا أنه ذلك النوع من الحماس التقليدي الذي يسود كل الحفلات ويشعر المرء معه أنه سعيد وصديق للجميع. ولكن الشبح بدأ يتحدد شيئاً فشيئاً، ورأينا بياضاً على رأسه. فقلت لصديقي:

ـ إنه طويل جداً. لاشك أن طول قامته يزيد على مترين.

فقال لي:

ـ وهو يحمل قبعة في يده.

ـ وله فوق ذلك شعر ولحية أبيضان.

ـ وبعد..

ـ إنه الجد الذي التقيناه في الاستراحة! ـ قلنا ذلك معاً ونحن ننفجر بالضحك. وعندما وصل إلى حيث كنا نجلس، أسند الجد ظهره إلى عمود النور المجاور للمقعد. وهتف على سبيل التحية:

ـ أنا أعرف قصة أفضل بكثير.

فهمست لصديقي:

ـ يبدو لي وكأنه يلحق بنا مثل الموت الذي لحق الخادم البغدادي.

فرد علي صديقي:

ـ إنها مسألة أخرى. فالقضية هي أنه مستعد لعمل أي شـيء مقـابل أن يتمكن من رواية قصته. إنه توأم روحك، لاشك لدي في ذلك. ـ ثم توجه إلى الجد قائلاً :ـ اجلس هنا يا رجل.

دنا منا، ولكنه أومأ لنا مشيراً إلى أنه يفضل البقاء واقفاً.

قدم له صديقي زجاجته قائلاً:

ـ هل تريد قليلاً من البيرة؟

هز رأسه سلباً وقال:

ـ أفضل الويسكي.

ـ حضرتك تقول إنك تعرف قصة أفضـل. ولكـن، أفضـل مـن أي شـيء تقصد؟ ـ سألته ذلك وأنا أريد أن أعرف إلى أي حد كان يعي ما يقوله.

أجاب:

ـ بغداد، أصفهان، ياه!

تبادلنا أنا وصديقي النظرات باستغراب. لم يكن غائباً عن الوعي تمامـاً مثلما بدا لنا. وسألناه:

ـ ما اسمك؟

ـ سميث. اسمي سميث.

وكان هو من ضحك هذه المرة.

ـ أخبرنا على الأقل من أين أنت. أنا لا أظن أنك أجنبي تماماً. أنت لم تولد هنا، أليس كذلك؟

فهتف وهو يكسو وجهه بالذعر ويرفع إصبعه إلى شفتيه:

ـ *Silence! Smith!*

دعاه صديقي:

ـ اجلس هنا يامستر سميث. اجلس هنا وابدأ برواية هذه القصة الثمينـة لنا. لن تجد مستمعين أفضل منا. أضف إلى ذلك أننـا نعـدك بعـدم سـؤالك مطلقاً عن اسمك الحقيقي.

جلس هذه المرة في المكان الذي أفسحه له صديقي، ولكن ليس على الجزء السفلي من المقعد، وإنما فوق المسند، مثلما يفعل المراهقون.

ـ القصة جميلة، ولكن لا، لا يمكنني الآن أن أروي لكما قصة قرد مونتيفيديو. *Sorry, my friends*.

فألححنا:

ـ ليس مهماً، ارو لنا أي قصة أخرى. تجربة عشتها مثلاً. فليس من العدل أن تعدنا كثيراً ثم لا تروي لنا شيئاً بعد ذلك.

ـ لا بأس *my friends*. قصة. لن تكون الأجمل، ولكنها الأكثر واقعية. حدثت لي أنا بالذات منذ زمن طويل.

ـ هيا إذن.

نهض واقفاً من جديد، ونفض الغبار عن سترته وبنطاله وكأنه يريد أن يبدو وقوراً بعض الشيء. ثم أخرج من جيبه آلة التسجيل ـ وبعد أن جربها مرتين ـ ضغط على مفتاح التسجيل.

أُضيء الضوء الأحمر في الجهاز، وكان لابد من البدء. تنهد مستر سميث قليلاً وبدأ برواية قصته لنا؛ وكان أسلوبه أقرب إلى الإلقاء منه إلى الحديث العادي.

إن الطريق إلى الكلمة الأخيرة طويل. ولهذا سأتوقف مرة أخرى لأدون القصة التي ألقاها علينا السيد سميث في ذلك الممر قرب المقبرة. لأن عدم فعل ذلك سيكون تهاوناً. فقد قال أحدهم يوما: يجب ألا يضيع شيء مما يعيشه المرء.

لقد نسخت القصة مثلما وردت في شريط التسجيل تقريباً. ولم أفعل سوى تصحيح، أو بعبارة أدق، ترجمة بعض الكلمات والعبارات التي وردت باللغة الإنكليزية في الأصل. فقد بدا لي أنها تعرقل انسيابية القصة.

ولا بد من توضيح آخر قبل أن أنتهي. فالقصة تخلو من العنوان، وقد وضعت لها أنا وصديقي العنوان الذي تحمله الآن: *اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو*.

والكلمة الآن للسيد سميث.

اسمها وهي عازبة، لاورا سيلغو

كانت لاورا شيلدون، واسمها قبل الزواج لاورا سيلغو، تنظر إلى امتدادات الأدغال من قرية آتارايا مستمعة إلى غناء كل سكان أعالي الأمازون؛ مستمعة إلى غناء **الاراماباسا**، وإلى غناء **الباباسي**، إلى غناء **الكارتشوباوسا**، وكذلك غناء البط الذي يدعونه **ماريكينيا**، وطائر **البانغوانا** الرعديد الذي يموت بعد أن يضع خمس بيضات؛ وغناء الببغاء الأزرق الذي يدعونه **ماراكانا**. وكذلك غناء الطائر الحزين **ايايمامان** الذي يبكي مثل بكاء طفل تائه.

كانت تستمع إلى غناء كل تلك الطيور، ومئة نوع آخر، وفوقها مئة غيرها.

ولكنها لم تسمع غناء الطيور فقط؛ بل كانت تسمع كذلك أسماك نهر أونيني ونهر مابويا وغيرهما من أنهار المنطقة. فبينما هي جالسة هناك، عند باب الكوخ في آتالايا، بعيداً جداً عن ايكيتوس، كانت تراقب الغابة، ممعنة النظر بصورة خاصة باتجاه تييرا ألتا الخضراء، حيث يولد نهر أونيني. فكل الآثار تشير إلى أن زوجها توماس شيلدون، كان هناك قبل أن يختفي. كانت ساعة المساء الأخيرة، ولاورا شيلدون التي كان اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو، تفكر في أن زوجها قد مرّ من تلك الغابة، وأنه استمع إلى العصافير وكذلك إلى الأسماك: استمع إلى غناء **الأكاراواسو** المتلألئة، وغناء **الغاميتانا**، وغناء **الشيريبيراري**، وكذلك إلى غناء **البايتشانا** التي

لها لسان عظمي ويبلغ طولها ثلاثة أمتار، وإلى غناء حنكليس **الأنياشوا** الذي يمكنه أن يقتل بإفراز دفقة سم واحدة، **والشويوا** التي يمكنها المشي على اليابسة، وغناء **البانيا** أو**البرانيا**، وغناء **المابا**راتي **والبالوميتا** الصالحة للأكل.

استمع إلى غناء كل تلك الأسماك، وغناء مئة نوع آخر، وفوقها مئة غيرها.

ولكنها لم تكن تسمع الأسماك والعصافير وحدها؛ بل كانت تسمع كذلك الأفاعي التي تصعد وتنزل على الأشجار، وهي جالسة هناك عند باب الكوخ، ناظرة إلى الغابة، ومفكرة بالرسالة التي تلقتها قبل سنة في دبلن: *if lost return to sender-Doctor Thomas Sheldon - Napo street - Lquirtos - Peru,*[1] هذا ما يقوله مرسل الرسالة، وفيها يعترف زوجها برغبته في التوغل في الأدغال. كان يريد أن ينسى وجوه الجنود الذين رآهم يموتون في فيردان وآراس، يريد أن ينسى الجراح الفظيعة بالحراب التي - *God knows* - أنه لم يستطع معالجتها؛ كان يشعر بخيبة أمل رهيبة من نفسه ومن العالم، وكان هدفه الأول هو أن يقذف إلى الأمازون الميدالية التي منحوه إياها لقاء عمله كطبيب عسكري برتبة نقيب. مضت سنة على تلقيها تلك الرسالة، وبعد ذلك لاشيء.. الصمت وحده. وكانت لاورا شيلدون، التي كان اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو، تخشى أن يكون توماس ميتاً ويرقد قريباً من منبع نهر أونيني، في التييرا ألتا تلك التي تتأملها وهي تستمع إلى الأسماك، والطيور، وأفاعي الغابة؛ تستمع إلى **الآفانينغا** التي تصفر مثل صفير صبي، **والمانتونا** ذات العشرة ألوان، **والناكا** الصغيرة إنما السامة جداً، وكذلك إلى **الأغواخيماتشوي** التي لها طعم ثمرة النخيل، **واليانابوا** العملاقة التي لها ثخن رجل مربوع، **والساتشامانا**، **والياكومانا**.

---

(1) ــ بالانكليزية في الأصل: إذا لم يصل يعاد إلى المرسل ــ دكتور توماس شيلدون ــ شارع نابو ــ ليكويرتوس ــ البيرو.

كانت لاورا شيلدون، اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو، تستمع كيف تتحد أصوات كل تلك الأفاعي ـ وأصوات مئة نوع آخر، وفوقها مئة غيرها ـ مع غناء الطيور والأسماك، وهي جالسة هناك، عند باب الكوخ في آتالابا، مفكرة في زوجها ودون أن تسمح لنفسها بالاقتناع بما كنا أنا وثيسر كالفو نقوله لها:

ـ أنا أفكر في أن الدكتور قد ركب نهر اوكايالي، ثم انحرف إلى اليسار باتجاه نهر أونيني. ـ هذا ما كان يقوله لها ثيسر كالفو، رجل ايكيتوس الحكيم، ويضيف: ـ وإذا كان ذلك صحيحاً، فليس هناك ما يدعو إلى القلق. فالدكتور يجب أن يكون الآن بين **الاشانينكيين**، وهؤلاء أناس طيبون لا يهاجمون **الفيراكوتشاس** الذين مثل زوجك. أعني البيض المسالمين.

وفضلاً عن كونه رجلاً حكيماً، ومعلماً في كل ماله علاقة بالأدغال، كان ثيسر كالفو طيباً، وكان حذراً. يتحدث عن الاشانينكيين، ولكنه لا يأتي على ذكر الاماواكا، القبيلة التي تعيش في الجهة اليمنى من نهر اوكايالي، على ضفاف الاوربامبا؛ وهؤلاء خيار قاتل بالنسبة إلى أي أبيض، مهما كان سلوكه.

ـ الآن يجب أن يتناقص يأسك يا لاورا. فللمرة الأولى منذ ثلاثة أشهر أصبحت لدينا رؤية مؤكدة. إنني واثق الآن من أننا سنجد زوجك غداً أو بعد غد. أقول لك الصدق ـ هذا ما كنت أقوله لها، أنا الرجل الذي تعاقدتْ معه ليساعدها في كوثكو، حين كانت ما تزال *beautiful girl* قادمة لتوها من دبلن، وليس امرأة منهوكة ومستنزفة في الأدغال. لقد كنت أقدرها، كنت أشعر بأنني صديقها، وكنت مستعداً لعمل أي شيء من أجل مواساتها.

ومع ذلك، لم تكن تصغي إلينا، وإنما كانت تصغي فقط إلى ساكني الغابة: إلى **الكاراتشوباوسا**، وإلى **الباباسي**، وإلى **الهوابابا**، وإلى **يونغورورو**، وإلى **آيايمامان**، وإلى **ليانابوا**، وإلى **ناكا**؛ وكذلك إلى القرد **ماكيسابا**، والضفدع **وابا**، وإلى السلحفاة **كوبيسو**.

وفجأة صمتت الغابة كلها. صمتت الطيور، صمتت الأسماك والحيات، وسكتت الحيوانات الأخرى، ولم يبق في ذلك الصمت كله سوى نحيب **اليايمامان** مستغيثا مثل طفل ضائع. كان الليل قد خيم على الأمازون.

أدارت لاورا شيلدون، التي كان اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو، رأسها نحو المكان الذي بدا لها أن ذلك الغناء المتفرد يأتي منه، ثم تكورت على الكرسي وأجهشت بالبكاء. ولم يبق لوقت طويل سوى غناءين اثنين في تلك الاتساعات الفسيحة: بكاء لاورا وبكاء **اليايمامان**.

كان الليل قد خيم تماماً عندما دنا منها ثيسر كالفو، رجل ايكيتوس الطيب، وتحدث إليها كأخ:

ـ سنجده. ولكن عليك أن تنامي الآن. مسيرة الغد ستكون طويلة جداً، ست ساعات حتى أونيني، ومثلها حتى أراضي الأشانينكا. يجب أن تنامي. سأرى إذا ما كانت الزوارق جاهزة وأُنجز الاتفاق مع الهنود. آمل أن يكونوا راغبين في التجديف. أضاف قول ذلك قبل أن ينصرف نحو كوخ آخر من أكواخ آتالايا.

وعندئذ اقتربتُ أنا من لاورا، ليس كأخ، وإنما كرجل لا يتذكر أنه عرف امرأة مثلها؛ مثلها في الذكاء، مثلها في الشجاعة، مثلها *very nice*.

ـ تشجعي يا لاورا. غداً سنجد زوجك، سترين. وآمل أن تضحكي كثيراً عندما تعانقينه، لأني لم أعرف ضحكتك حتى الآن. وأظن أن الوقت قد حان.

فاغتصبتْ ابتسامة ووضعتْ يدها على ذراعي، تريد أن تقول لي بذلك ألا أقلق، وأنها تشعر بتحسن.

بعد قليل رجع كالفو وقال إن كل شيء أصبح جاهزاً، وإن كل واحد منا سيذهب في زورقه ومعه مجذفان اثنان، حتى نصل إلى أونيني على الأقل.

سألته:

ـ حتى أونيني فقط؟

ـ أجل. وبعد وصولنا إلى أونيني سيكون علينا أن نعتمد على أنفسنا. فهنود آتالايا هؤلاء لا يريدون أي علاقة مع الأشانينكا.

بقينا لحظات أخرى تحت الليل الخالي من النجوم، نتطلع باتجاه تييرا ألتا الخضراء التي ننوي اجتيازها. ثم دخلنا بعد ذلك إلى الكوخ واستلقينا للنوم ونحن نلف أجسادنا جيداً بقطع كبيرة من نسيج سميك. كان لابد لنا من حماية أنفسنا من خفافيش بيري الصغيرة جداً، فهي الأكثر خبرة في امتصاص الدماء في الغابة كلها.

ومع ذلك، لم تكن خفافيش بيري هي التي منعتني من النوم لوقت طويل من الليل، وإنما القلق من الأمطار الأمازونية التي كان موسمها قريباً جداً. لم يكن ثيسر كالفو، رجل ايكيتوس الحكيم، يتحدث عن تلك الأمطار مطلقاً ولكنني كنت أشعر بأنه قلق بشأنها أيضاً. فإذا نحن لم نسرع، فإن الأمطار ستسد علينا طريق العودة وتضطرنا إلى البقاء مع الأشانينكا، معزولين عن الحضارة، إلى اليوم الذي تصبح فيه الأنهار صالحة للملاحة من جديد.

إن الأشانينكا أناس طيبون بكل تأكيد، ولكن لم يبق شيء على حاله في الغابة منذ ظهور بنادق وينشستر جامعي المطاط. كان من الأفضل عدم المجازفة وأن تكون رحلة الذهاب والإياب سريعة.

في اليوم التالي، وبعد أن توزعنا على الزوارق الثلاثة التي استأجرها ثيسر كالفو، بدأنا الإبحار في نهر اوكايالي مشكلين صفاً تحتل منتصفه لاورا ومجذفاها. وبعد سبع ساعات، ودون أن نواجه أي صعوبات، رأينا مياه نهر أونيني، وكان لونها أصفر تقريباً، وهي تختلط بمياه نهر اوكايالي، فعرفنا أن اللحظة الحاسمة تقترب. عما قريب سنكون بين الأشانينكا. وستعرف لاورا أخيراً ما هو المصير الذي انتهى إليه زوجها.

وعلى الفور تقريباً، رفع الهنود مجاذيفهم مشيرين نحو الأشجار الحمراء التي برزت أمامنا في إحدى جزر النهر الصغيرة. تلك الأشجار كما

قال لنا ثيسر فيما بعد هي **بالوسانغري**، وهو جنس أشجار تقليدية عند مصب نهر أونيني.

الهنود الذين سيطرت عليهم العصبية أعادوا إنزال مجاذيفهم إلى الماء واقتادونا إلى الضفة. فالرحلة بالنسبة إليهم قد انتهت.

ـ ألا تريدون المواصلة؟ ـ سألهم ثيسر بعد أن دفع لهم النقود المتفق عليها في آتالايا، ثم أضاف: ـ إذا أوصلتمونا إلى أعالي أونيني سأدفع لكم الضعف.

ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً، فقد كانوا خائفين جداً. وبعد وداع سريع، ركبوا في زورقين وقفلوا راجعين نحو قريتهم. كانت هناك مئات القرود ـ قرود **الماكيسابا** المخبولة في أعالي الأمازون ـ تصرخ من حولنا.

عندئذ نظر ثيسر كالفو، رجل ايكيتوس الحكيم، إلى السماء وقال:

ـ مازال هناك كثير من الضوء. من الأفضل أن نواصل الرحلة سيراً على الأقدام على ضفة أونيني، فهكذا نتجنب دوامات المصب.

ـ حسن. قلتُ وأنا أُخرج المتشيتي وأتوغل بين أشجار **البالوسانغري** وأبدأ بشق الطريق. وسار هو ولاورا ورائي يحملان الزورق الذي تركه لنا المجذفون.

مشينا قرابة أربع ساعات دون أن نبتعد عن ضفة أونيني، مسترشدين بالصخب الذي تحدثه مياهه في انحدارها. ثم بحثنا بعد ذلك عن شاطئ استعداداً لقضاء الليل.. إنها ليلتنا الأولى في أراضي الأشانينكا.

ـ من الذي سيتولى نوبة الحراسة الأولى؟ ـ سألتْ لاورا شيلدون، التي كان اسمها وهي عازبة لاورا سيلغو، بعد أن نصبنا الخيمة وأشعلنا مواقد النار من حولها.

فقلت لها:

ـ أنا سأتولى نوبتين: نوبتك ونوبتي.

فهزت رأسها مستنكرة وقطبت جبينها مثلما تفعل كلما تكون على وشك الزعل.

ـ لن أقبل اعتراضات. قلت لها ذلك وأنا أتخذ مجلساً على بقية جذع شجرة على الشاطئ، مظهراً بذلك أن نوبة حراستي قد بدأت.

فابتسم ثيسر كالفو، رجل ايكيتوس الطيب وقال لها:

ـ إنه شاب وقوي. سيتحمل.

وهكذا انتهى النقاش. بعد قليل من ذلك كانا كلاهما يغطان في النوم في الخيمة.

لم يكن يُسمع في الغابة كلها إلا هدير تيار نهر أونيني وفرقعة لهب النار التي تحمي الخيمة. أين هي الطيور والحيات التي كانت أصواتها ترافقنا في النهار؟ أين هي قرود الماكيسابا الصاخبة؟ ربما تكون مختبئة بين أغصان البالوسانغري التي تحف بالشاطئ، مترصدة، تنتظر أي لحظة سهو لتخرج من مخابئها وتنقض. ولكنني لم أكن مستعداً لتوفير تلك الفرصة لها. كان نظري مسلطاً على الغابة، متيقظاً لأدنى همسة، لأدنى فرقعة تصدر عن أغصان مكسرة، ولم أكن أحوّل نظري إلا عندما أنهض من مكاني لأحرك ساقي، فأنظر عندئذ إلى الخيمة وأشعر بالراحة وأنا أفكر بلاورا. لقد كنتُ حارس أحلامها، وكان ذلك يبعث السعادة في نفسي.

وكنت ما أزال أفكر فيها عندما فاجأتني صرخة سعيدة يطلقها قرد ماكيسابا. ففكرت مطمئناً نفسي: «إنه الفجر». وفي تلك اللحظة بالذات، اجتازت أفعى ناكا حلقة الجمر التي تحميني وغرست نابيها الصغيرين في عقب قدمي اليسرى.

ـ ما الذي يحدث؟ ـ صرخ ثيسر كالفو وهو يخرج مسرعاً من الخيمة. فقد أفزعته صرخات الألم التي كنتُ أطلقها.

أريته الحية الراقدة على بعد مترين مني. وكنت قد قطعتها نصفين بمنجلي المتشيتي.

ـ إنها ناكا! ـ صرخ ثيسر وهو يفتح عينيه على اتساعهما. ثم أمسك المتشيتي وأحدث جرحاً كبيراً في موضع اللدغة.

ـ ماذا جرى؟ ـ سألتْ لاورا وهي تخرج من الخيمة أيضاً. ولكن ثيسر كان منحنياً فوقي، يمص الدم من الجرح. فبقي سؤالها معلقاً في الهواء دون جواب.

ـ *Oh, may God!* ـ قالت لاورا حين أدركتْ ما حدث. وقد قالت ذلك بحزن شديد لدرجة أنني نسيت الألم للحظة. لقد كان ذلك دليلاً على أنها تقدرني أيضاً.

ـ أظن أنني قد سحبت كل السم. ـ قال ثيسر بعد نصف ساعة. وكان الوقت قد صار نهاراً عندئذ، وصار غناء سكان الغابة يلفنا من جديد. وإلى جوار الخيمة كانت هناك بقعة قاتمة تلوث طين الضفة الجاف: إنه الدم الذي أُخرج من جرحي.

سألتني لاورا:

ـ هل تؤلمك؟

فكذبت قائلاً:

ـ ليس كثيراً.

كنت مستعدا لعمل أي شيء حتى لا أعرقل سير الرحلة. وبدأتُ بفك الخيمة وجمع كل الأشياء التي نحتاج لحملها في الزورق؛ وكنت أفعل ذلك ببهجة أكبر من المعتاد، وكأن اللدغة قد منحتني مزيداً من القوة.

قلت لهما:

ـ أنواصل؟

فنظرا إلي كلاهما بجزع، وبدا عليهما الخوف من انهياري بين لحظة وأخرى. ولكنني، مثلما قال ثيسر، كنت رجلاً شاباً وقوياً. يمكنني أن أقاوم السم الذي مازال في جسدي.

سحبنا الزورق حتى الماء، وجدفنا نحن الثلاثة متجهين إلى أعالي أونيني، نحو تيرا ألتا الخضراء، حيث نأمل بالعثور على الدكتور شيلدون. وكنا قد أمضينا نحو ساعتين في النهر عندما انضم غناء جديد إلى غناء سكان الغابة المألوف. كان صوتاً رتيباً ومكروراً.

رفع رجل ايكيتوس الحكيم رأسه ليسمع بصورة أفضل.

ـ ها قد بدأت **المانغواري** تدوي ـ قال ذلك، ثم أوضح أن هذا هو الاسم الذي يطلقه الاشانينكا على طبولهم الخشبية.

فتنهدت وأنا متشوق إلى الوصول:

ـ إننا قريبون جداً إذن.

وكنت أشعر بضعف متزايد أكثر فأكثر، وكان كاحلي قد تورم كثيراً. ولم أعد واثقاً تماماً من قدرتي على التغلب على سم أفعى **الناكا**.

هز رجل ايكيتوس الطيب رأسه. أجل، بين لحظة وأخرى سيظهر الاشانينكا. ثم أضاف بعد ذلك شيئاً كان يحتفظ به سراً حتى ذلك الحين:

ـ الأشانينكا مقاتلون جيدون، إنهم أناس شرفاء. لا يغدرون أبداً ـ هكذا بدأ الكلام. وبقيت أنا ولاورا صامتين. فواصل قائلاً: ـ السم الذي يستخدمونه ليس من نوع الكورار، ليس مثل السم الموجع والمؤلم الذي يُستخرج من نبتة **توهي**، إنه يقتل على الفور ودون ألم.

وأظن أنني انتبهت أنا ولاورا عندئذ إلى حقيقة الخطر الذي نواجهه. ليس هناك أدنى شك في أن ثيسر كالفو يعرف كيف يقول الأشياء في الوقت المناسب.

وقد انتهى إلى القول:

ـ لا أظنهم سيلحقون بنا أي أذى على أي حال. فهم كما قلت لكما من قبل، لا يهاجمون **الفيراكوتشا** المسالمين.

وفي أثناء ذلك كانت طبول **المانغواري** تواصل دويها في الغابة، وكان صوتها يزداد قوة أكثر فأكثر. وكان الأونيني قد بدأ بالتحول إلى نهر ضيق.

سرعان ما أصبحتُ عاجزاً عن التجديف. لم أعد أجد القوة في ذراعي، وأصبحت ساقي تؤلمني كلما حركتها. ومع ذلك، لم أكن أشعر بالتعاسة، وكنت أبدو كما لو أن الألم لا يهمني. فأنا في نهاية المطاف إلى جانب لاورا، الـ *beautiful girl* التي تعرفت عليها في كوثكو، المرأة التي أكن لها أكبر تقدير في العالم، والمهم بالنسبة إلي هو أن تجد الدكتور شيلدون وترجع

معه قبل موسم الأمطار، وأن لا تضطر إلى البقاء بين الأشانينكا؛ لأن الأشانينكا صاخبون جداً، يقرعون طبولهم على الدوام، وليس هذا ما أتمناه للاورا، فأنا لا أحب أن أراها تبكي مثلما يبكي **اليايمامان**.

عندئذ قالت لاورا:

ـ لستُ أبكي.

نهضتُ قليلاً وفتحت عيني. فرأيت أنني لم أعد في الزورق، وإنما منبطح على ضفة نهر أونيني. وبالفعل، لم تكن لاورا تبكي، بل كانت تبتسم وهي تمسح العرق عن وجهي بمنديل أبيض.

قالت لي لاورا وهي ما تزال تبتسم:

ـ لقد أعطيناك كينين، فانخفضت حرارتك كثيراً.

أحسست بالخجل. فأنا لا أعرف ما الذي كنت أقوله في هذيان الحمى. كنت أخشى أن أكون قد صرحت بمشاعري الحقيقية.

ـ أتسمع الطبول؟ ـ سألني ثيسر كالفو بعد أن جثا إلى جانبي.

كان من المستحيل عدم سماعها. فدوي **المانغواري** كان يعم الغابة كلها. وأضاف ثيسر قائلاً:

ـ آمل أن يأتي الأشانينكا قريباً. لأنه لا يمكن إلا **لشيريمبياري** أن ينقذ حياتك.

سألته:

ـ **شيريمبياري**؟

ـ هذا هو الاسم الذي يطلقونه على سحرتهم.

حاولتُ النهوض، ولكن دون جدوى. فقد كنت أفتقد القوة. وفكرت في أن لحظة الوداع قد أزفت. فقلت لهما:

ـ لاورا، ثيسر، اسمعا ما سأقوله. من الأفضل أن تتركاني هنا. تابعا وحدكما، وابحثا عن الدكتور شيلدون قبل أن تبدأ الأمطار. إنني سعيد حقاً بالتعرف عليكما.

ـ *Crazy boy!*. هتفت لاورا ضاحكة، وضحك معها كذلك رجل ايكيتوس الطيب. إنهما لا يفكران في التخلي عني بأي حال من الأحوال.

غفوت من جديد، ولكنها كانت إغفاءة وديعة هذه المرة، استرحت فيها وحلمت بأننا نشوي لحم **ماكيسابا**، وأننا نحن الثلاثة، لاورا وثيسر وأنا، نحتفل بمناسبة سعيدة. ولكن، كان هناك صخب شديد في تلك الحفلة، كما لو أننا لم نكن نحن وحدنا، وإنما مع أشخاص آخرين كثيرين جداً، وجيمعهم يغنون، وجميعهم يصرخون.

وعندما فتحت عيني من جديد وقد أقلقني ما كنت أسمعه، كان الزائرون الذين انتظرناهم طويلاً قد وصلوا. كان هناك ثلاثة أشانينكيون أمامي، ثم عشرة آخرون، ومئة آخرون، وألف آخرون. يحتلون كل شاطئ أونيني وهم يهزون أقواسهم وسهامهم. كانوا عراة، وكانت أجسادهم مطلية بالأحمر والأسود.

كان ثيسر كالفو ولاورا يحاولان التكلم مع من يبدو أنه زعيم الجماعة. كانا يشيران إليّ مرة بعد أخرى، وأظن أنني كنت أسمع كلمتين تؤثران بي أكثر مما عداهما آنذاك: **ناكا**، و**شيريمبياري**. ثم غبت عن الوعي بعد ذلك.

لم أستعد رشدي إلا بعد أيام عديدة، ولم أشهد ما جرى مذ قرر الأشانينكا أن يأخذونا إلى حيث يعيشون. ولكننا، مثلما روى لي ثيسر كالفو فيما بعد، دخلنا القرية محاطين بالأطفال ووسط مظاهر ابتهاج عام. وكان الأشانينكا كما يبدو سعداء جداً بشعر لاورا الأشقر، فكان يكفي أن يلمسه أحدهم حتى ينفجر الآخرون في قهقهة عامة.

بعد ذلك ظهر **الشيريمبياري**، واسمه بولكابا آيومباري، وهو رجل مهيب، والأشانينكا الوحيد الذي كان يطلي جسده ووجهه بثلاثة ألوان، بالأحمر والأسود مثل الآخرين، وإضافة إليهما باللون الأبيض.

واعترف لي ثيسر :

ـ أدركت في الحال أنه لن يلحق بنا أي أذى. كان ينظر إلى عقب قدمك وهو مقطب الجبين، وكأن الورم يثير قلقه. ـ ثم أضاف قائلاً: ـ الأشانينكا

يبنون كوخين لكل واحد منهم. كوخ لأسرته يسمونه **تانتوتزي**؛ وكوخ آخر يسمونه **كآبا** للضيوف. وقد أمر بولكابا آيومباري بأن يحملوك إلى كوخه **الكآبا**. أما أنا ولاورا فقدم لنا كوخاً آخر جيداً في الجهة الأخرى من القرية. ـ وانتهى قائلاً: ـ ألا تذكر شيئاً من هذا كله؟

فأجبته:

ـ قليلاً جداً. أذكر أن الأشانينكا كانوا يعتنون بي، وأنني كنت أشعر بتحسن مطرد. ولست أذكر شيئاً سوى ذلك، اللهم إلا المطر. فالدوي الذي يحدثه على سطح الكوخ كان يوقظني.

ـ طبعاً. لقد بقيت عشرين يوما وأنت بين الحياة والموت. وهذا الوقت أكثر من كافٍ لكي يبدأ موسم الأمطار.

لم يكن ثيسر كالفو مخطئاً. فقد بقيت عشرين يوماً في بيت **الشيريمبياري** بولكابا آيومباري، وخرجت من هناك حين شفيت تماماً. لقد أومأت إليّ حينئذ امرأة عجوز لكي أتبعها، وقادتني إلى الكوخ الذي يشغله زميلاي. وما إن دخلت الكوخ حتى رأيت لاورا، فخفق قلبي بشدة: لقد بدت لي مجدداً امرأة جميلة، بدت لي تلك الـ *beautiful girl* التي كنت قد تعرفت عليها في كوثكو. يبدو أن الأشانينكا قد اعتنوا بها أيضاً، وأنهم قد ردوا إليها العافية كذلك.

أطلقت لاورا صرخة عالية ثم عانقتني. كانت تضحك وتبكي في الوقت نفسه، وكانت تردد إنها سعيدة برؤيتي من جديد. فقد كانت تخشى حدوث ما هو أسوأ.

ولكنها كانت قلقة مع ذلك. فهي لم تتوصل إلى معرفة شيء عن زوجها. لم يكن هناك في القرية أي أثر للدكتور شيلدون.

تدخل ثيسر كالفو قائلاً:

ـ الهنود لا يريدون قول شيء لنا. لا يريدون أو لا يستطيعون. كلما سألتهم شيئاً ينفجرون ضاحكين. وهو ما تفعله أيضاً العجوز التي كلفها

الشيريمبياري بخدمتنا. إنني أحاول استخلاص شيء منها، ولكن دون جدوى. فهي تضحك ثم تواصل عملها.

تنهدت لاورا:

- إنهم يعرفون شيئاً.. أنا متأكدة.

ولكنها لم تكن مقتنعة بما تقوله.

لم تكن تلك هي النهاية التي انتظرناها للرحلة. كنا ننتظر الخطر، بل والموت أيضاً؛ ولكننا كنا نأمل كذلك بالتوصل إلى أخبار عن زوج لاورا. ومع ذلك، فقد جرى العكس تماماً. لقد كانوا يعاملوننا كما لو كنا ضيوفاً مكرمين، ولكن دون أن يقولوا لنا شيئاً.

وفي أثناء ذلك، كان المطر يهطل دون توقف. كان المطر يهطل على الأكواخ، على الأشجار، على المستنقعات. ولم يكن يُسمع في الغابة كلها إلا غناء المطر.

وكان رجل ايكيتوس الحكيم يقول بتعقل:

- لهذا نحن هنا. لأن الأنيني يتدفق متعاظماً جداً ومن المستحيل التجديف فيه. فور توقف الأمطار سيعيدوننا إلى آتالايا.

وشيئاً فشيئاً راحت فكرة تفتيش كوخ بولكاب آيومباري تسيطر عليّ. فإذا كان الدكتور شيلدون قد ركب نهر أونيني - ونحن نعلم أنه احتمال قائم -، فلابد بالضرورة من أن يكون قد ترك آثاراً منه في القرية. يكفي إذن الدخول إلى ذلك الكوخ - وهو المكان المناسب للعثور على تلك الآثار- لنعرف ما الذي جرى له.

تحدثت في ذلك مع ثيسر كالفو، وقلت له:

- لا يمكننا السماح بعودة لاورا خالية الوفاض. ليس هناك ما هو أسوأ من عدم اليقين. يجب أن تعرف إذا ما كان زوجها حياً أم ميتاً.

- إن في ذلك مجازفة كبيرة. فالأشانينكا لا يتسامحون مع من يدخل بيوتهم بقصد السرقة. عقوبة ذلك هي الموت.. دائماً ودون استثناء.

بقي صامتاً لوقت لا بأس به يراقب المطر. ثم همس لي رجل ايكيتوس الحكيم:

ـ سينتهي موسم الأمطار عما قريب، ويومئذ يقيم الأشانينكا احتفالاً. ولكنهم لا يحتفلون هنا في القرية. إنهم يذهبون إلى ضفة أونيني. ثم أضاف: ـ إنها الفرصة الوحيدة.

قلت:

ـ سأحاول ذلك.

هز ثيسر كالفو رأسه مبتسماً. لم تكن تخفى عليه مبررات قراري.

فقلت مبرراً ما عزمت عليه:

ـ أخشى أن تصاب لاورا بالجنون. إنني أرى وجومها يزداد أكثر فأكثر. إنها تقضي الساعات وهي تتطلع نحو الغابة دون أن تقول شيئاً.

فشجعني ثيسر:

ـ أجل، من المناسب القيام بخطوة ما.

لم يكن قد انقضى أسبوع واحد حين عادت الشمس إلى سماء الأمازون. وقد استقبلها الأشانينكا بالضحك والصراخ، بحماسة بدت لنا طفولية نحن القادمين من عالم آخر. ولكن روحهم كانت على أي حال تثير الحسد. وكان من المستحيل عدم مقارنتها بأرواحنا. لقد كانوا سعداء، بينما لم نكن نحن كذلك.

بدأت الاستعدادات للحفلة منذ وقت مبكر. فالمحاربون، والشيوخ، والأطفال، جميعهم أسلموا أنفسهم للنساء لكي يزيّنهم. وكان بولكابا آيومباري الجالس أمام كوخه **التانتوزي** يبدو مثل طاووس. فهو سيكون دون ريب أبرز شخص في الحفلة.

عند الظهيرة كانت القرية قد أقفرت عملياً. فلم يبق سوى ثلاثة محاربين عند مدخل القرية، تُركوا هناك للحراسة، ولكنهم كانوا ثملين جداً بخمرة **تشوتشوايسي** بحيث لا يمكنهم تنفيذ واجبهم. لقد كانت اللحظة المناسبة للإقدام على الخطوة المنشودة قد أزفت.

ـ سأذهب لأفتش كوخ **الشيريمبياري**. فلننظر ما الذي سيحدث. ـ قلت ذلك للاورا قبل أن أخرج. وكانت هي منبطحة في سريرها وعيناها مغمضتان، وكانت أشد كآبة من أي وقت آخر.

ـ *You are a brave boy* ـ قالت لي ذلك وهي تفتح عينيها وترسم ابتسامة. فاحتفظت أنا بتلك الابتسامة في أعمق أعماق قلبي، وخرجت مصمماً على العثور على شيء ما.

كانت الإضاءة في **تانتوزي** بولكابا آيومباري أقل بكثير مما هو متوقع في يوم مثل ذلك اليوم شديد الصفاء، وقد انقضى بعض الوقت قبل أن تتمكن عيناي من رؤية الأشياء المبعثرة في كل أرجاء المكان. لقد ميزت، رغم ذلك، الأواني الفخارية التي يحفظ فيها **الشيريمبياري** مراهمه، وميزت كذلك بعض الأقنعة التي لم أره يستخدمها مطلقاً، ولكنها تُستخدم على ما يبدو في الطقوس الدينية. تقدمت بضع خطوات من السرير الذي لم يكن أكبر ولا أفخم من الأسرة التي في كوخنا، ثم توقفت فجأة. كان هناك شيء غير طبيعي. ولكن، ما هو؟ شعرت بأن عيني قد لمحتا شيئاً، ولكنني كنت عاجزاً عن تحديد ذلك الشعور. تفحصت كل ركن من الأركان التي أمامي، ولكن كل شيء كان يبدو طبيعياً.

«لست أراه الآن. لقد رأيته من قبل!» فكرت عندئذ في ذلك وأنا أرجع إلى الجزء الذي رأيته من الكوخ فور دخولي.

حينئذ رأيته. كان ذلك الشيء موضوعاً فوق أواني المراهم، وكان مستطيل الشكل. يبدو أنه كتاب.

وقد أكد ذلك الانطباع لمسي له بأصابعي. *Discours sur les sciences et les arts. Jean Jacques Rousseau*[1]. هكذا كان يقول العنوان. وعلى

---

[1] بالفرنسية في الأصل، وتني: مقالات في العلوم والفنون، لجان جاك روسو.

الصفحة الثالثة، كان مكتوباً بخط دقيق مـا كنـت أتلهـف لرؤيتـه: *If lost return to Thomas Sheldon, Medical Captain, Fleury, Normandie*[1].

غمرت دفقة من الضوء الكوخ، كما لو أن شعاعاً من الشمس قد تمكن من اختراق سطح **التانتوزي**. ولكنه لم يدخل من السطح، وإنما دخل ـــ مثلما انتبهت حين رفعت عيني ـ من الباب. كان الباب مفتوحاً قليلاً، وكانت هناك يد حمراء تدفعه ببطء. وقبل أن يتاح لي الوقت للإتيان بأي رد فعل، كان أحد الأشانينكا يقف أمامي. وكان وجهه وجسده مطليين بألوان كثيرة.

صرخت:

ـ بولكابا!

لم تكن صرخة رعب، ولا صرخة خوف من العقاب الذي ينتظرني، وإنما صرخة خجل شعرت به فور تعرفي عليه. لم يكن من اللائق خيانة الرجل الذي أنقذ حياتي. فقلت له وأنا أريه الكتاب: ـ لقد أقدمت على هذا من أجل لاورا.

اكتفى بولكابا آيومباري بمد يده إليّ، مثلما يفعل أب لطفله الصغير، بجدية ودون أي علامة استياء أو غضب. انصعت له، وأمسكت بيده. فأحسست كما لو أنني أعود طفلاً عمره خمس سنوات.

«الآن بدأت أفهم ما معنى أن يكون المرء **شيريمباري**»، هذا ما فكرت فيه بينما نحن نمشي عبر درب يتوغل في الغابة. إنه أب للجميع.. شجرة ضخمة.. نهر طيب؛ إنه رجل عانى كثيراً من أن أجل أن يتعلم فقط كيف يناضل ضد كبار الأعداء الذين يدمرون اخوته الضعفاء أكثر منه. كنت أتذكر ما قاله لي ثيسر كالفو، ولكنني لم أكن خائفاً على حياتي.

اقتادني بولكابا آيومباري وهو صامت إلى فسحة في الغابة مملوءة بجثوات مصنوعة من حصى النهر. كل جثوة منها محاطة بأقواس وسهام،

---

[1] بالانكليزية في الأصل: هذه الكتاب يخص الطبيب النقيب توماس شيلدون، فلوري، النورماندي.

ومزينـة بأزهـار بيضـاء. وأدركـت أنهـم يدفنـون في ذلـك المكـان محـاربي الأشانينكا.

أفلت بولكابا يدي وأشار لي كي أواصل المشي على الدرب. وقـد أطعتـه في هذه المرة أيضاً.

وعلى بعد عشرين خطوة إلى الأمام كانت هناك جثـوة منفـردة. لم تكـن عليها أزهار، وإنما شيء مذهب له ثلاث شرائط.

فكرت بأسى: «إنه لم يرمه إلى النهر إذن». لأن ذلك الشيء المذهـب لم يكن سوى وسام الجيش الملكي الممنوح إلى النقيب الطبيب توماس شـيلدون. إحدى الشرائط، وهي أكبرها كانت تحمل الصليب وألوان يونيون جاك. أما الشريطتان الأخريان فتمثلان الصليب الأحمر والجمهورية الفرنسية.

جثوت على ركبتي وصليت:

ـ لقد تألمتَ كثيراً. فلتسترح روحك الآن بسلام.

عندما رجعت إلى المكان الذي بقي فيه بولكابا، وجدت نفســي وحيـداً. فالشيريمبياري، الأب الطيـب لجميـع الأشـانينكيين كـان قـد رجــع إلى الحفلة على ضفة أونيني.

توسلت إلى ثيسر كالفو:

ـ أريدك أن تخبرها أنت. فأنا أشعر بأنني غير قادر على ذلك.

لقد كان مذهولاً جداً مما رويته له. ولم يستطع أن يفهم سلوك بولكابـا. ولكنه قال:

ـ هذا أفضل في نهايــة المطـاف. لا تقلـق علـى أي حـال. سـأذهب الآن بالذات لأخبر لاورا.

أمضيت ذلك المساء هائماً على وجهي في الغابة المحيطة بالقرية. وكنت أحسد الأشانينكا الذين كانت أصواتهم وضحكاتهم تُسمع بوضوح أكثر كلمـا اقتربت من النهر، وكنت أشعر بالتعاسة لأنني لم أعد بريئاً وسعيداً مثلهم. وكنت أتساءل كيف كان رد فعل لاورا حين علمتْ بـأن زوجهـا قـد مـات. ولكن هذا السؤال لم يكن هو الوحيد الذي أطرحه على نفسي. كانت هنـاك

أسئلة كثيرة، وجميعها كانت صعبة، جميعها كانت تقلقني. ما الذي سأفعله؟ هل يتوجب علي أن أتحدث إلى لاورا قبل أن تنتهي الرحلة وترجع هي إلى دبلن؟ وماذا إذا كانت هي لا تشعر بأي شيء نحوي؟ ولكنني لم أجد لأي من تلك الأسئلة جواباً سوى مواصلة المشي، ومواصلة البحث.

حين رجعت إلى القرية عند الغروب قدمت لي جماعة من المحاربين شراب تشوتشوواسي. كانوا سعداء، سعداء جداً، وكانوا يرغبون في أن أكون سعيداً مثلهم أيضاً. تقبلت دعوتهم وشربت رشفة، ثم قلت لهم:

ـ إنه ليس سيئاً.

شراب التشوتشوواسي لديهم يشبه ليكور الكرز، وقد أعجبني. شربت رشفة ثانية، وثالثة، ورابعة. وبعد ساعتين أحسست بأنني مخمور تماماً وسعيد مثلهم.

لست أدري كيف وصلت إلى سريري ولا ما فعلته خلال الساعات التي بقيتها مع المحاربين أشرب التشوتشوواسي. ولكن إذا ما حكمتُ من خلال النظرات الساخرة التي واجهتني عندما استيقظت، فإن سلوكي كان مضحكاً دون ريب. وقد قال لي ثيسر:

ـ ها قد فتحت عينيك أخيراً.

فتأوهت:

ـ لم أكن أعرف أن الرأس مصنوع من زجاج مطحون.

وكانت أدنى حركة تسبب لي وخزة في الصدغين. ولم أجد بداً من البقاء منبطحاً في السرير.

فقالت لاورا ساخرة:

ـ من الغريب أن يؤلمك رأسك. فأنا بصراحة لا أجد سبباً لذلك.

رأيتها تبتسم، وكانت قد خرجت من كآبة الأيام السابقة. ففكرت: «أسوأ الأمور هو عدم اليقين. أما بعد أن عرفتْ الآن ما حدث في الواقع، فقد بدأت تتحسن.»

ثم قلت لهما بعد ذلك:

ـ أظن أنني سأواصل النوم.

فقال ثيسر:

ـ مستحيل. سنغادر المكان. الأشانينكا سيعيدوننا إلى آتالايا.

ـ متى؟ هتفت بذلك وأنا أنهض. وكنت قد نسيت آلام رأسي.

فقالت لاورا وهي تشير إلى النافذة:

ـ الآن. الزوارق جاهزة.

نهضت واقفاً ونظرت باتجاه الفسحة. كانت الجماعة المكلفة برحيلنا تنتظر أمام الكوخ. وقد أحصيتُ ستة زوارق وخمسة عشر مجذفاً. فقلت:

ـ يبدو أننا سنذهب بصحبة موكب.

فابتسم ثيسر كالفو:

ـ مثل الأمراء.

عندئذ توجهت لاورا نحو العجوز التي كانت تساعدنا في الأعمال المنزلية، وأهدت إليها خصلة من شعرها الأشقر؛ قائلة لها إنها تذكار منها، وإنها كانت لطيفة جداً معنا جميعنا. ثم انضممنا بعد ذلك إلى الأشانينكا الذين سيرافقوننا عبر نهر أونيني.

وقبل أن نتوغل في الغابة، التفتنا باتجاه كوخ بولكابا آيامباري. وكان واقفاً إلى جانب الباب، ينظر إلينا.

ـ انتظروني لحظة واحدة. أريد أن أشكره. ـ قال لنا ذلك رجل ايكيتوس الحكيم. ثم طلب من أحد المجذفين أن يرافقه، وأنجز تلك المجاملة الأخيرة.

سألناه عندما رجع:

ـ ماذا قال لك.

فتنهد ثيسر كالفو:

ـ إنه يتمنى لنا رحلة موفقة.

وقد أحسست أنه حزين جداً لفراقه أبي الأشانينكا الطيب ذاك.

نظرنا إلى القرية للمرة الأخيرة، ولوحنا بأيدينا مودعين الرجال والنساء الذين اجتمعوا في الفسحة. ثم انطلقنا باتجاه النهر.

الغابة التي كانت صامتة جداً خلال موسم الأمطار، عادت تضج بالحياة، وكنا ننزل بسرعة كبيرة مع تيار نهر أونيني ونحن نستمع إلى غناء جميع سكان أعالي الأمازون، كنا نسمع غناء **الأرامباسا**، وغناء **البباسي**، وغناء **الكاراتشوباوسا**، وكذلك غناء البط المدعو **ماريكينيا**؛ والرعديد **بانغوانا** الذي يموت بعد أن يضع خمس بيضات، وغناء الببغاء الزرقاء المدعوة **ماراكانا**. وغناء **الهوابابا**، **والوانكاوي**، **واليونغوررورو** العظيم.

نزلنا بسرعة كبيرة مع تيار أونيني ونحن نسمع غناء كل تلك الطيور، وغناء مئة نوع آخر، وفوقها مئة أخرى.

ولكننا لم نكن نسمع أصوات الطيور وحدها؛ بل كنا نسمع كذلك أسماك النهر التي كانت تقترب بين الحين والآخر من زوارقنا، وتلحق بنا بالإلحاح نفسه الذي كنت ألحقُ به ذكرياتي في تلك اللحظة؛ وكانت ذكرياتي عبارة عن **تانتوزي**، **وتشيريمبياري**، ويدين عالجتا عقب قدمي المصاب، وكتاب لروسو، ووسام من الجيش الملكي فوق كومة من الحصى.

وفجأة أفزعني صراخ قرد **ماكيسابا** وهو يعلو فوق كل غناء الغابة. عندئذ صرخت:

ـ الوسام!

فضحك رجلا قبيلة أشانينكا اللذان كانا يقودان زورقي.

لقد وجدت حينئذ القطعة الناقصة من أحجية ذكرياتي. كيف أمكن للوسام أن يبقى مذهباً؟ والشرائط؟ كيف أمكن الاحتفاظ بلون تلك الشرائط في مناخ مثل المناخ الأمازوني؟ ألم يمض أكثر من سنة منذ اختفى الدكتور شيلدون في الغابة؟

كل الإجابات كان تشير إلى الاتجاه نفسه.

ودعنا رجال الأشانينكا فور وصولنا إلى أوكايالي، وتركوا لنا أفضل زورق لديهم وأشاروا علينا كيف يجب أن نجذف لكي ننزل النهر على أحسن وجه. ثم ابتعدوا مجذفين بعكس التيار، وكانوا يضحكون سعداء لأنهم سيعودون إلى قريتهم.

فهتفت لاورا:

ـ كم هم سعداء!

فابتسم ثيسر كالفو وهو يركب الزورق:

ـ نحن سنذهب في الاتجاه الآخر.

فأكدتُ بصوت حاولت أن تكون نبرته غير مستاءة:

ـ باتجاه آتالايا!

ولكن الإجابة التي وجدتها بينما كنا ننزل مع تيار أونيني كانت ما تزال تؤرقني، ولم أوفق في مسعاي. فخرج صوتي برنة كئيبة.

نزلنا في نهر أوكايالي ببطء، دون أن نعرض أنفسنا لخطر الاصطدام بالأشجار التي ملأت النهر بعد فيضانات الشهور السابقة. وعندما وصلنا إلى آتالايا كان الليل قد بدأ يخيم.

بعد بعض الوقت، كنت أجلس في المكان نفسه الذي بكت فيه لاورا قبل أن ننطلق عبر نهر أونيني، وكنت أنظر إلى الغابة، وأصغي إلى غناء **ايايمامان**. ولكنني لم أشعر بالطمأنينة هناك أيضاً.

خرج رجل ايكيتوس الحكيم من الكوخ وجلس بجانبي. ثم قال:

ـ أنا أيضاً أفكر فيه.

ـ أتعني بولكابا آيومباري؟

ـ أجل.

فقلت بأسى:

ـ إنه توماس شيلدون.

فهز ثيسر كالفو رأسه مؤكداً:

ـ بدأت أشك في ذلك منذ اليوم الذي عفا فيه عنك من عقوبة الموت. الأشانينكا الحقيقي لا يمكنه عمل ذلك. ولهذا السبب ذهبتُ صباح اليوم لأشكره، لأنني أردت أن أرى وجهه. يمكن للطين الملون أن يخفي وجهاً شاحباً، ولكنه لن يخفي العينين. لقد كانتا زرقاوين بالطبع. عينا إنكليزي تقليدي.

ـ ولكن، كيف استطاع الوصول إلى مرتبة **شيريمبياري**؟

ـ إنه طبيب، أليس كذلك؟ ويكون قد وصل إلى القرية، وعلّم شيئاً **للشيريمبياري** السابق. فتبناه هذا وعينه خليفة له. من المؤكد أن الأمور جرت على هذا النحو.

ـ مازال يخامرني الشك في أمر يا ثيسر. لست أدري إذا ما كان عليّ أن أخبر لاورا بذلك. وأنت تعرف بكل تأكيد سبب ترددي.

عندئذ سمعنا صوت سعلة وراءنا. أحدٌ ما يريد أن ينبهنا إلى حضوره.

ـ ثيسر على صواب. لقد عالج توماس **الشيريمبياري** السابق، فتخلى له عن منصبه. إنه يخبرني بذلك في هذه الرسالة التي وجدتها بين ملابسي الآن.

كانت لاورا تقف وراءنا وهي تحمل ورقة في يدها.

هتفتُ قائلاً:

ـ كنت أظنك نائمة!

فقالت لاورا هي تنظر إلى عيني:

ـ لقد سمعتُ كل شيء.

اعتصمنا نحن الثلاثة بالصمت للحظات. ثم سألتها أخيراً:

ـ بأي اسم سنناديك من الآن فصاعداً؟

ـ باسمي وأنا عازبة. لاورا سيلغو.

بعد ذلك تصرفت هي نفسها بطريقة أكثر مباشرة مني:

ـ يقول لي توماس في الرسالة إنك مغرم بي. أخبرني إذا كان ذلك صحيحاً. ولا تنس أن ثيسر كالفو هو شاهدنا.

بعد شهر من ذلك كنا نحن الاثنين معاً في دبلن.

FINIS CORONAT OPUS

FINIS CORONAT OPUS[1]، قال ذلك السيد سميث في الوقت الذي كان يطفــئ فيــه آلــة تسـجيله الصغـيرة. بعـد ذلـك، وقبـل أن نتمكـن أنـا وصديقي من قول أي شيء، شكرنا لأننا استمعنا إلى القصــة وابتعـد مسـرعاً باتجاه ساحة القرية.

ناديناه:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ولكنه واصل طريقه إلى أسفل بسرعة متزايدة. وكان يبدو ببدلته البيضاء وخطواته المتقافزة وكأنه أستاذ في الاحتفالات لابد له من الوصول إلى الحفلة في أسرع وقت.

قلت:

ـ من تراه يكون؟

ـ لست أدري. ولكنه كاتب بالتأكيد ـ قال صديقي ذلك. وكـان مذهـولاً بدوره مما حدث.

من المرتفع الذي كنا فوقه كان العالم يبدو مكاناً هادئاً وصامتــاً. وكـانت ريـح الجنـوب، ريـح المجـانين، ريـح فقـراء الـروح، ريـح الذيـن ينـامون وحدهم، والبائسين الذين يحلمون مستيقظين، كانت توّلد فينا وهمَ أن كـل

[1] تعبير لاتيني كان استخدامه شائعاً فيما مضى، وخصوصاً في الصفحة الأخيرة من الأعمــــال الأدبية للإشارة إلى انتهاء الكتاب، ومعناه "بكلمة النهاية نتوج هذا العمل".

الكائنـات وكـل الأشـياء موجـودة في أماكنهـا بـالضبط: النجــوم بعيــداً في الأعلى؛ والجبال والغابات فيما حولنا، تنـام بوداعـة؛ والحيوانـات، تنـام أيضاً وتختفي في مكان ما ـ بعضها بـين العشـب، وبعضهـا الآخـر في حفـر الأنهار؛ والخلدان والجرذان في جحور تحت الأرض.

كل ذلك كان يبعث علـى الرغبـة في البقـاء هنـاك؛ لأن ذلـك المكـان ـ بالمقارنـة مـع منطقـة الأمـازون الرطبـة الـتي تجولـت فيهـا لاورا سـليغو وصديقاها ـ كان يذكرنا بالحدائق المدهشة في الروايات القديمة. ولكن، كـان علينا أن نتحرك ونواصل رحلتنا. لأنه لا يمكننـا حضـور جلسـة القـراءة في صباح اليوم التالي إذا نحن نمنا قليلاً وكنـا متعبـين. سـنتناول بـيرة أخـرى وننهي هذه الليلة.

اجتزنا الطريق ما بين المقبرة وساحة القريـة بصمـت، مقدريـن أننـا إذا تكلمنا فإن الجنيين الطيبين الصغار الذين كانوا يتحركـون في تلـك اللحظـة بداخلنا، سيشعرون بالانزعاج ويهربون من فيهينا المفتوحين إلى بيتهم، إلى المناطق غير المرئية. سيكون لدينا متسع من الوقت فيما بعـد، فـالصيف مـا يزال في بدايته. لابد أن تأتي اللحظـة المناسـبة للتعليـق علـى القصـة الـتي رواها لنا السيد سميث.

حين أصبحنا في زحمة الحفلـة، جلنـا بنظرنـا في كـل أنحـاء السـاحة. ولكننا لم نلمح أي بدلة بيضاء، أو أي قبعة تبرز فوق رؤوس الناس.

فقال صديقي:

ـ رفيقنا الطيب يظهر ويختفي كما في أعمال السحر.

أجبته:

ـ فلنتناول البيرة الأخيرة في صحته.

ـ موافق. سأحضر الآن زجاجتين.

حصل عليهما بسهولة أكـبر ممـا في المـرة الأولى، وذهبنـا لنجلـس علـى شرفة الكنيسة. كانت سـاعة بـرج الأجـراس تشـير إلى أن الوقـت قـد بلـغ الثانية فجراً.

ـ كما ترى، كلٌ يهتم بلعبته. ـ قلت ذلك لصديقي بعـد الرشـفة الأولى، وكنت أشير إلى جماعتين تشكلتا في الحفلة. ففي تلك اللحظة لم يكن جميع الذين جاؤوا إلى الحفلة عاكفين على تناول الشـراب والصـراخ في الحانـات. وإنما كان هناك عدد لا بأس به من أزواج العشاق الذين انفصلوا عن الباقين وذهبوا إلى أكثر الأماكن ظلمة للرقص وتبادل القبلات.

فأبدى صديقي ملاحظة بالقول:

ـ من في الداخل يريدون الخروج، ومن هم في الخارج بالمقـابل، يريـدون الدخول.

ـ كيف؟

فقال معتذراً:

لاشيء، مجرد حماقة. إنها عبارة اعتاد جدي قولها على الـدوام. كـان يقول إن المتزوجين يحسدون العازبين والعكس بالعكس. وبكلمـات أخـرى، فإن الذين في الداخل على استعداد لدفع أي ثمن مقابل الخروج، والذين هم في الخارج يدفعون أي ثمن من أجل الدخول.

سألته:

ـ ولماذا تذكرت هذا الآن؟

ـ بسـبب مـا أراه في السـاحة. لقـد خطـر لي أن كثـيرين ممـن يرقصـون يفضلون لو أنهـم يدخلـون إلى الحانـة، بينمـا كثـيرون ممـن هـم في الحانـة يفضلـون الرقـص. ثـم تنهـد صديقـي بطريقـة مسرحية وقـال: هكـذا هـي الحياة!

ـ لقد كان أبي أيضاً يقول شيئاً مشابهاً. كان يقـول إن هنـاك في السـماء كعكة هائلة مخصصة للمتزوجين الذين لا يندمـون. والكعكـة مـازالت علـى حالها لم تمس.

ضحكنا كلانا من الارتيابيـة الـتي كـان يُظهرهـا أسـلافنا. لقـد كـانت رؤيتهم للحب تختلف كثيراً عن رؤية مستر سميث ذاك الـذي كنـا نشـرب نخباً على شرفه.

ولكن حالتنا المعنوية كانت تجعلنا مهيئين للكآبة أكثر من استعدادنا للمرحِ، وسرعان ما تخلينا عن التعليقات الفكاهية. كان وجود الحفلة جيداً، ولكننا لم نشأ السماح بانتقال عدوى أجوائها إلينا؛ خصوصاً في تلك الليلة. لقد كنت أنتمي أنا وصديقي إلى فريق ثالث. وحيث أن الأمور على هذا النحو، فقد رجعنا إلى ما كنا عليه، وبقينا صامتين، مفكرين؛ مولين اهتمامنا بين الحين والآخر إلى المقطوعات الهادئة وبطيئة الإيقاع التي كانت تعزفها الفرقة الموسيقية. وعندما دقت الساعة معلنة الثانية والنصف في برج الأجراس، أنهينا شرب زجاجتي البيرة واتجهنا نحو السيارة.

عندئذ سألني صديقي:

ـ في أي ساعة تبدأ جلسة القراءة؟

ـ لم يخبرني عمي بأي شيء، ولكنني أظنها تبدأ في الساعة العاشرة.

ـ أليس هذا مبكراً؟

ـ في الساعة العاشرة الفطور. ثم نبدأ بقراءة القصص في حوالى الحادية عشرة.

ـ كم قصة تنوي أن تقرأ؟

ـ أربع قصص. وأنت؟

ـ لا أعرف حتى الآن. أظن أنني سأقرأ قصة واحدة فقط. فأنا سأكون مستمعاً أكثر مني قارئاً. وماذا عن العم؟ هل سيقرأ شيئاً؟

ـ لم يخبرني بذلك. ولكنه سيفعل بالتأكيد. يخيل إلي أنه سيقرأ مقالة قصيرة. **كيف كان القرن التاسع عشر هو العصر الذهبي الثاني والأخير**، أو شيئاً من هذا القبيل.

ـ سنقضي وقتاً ممتعاً إذن.

ـ هذا ما أظنه. ثم إنك تعرف جودة الطعام في هذه المناسبات!

فهتف صديقي بتفخيم:

ـ سنأكل مثل دوقات.

كنا قد وصلنا إلى السيارة. وأصبح صخب وموسيقى الحفلة بعيدين عنا؛ فدخنت أنا وصديقي سيجارة الوداع باطمئنان، ونحن نتنفس براحة ومتعة الأمان السائد هناك. وقد خصصنا تأملاتنا الأخيرة، وكيف لا، للسيد سميث.

قال لي صديقي:

ـ من المؤسف أنه لم يأت معنا. فمساهمته في جلسة الغد ما كانت لتكون سيئة.

فأجبته:

ـ أنا المخطئ. لقد خطر لي ذلك، ولكنني لم أتجرأ على دعوته.

ـ كم من الأحجيات هذه الليلة، أليس كذلك؟ حرذونات إسماعيل، حكايات السيد سميث...

ـ ولماذا لا تقول أيضاً أنني لم أعش منذ زمن طويل مثل هذه الليلة الخاصة!

ـ وأنا كذلك. حسن. إن الليالي مثل هذه الليلة تجعل الحياة محتملة.

فقلت وأنا أدير محرك السيارة:

ـ حسن، فلننطلق.

من تلك القرية حتى أوبابا بقي أمامنا مئة وسبعة وعشرون منعطفاً: ثمانون صعوداً خفيفاً حتى الوصول إلى نهاية مرتفع طويل؛ ثم يلي ذلك سبعة وأربعون منعطفاً آخر نزولاً، بعد الانتقال إلى الجانب الآخر من الجبل. إن اجتياز هذا الطريق المحفوف بالغابات وباتجاه معاكس للبحر يتطلب أكثر من نصف ساعة بقليل.

وعلى الرغم من كثرة المنعطفات، فإن رحلتنا على طريق الفراشات تحول في تلك الليلة إلى نزهة هادئة وآمنة بين الأشجار، لأن أضواء السيارات القليلة التي كانت تأتي من الاتجاه المعاكس كانت مرئية لنا قبل أن نلتقي بها بزمن طويل.

ـ كيف تعرف أن هناك مئة وسبعة وعشرين منعطفاً؟ سألني صديقي ذلك حين كنا قد اجتزنا قرابة عشرين منها.

ـ لقد أخبرتك من قبل بأنني أمضيت طفولتي في امتطاء الدراجة في هذه الأنحاء. كم من المرات مررت من هنا وأنا أقود الدراجة وأعد المنعطفات صارخاً! أربعون! واحد وأربعون! اثنان وأربعون! إنني أعرف هذه المنعطفات عن ظهر قلب. ـ ثم تابعت قائلاً ـ أترى هذا المنعطف الذي أمامنا؟ إذا بدأت بعَدِّ المنعطفات من أوبابا يكون رقمه مئة. أما إذا عددتها من القرية التي جئنا منها الآن فهو السابع والعشرون.

فقال صديقي مبتسماً:

ـ أعتقد أنه مكان خاص جداً بالنسبة إليكم.

وأجبته:

ـ ليس لأنه المنعطف رقم مئة فقط. وإنما كذلك بسبب النبع الذي كان في الأعلى. حسن، أعني النبع الذي كان والذي ما يزال موجوداً. لابد أنك رأيت الماء الذي يغطي المنعطف. ـ وقد قلت له ذلك متحدثاً بصيغة الماضي بالطبع، لأننا كنا قد تجاوزنا المنعطف رقم مئة وخلفناه وراءنا بمجرد أن وجه سؤاله إليّ.

بقي صديقي صامتاً، فأسلمت نفسي للذكريات:

ـ هذه المنعطفات تعني الكثير بالنسبة لنا. وكذلك الدراجات بالطبع. فتعلم ركوب الدراجة كان أقصى ما نصبو إليه نحن أطفال أوبابا منذ بلوغنا السابعة من عمرنا. دروس الحساب وقواعد اللغة التي كانوا يعلموننا إياها في المدرسة لم تكن مهمة، والتاريخ المقدس الذي كانوا يحدثوننا عنه في الكنيسة لم يكن مهماً كذلك؛ فالشيء الوحيد المهم هو حضور دروس تعليم ركوب الدراجة التي كان يلقيها الصبيان الأكبر سناً في ساحة أوبابا، والحصول على موقع بين أولئك الذين يستطيعون الذهاب إلى أي مكان على عجلتين. فإذا لم تتوصل إلى ذلك وأنت في التاسعة أو العاشرة، فستبقى مهمشاً، وستتحول إلى طفل من الدرجة الثانية...

قطعت عند هذه النقطة خيط ذكرياتي وأشرت بيدي نحو اليسار، لكي ينظر صديقي. كنا ندخل عندئذ في المقطع المستقيم الصغير الذي يلي

المنعطف الثامن والثمانين، حسب العدِّ ابتداء من أوبابا؛ فذلك المقطع في موقع طبيعي مشرف يمكن الإطلال منه في النهار على وادٍ فسيح، ثم على شاطئ البحر بعد ذلك.

وقال صديقي:

ـ ولكن المشهد ليس سيئاً على أي حال في الليل أيضاً.

فقلت له:

ـ أترى الأضواء التي في الطرف الآخر؟

ـ ماذا تكون؟ أهي بيوت أم سفن؟

ـ إنها سفن.

خففت سرعة السيارة، واجتزنا ذلك المقطع من الطريق ونحن ننظر باتجاه تلك الأنوار؛ وكنا مذهولين لأنها بدت قريبة جداً، وكأنها على الشاطئ، وذلك بفضل نقاوة الهواء.

وما إن اجتزنا ذلك المقطع، وكنا نواصل الصعود إلى أعلى، حتى سألني صديقي:

ـ كم بقي لنا للوصول إلى القمة؟

ـ حوالى أربعين منعطفاً. ولكن لا تقلق؛ فما إن نصل إلى هناك حتى يصبح كل وادي أوبابا أمام نظرنا. وبعد بضعة منعطفات قليلة نكون قد أصبحنا في البيت. ثم أضفت قائلاً: ـ الوصول يكلف جهداً، أليس كذلك؟

ـ هذا ما أظنه. ومع ذلك، أنت تقول أنك كنت معتاداً على المجيء إلى هنا على الدراجة...

ـ أجل، ومرتين في الأسبوع فوق ذلك.

ـ لقد كنتم إذن من أبطال ركوب الدراجات!

ـ لقد كنا راكبي دراجات جيدين مثل هيلاريو على أي حال.

ـ هيلاريو؟

ـ أجل هيلاريو. أفضل دراج في العالم. وهو لمعلوماتك من مواليد أوبابا.

لم يكن رفيقي يعرف بالطبع من الذي أعنيه، وأبديت أنا استعدادي لأن أروي له في تلك الليلة واحدة أخرى من ذكرياتي... ـ ربما كانت ذكريات كثيرة بالنسبة لرحلة واحدة، بل وكثيرة أيضاً بالنسبة لكتاب واحد. ولكن ذاكرتي بدت في تلك الليلة وكأنها مصنوعة من زناد قدح، ويبدو أن الدفء الذي يشيعه المشهد كان يؤججها.

بعد أن اعتذرت عن ميلي إلى رواية الذكريات، بدأت أروي له قائلاً:

ـ كان هيلاريو يملك دراجة سباق ذات لون أزرق فاتح، من تلك التي يمكن رفعها بإصبع واحد. وفي مساء كل يوم كان يلبس سرواله الضيق، ويرتدي بلوزته الملونة، ويخرج ليتدرب فيما حول القرية. وكنا نصرخ كلما رأيناه منطلقاً: **هاهو ذا هيلاريو!** وعندما نكون على هذا الطريق كان يأتي من ورائنا ويسبقنا، فكانت تنطلق من أفواهنا على الفور عبارات إطراء له: **أرأيتم كيف تجاوزنا؟ لقد مرّ مثل سهم! إنه دراج استثنائي!** وبكلمة واحدة: كنا نقدره ونحترمه. فنحن أنفسنا الذين كنا ننزل المنحدر ونحن منحنين تماماً إلى الأمام، كان يُنظر إلينا على أننا من درجة عالية، أعلى خمس مرات على الأقل من أولئك الرعديدين الذين يكتفون بالتجول على دراجاتهم في ساحة القرية؛ ولكننا بالمقارنة مع هيلاريو لم نكن شيئاً يذكر. فهو في مكانة فوق جميع الدرجات. وإذا ما جاء مثلاً أحد الأولاد الأكبر منا سناً وقال لنا يوماً إنه ليس بالدراج الجيد، كنا نرد عليه بملء أفواهنا: **أتقول إنه غير جيد؟ لماذا يسمحون له إذن بارتداء البلوزة الملونة؟** وإذا ما قدم لنا الآخر سبباً من نوع **إنها مجرد بلوزة يعطونها لأي شخص**، كنا ننفجر عندئذ ضاحكين: **أتقول إنهم يعطونها لأي شخص؟ لماذا لا تذهب أنت إذن وتطلب واحدة؟ هيا اذهب، ولنرى ما الذي ستعود به...!** لأن كل الحجج في الطفولة تُرد عادة على قائلها؛ ولأن التفكير ينصب دائما على فكرة أن الحسد هو محرك معظم التصرفات البشرية. وهي بالمناسبة، طريقة جيدة للمحاكمة العقلية.

»ولكننا كنا نملك أدلة أخرى على أي حال. فهناك مثلاً الصور الفوتوغرافية الثلاث المعلقة في أفخم بارات أوبابا: هيلاريو يبتسم، وهيلاريو يرفع ذراعيه، وهيلاريو يصل خط النهاية ظافراً. ولم تكن هناك أي جدوى من محاولة الحاسدين في القرية لإقناعنا. لقد كان إيماننا به لا يتزعزع.

»وفي أحد الأيام، وقبل أن يكون قد أتيح لنا الوقت الكافي للنضوج، أعلن عن إقامة سباق للدراجات. وكان خط السباق سيمر من أوبابا، من هذا الطريق نفسه الذي نمضي عليه. ولابد أن أحداً قال: **هيلاريو سيشارك أيضاً في السباق.** فتحول الخبر بيننا إلى ترتيلة لم نعد نمل من تكرارها.

»وجاء يوم السباق، وكان يوم أحد، وصعدنا جميعنا إلى قمة الميناء، هذه القمة التي سنراها الآن ... وقد صعدنا مشياً على الأقدام، لأن آباءنا لم يسمحوا لنا باستخدام الدراجات بحجة أنه ستكون هناك سيارات كثيرة. وفور وصولنا ذهبنا للجلوس على تلك الصخرة التي هناك، أتراها؟

فقال صديقي مؤكداً:

ـ أجل، أجل، لقد رأيتها.

ـ جئنا إلى هنا لكي نتمكن من التمتع برؤيةٍ مطولة للسباق، ولأن هذا المقطع هو الأخير الذي يتوجب على الدراجين أن يجتازوه صعوداً.

ـ ثم ماذا...؟

ـ حسن، كنا جالسين على الصخرة عندما بدأت تتعالى فجأة الهمهمات بين الناس، وصرخات الإعجاب، وانفجر كذلك سهم ناري، وكان المتسابقون قادمين. وصرخ أحدهم: **ثلاثة يتقدمون! ثلاثة يتقدمون!** فمططنا أعناقنا إلى أقصى حد استعداداً لرؤية هيلاريو. لأننا كنا نعتبر أنه من المفروغ منه أن يكون بين المتقدمين؛ لم تكن تراودنا أية شكوك في ذلك. انتظرنا قليلاً، وظهر المتقدمون الثلاثة عند المنعطف، وكانوا ينطلقون نحو القمة متنافسين على من سيصل أعلى الجبل أولاً. فصرخ واحد منا: **تشجع يا هيلاريو!** ولكن ما سبب صرخة **تشجع يا هيلاريو** تلك؟ أتراه كان بين

أولئك الثلاثة؟ لا، لم يكن بينهم. بدا ذلك غريباً، ولكن لم يكن لأي من المتقدمين الثلاثة أي علاقة بهيلاريو.

»وكسر أحدنا صمت الوجوم الذي خيم على الجماعة: **أرأيتم كيف يمضون؟ إنهم لا يستطيعون حتى أن يحركوا أرجلهم!** وأيده آخر: **صحيح، إنهم منهوكون تماماً. الآن ستلتقطهم فصيلة النجدة من الطريق.** وأضاف ثالث: **لابد أن هيلاريو يوفر قواه من أجل الهجوم الأخير. وهذا أفضل. ما الفائدة من التقدم السريع لمسافة قصيرة...!**

ـ ومرت فصيلة النجدة، ولم يظهر أي أثر لهيلاريو. ـ قال صديقي ذلك وقد حزر حقيقة الأمر. ودون أن يضيف كلمة أخرى، أشار باتجاه أضواء بدت في الأسفل، في الوادي. وكانت تلك هي أضواء أوبابا.

ـ نحن على الأقل لم نره. رأينا قافلة طويلة من سيارات الدعاية، ورأينا راكبي دراجات نارية يرتدون سترات جلدية سوداء، ورأينا دراجين من كل الأحجام والألوان؛ ولكننا لم نر أثراً لبطلنا هيلاريو. وعندما مرت فصيلة النجدة مطلقة صفاراتها وانحدرت نحو الأسفل، سيطر علينا جميعنا الذهول، ولم نعد نعرف كيف نفكر. فصرخ أحدنا بغضب كامل: **ولكن، ما هذا الذي يحدث!** لأن ذلك كان يبدو وكأنه لعبة لئيمة من ألعاب القدر، وليس إخفاقاً لهيلاريو.

»وهكذا، بدأنا ونحن متأثرين جداً بالنزول في طريقنا إلى البيت. وقال ذاك الذي كان غاضباً بعض الشيء: **إنها المرة الأولى التي يمرّ فيها السباق من أوبابا، وها هو يتعرض لحادث وينقلب بدراجته.** فصرخ الآخرون: **هل انقلب؟** فتعلل الآخر: **لابد أنه قد انقلب بالطبع! ولماذا ينسحب لو لم يكن قد وقع؟** وقال أصغر أفراد الجماعة: **لابد أنها كانت وقعة سيئة جداً، لأن هيلاريو قوي وصلب. لن يكون مصاباً بضرر شديد، أليس كذلك؟**

»وسرعان ما كنا جميعنا نبدي أسفنا للنكبة التي لحقت بزهرة أوبابا، فارسنا هيلاريو. عندئذ، وبينما كنا في ذلك المنعطف المفتوح الذي اجتزناه

قبل قليل، سمعنا نفير سيارة. فنظرنا إلى الوراء و... أراهن أنك لا تستطيع أن تتصور ما الذي رأيناه؟ رأينا شاحنة مخلعة مزودة بفرشاة مكنسة ضخمة، وفي مقدمة الشاحنة رأينا...

ـ هيلاريو! قال صديقي مستنتجاً.

ـ أجل! هيلاريو بسرواله الضيق الأسود! هيلاريو ببلوزته الملونة!

»فُتح ثقب في أعماقنا. فصرخنا جميعنا ونحن على وشك البكاء: **إنه الأخير!** وفي تلك اللحظة بالذات، ربما احتراماً لنا ولخيبة أملنا، توارت الشمس وراء غيمة.

»لا يمكنني أن أقول كم من الوقت أمضينا في تلك الحال، بأفواه مفتوحة، وبذلك الثقب الذي انفتح في أعماقنا. بالنسبة لي بدت تلك اللحظة أبدية بلا نهاية. وأخيراً، عندما وصلت الشاحنة ومعها المتسابق إلى حيث كنا نقف، انطلقت من حناجرنا جميعاً صرخة شاكية: **هيا، أسرع يا هيلاريو!...**

»وبتلك الصرخة انتهى سباق الدراجات، وانتهت كذلك طفولتنا.

قدر صديقي القصة تقديراً إيجابياً ونصحني بأن أنشرها. فما رويته له لا ينتمي، حسب مفهومه، إلى مملكة ما هو غثاء وأجوف وبائس، وهو يتفق بالتالي مع أحد الشروط التي يتطلبها الأدب الجيد. فأي قارئ يمكنه أن يرى نفسه في تلك المرآة المليئة بالأطفال والدراجات.

ومع أنني شكرت صديقي على أريحيته، إلا أني لم أكن مستعداً للعمل بنصيحته. لأن نشر ذكرياتي عن معبودي الدراج بدا لي أمراً غير لائق؛ لاسيما وأن بحثي عن **الكلمة الأخيرة** ـ في القصة الأخرى، قصة الحراذين ـ كان يثقل علي أكثر فأكثر. ولكن حدثاً شديد الخصوصية جرى على تلك الطريق، عند انتهاء حديثنا بالضبط، وكنا عند المنعطف التالي؛ وهو حدث أجد نفسي مضطراً إلى تسجيله. فقد فكرت عندئذ: **القصص التي تجمعها الصدفة لن يضيعها المؤلف**. وقد تصرفت على هذا الأساس.

بعد هذا الذي قلناه، فلنمض إلى قصة ما جرى في الطريق. ومن أجل ذلك أريد الإشارة أولاً إلى رسالة كتبها الكاتب تيوفيل غوتييه بعد وقت قصير من مروره في قرية شبيهة بأوبابا؛ لأن ما تقوله هذه الرسالة يعكس على أحسن وجه ما أحسست به أنا وصديقي في تلك اللحظة من الرحلة.

يشير غوتييه إلى صديقته الحميمة مدام ديفيلير بما يلي:

عندما وصلت إلى هناك كانت القرية في احتفال، وكان الناس كلهم مجتمعين في الساحة. وقد انضممت أنا أيضاً إلى أولئك الرجال والنساء القرويين، وتصوري ما الذي رأته عيناي: كأس رقيق من الزجاج موضوع على الأرض، وراقص ذو ساقين رشيقتين وقويتين يدور حوله. يبتعد عن الكأس.. يدنو منه، ثم يبتعد من جديد؛ وفي بعض اللحظات، حين يقفز، يبدو وكأنه سيقع فوق الإناء الهش، وأنه سيدوسه ويكسره. ولكنه قبل لحظة بالضبط من حدوث ذلك، يفتح ساقيه ويواصل الرقص مبتسماً وسعيداً، وكأن ذلك لا يكلفه أدنى مشقة. ثم يبتعد، ويقترب، ويعود للابتعاد ثانية. مع ذلك، ولأن دائرة رقصه كانت تضيق أكثر فأكثر، فقد كان يسود هاجس بأنه سينهي إلى أن يدوس على الكأس دون ريب؛ وبانتظار تلك النهاية، انتهينا نحن جميع الواقفين هناك إلى التنفس على إيقاع الجلاجل التي يضعها الراقص في كاحليه: فكنا نقلق ونطمئن معها.

وفجأة، خيم الصمت على الساحة بأسرها، وصمتت كذلك الجلاجل، وتفادى الراقص الكأس وهو يكاد أن يلمسه. أدركت عندئذ أن تلك القفزة ستكون هي الأخيرة، فأغمضت عيني، مثلما أغمضهما حتى لا أرى ضربة الفأس القاتلة التي يوجهها الجلاد. وحينئذ سمعت انفجار عاصفة من التصفيق. ففتحت عيني من جديد و... كان الكأس ما يزال سليماً، وكان الراقص السعيد يرفعه عن الأرض ويشرب النبيذ الأبيض الذي فيه.

لقد تأثرت كثيراً بتلك الرقصة. وفكرت في أن النساء من أمثالك والرجال من أمثالي نشبه ذلك الكأس الزجاجي، وأننا كثيراً ما نشعر بأن هناك راقصاً غير مرئي يلف ويدور من حولنا؛ هذا الراقص هو الذي يمنح الحياة، ويوجهها، وينتزعها؛ هذا الراقص الذي إذا ما كان أخرق وأقل مهارة من راقص الساحة، فإنه سيسقط فوقنا يوماً ويهشمنا إلى فتات.

لم يكن غوتييه يكذب. فقد أثرت فيه تلك الرقصة حقاً، وهو لم ينسها مطلقاً. والدليل على ذلك هو هذا المقطع الذي يظهر في الفصل السابع من مذكراته:

في إحدى المرات، وبينما أنا في بيت مدام كاسيس، تذكرتُ فجأة صديقاً قديماً. وما كدت أذكر اسم ذلك الصديق، وكنت أظنه في اليونان، حتى ظهر فجأة في الصالون. اجتاحت جلدي قشعريرة، لأنني كنت قد تلقيت في ذلك الأسبوع بالذات ضربتي حظ. وراودني إحساس بأن قوى خفية تلاحقني، وأنها تعكف على اللعب بي، مثلما يلعب راقص حول كأس من الزجاج.

إلى هنا تنتهي الكلمات التي أخذتها من الكاتب تيوفيل غوتييه؛ إلى هنا وينتهي المقطعان اللذان أردت اختيارهما حول وضع انفعالي فريد. ولنعد الآن، سائرين من الوراء إلى الأمام، إلى **المنعطف التالي**، إلى ما جرى حين كنت أنا وصديقي على وشك الوصول إلى أوبابا، وحين أصبحنا نرى شجرة النخيل التي يضيئها عمي مونتيفيديو كلما كان ينتظر زيارة.

كنا نمضي في وسط الطريق ونحن نتحدث عن عادة عمي تلك، عندما رأينا فجأة، بعد المنعطف الثاني عشر، سيارة متوقفة على حافة الطريق. وكانت من ماركة لانسيا حمراء اللون.

ـ أليست تلك هي سيارة... بدأت بقول ذلك. ولكن قبل أن أكمل جملتي، ظهر الشخص الذي كان اسمه في ذهني من وراء أجمة. فهتف صديقي:

ـ إسماعيل!

كانت أضواء سيارتنا حينئذ موجهة إليه تماماً، وكان بإمكاننا أن نميز بكل وضوح الرأس المسطح والعين المستديرة اللذين كانا يطلان من الفجوة التي يشكلها بيديه المضمومتين. فقلت لصديقي:

ـ هل رأيت ما الذي يحمله؟

فتنهد صديقي:

ـ إنه حرذون، لا مجال للشك في ذلك.

فكان أن شعرنا حينئذ باقتراب الراقص الذي يمنح ويوجه وينتزع الحياة. لست أدري إلى أي حد أثر تعبنا وثرثرتنا تلك الليلة في ذلك. ربما كنا قد تحدثنا وشربنا كثيراً؛ ولكن مهما يكن من أمر، فقد أحسسنا في الواقع بالخوف. فقد بدا لنا، مثل غوتييه، أننا نحن أيضاً كنا خاضعين لتسلط القوى الخفية، وأن تلك القوى نفسها هي التي هيأت ودبرت بعض المصادفات التي جرت لنا قبل تلك الليلة: فهي التي وفرت لنا فرصة تكبير صورة المدرسة؛ وهي التي وجهت نظرنا إلى الحرذون الذي كان بجانب أذن ألبينو ماريا؛ وهي التي جعلتنا نكتشف المقال الذي يتحدث عن ليزارديس والباثولوجيا العقلية.

قال صديقي عندما تجاوزناه:

ـ ولكن، ما الذي يفعله هذا الرجل؟

ـ لا أعرف ولست أريد أن أعرف. لدينا ما يكفينا بعد كل هذا الذي جرى لنا الليلة. ـ أجبته بذلك وأنا أضغط على دواسة السرعة. وكانت رغبتي الوحيدة هي أن أبتعد بأسرع ما يمكن عن ذلك الزميل في المدرسة الابتدائية. لم تكن لدي الحماسة حتى لتحيته من داخل السيارة. وقد أضفتُ قائلاً: ـ سنفكر في هذا الأمر غداً.

ـ يبدو لي رأيك جيداً. فما هو أول يجب أن يكون أولاً.

ـ أجل، يجب أن نكون مستعدين لجلسة القراءة. أنت ترى كم هي مضاءة النخلة. لا يمكننا أن نخيب أمل العم مونتيفيديو.

ـ طبعاً. فالألعاب يجب حملها على محمل الجد.

وهكذا تأجلت مسألة إسماعيل؛ تأجلت، ولكنها لم تنته. وآمل أن يكون ذلك[1] *Ad majorem literaturae gloriam*.

أوقفنا السيارة أمام النخلة المضاءة، في أحد أركان حديقة عمي.

ـ فلنر ماذا يوجد في صندوق البريد. ـ قلت ذلك لصديقي وأنا أُدخل يدي في صندوق خشبي. وأخرجت من هناك ورقة.

وقد أصاب صديقي حين قال:

ـ البرنامج؟

ـ أجل، لقد أصبحت تعرف النظام، إنها الطقوس المعتادة نفسها.

ودنونا من أضواء النخلة، وقرأنا الملاحظة التي كتبها لنا عمي.

ـ «الفطور في الساعة العاشرة، عصير برتقال، وكرواسان ساخن، وخبز محلى وزبد، وقهوة وشاي، ولن يكون هناك مربى لأنني لم أجد أي صنف منها يعجبني. من الساعة الحادية عشرة حتى الواحدة، قراءة قصص على الشرفة الخلفية للبيت، لأنها المكان الأكثر برودة في هذا الوقت. وفي الساعة الواحدة، تناول كأس من الفيرموت في الحديقة مع حبة زيتون وقطعة ليمون. ويمنع التكلم في أثناء ذلك عن القصص التي قُرئت من قبل، لأن ذلك قد يؤدي إلى فتح جدال، وهو ما يؤدي بدوره إلى اضطرابات هضمية خطرة. ولذا يمكن أن يدور الحديث عن أمور تافهة. في الساعة الثانية الغداء، وهو *top secret*، ولكن بمجرد القول إن أنطونيا التي تعمل في بيت غارميندیا ستتولى تحضير الطعام، يصبح كل شيء واضحاً. وفي الساعة الخامسة يتم تناول كأس الكونياك الثاني ومناقشة القصص التي قُرئت في الصباح. إعلان: لقد بدّلت رأيي، فأنا لم أعد الآن معادياً للانتحال. إلى اللقاء غداً.»

قلت معلقاً بعد أن قرأت السطر الأخير:

---

[1] باللاتينية في الأصل وتعني: من أجل مجد أدبي أكبر.

ـ من المؤكد أنه قد هيأ شيئاً ما.

صعدنا بصمت تام إلى غرف النوم في الجزء العلوي من البيت. وكانت الساعة قد أصبحت الثالثة والربع. وبعد خمس دقائق من ذلك كنا نحن الاثنين نغط في النوم.

في الصباح

كان هناك سلّم داخلي يصل ما بين طابقي بيت عمي، وعلى هذا السلم نزلت أنا وصديقي ـ بعد استحمام جيد وحلاقة أفضل ـ وذلك قبل ربع ساعة من العاشرة. أما عمي الذي كان قد خرج لإحضار الكرواسان الساخن الذي يشكل جزءاً من البرنامج، فلم يكن قد رجع بعد، وكان تكاسلٍ أيام الآحاد المميز يعبق في الجو. سيكون اليوم حاراً جداً، وخصوصاً على الساحل، حيث ستصل درجة الحرارة إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين درجة مئوية، هكذا كان يقول المذياع المفتوح في المطبخ. وكانت دمدمته تغري بعدم الاستيقاظ تماماً.

بعد توقف في المكتبة، ذهبنا للجلوس على الشرفة في الجزء الخلفي.

ـ إنها نسخة من «نانا» من عامٍ ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين ـ قال لي صديقي ذلك وهو يفتح كتاباً كان قد تناوله من خزانة زولا في مكتبة عمي. ولكنني لم ألتفت إلى تعليقه، فأضاف حين رأى أنني لا أقول شيئاً: ـ ماذا تنظر؟

فاعتذرت:

ـ عفواً. أترى ماذا يوجد هنا؟

ـ أهي كتابات لعمك؟

ـ أظنها ترجمات من عمله، وأظن كذلك أنه أنجزها بسوء نية. وإذا لم أكن مخطئاً، فيجب أن يكون قد اكتشف انتحالاً آخر. ولابد أن يكون مُقتَرَفاً في هذا القرن العشرين المضحك!

قدمت لصديقي الورقتين اللتين كانتا بين يدي.

ـ هل أقرأ ما فيهما، أم أن ذلك سيكون مخالفاً للبرنامج؟

ـ إنه عمل مخالف بالتأكيد. ولكن، بما إنه لم يصل بعد، يمكننا أن نسمح لأنفسنا بترف قراءتها. ولكن كن حذراً. إذا سمعته يفتح الباب فتوقف عن القراءة فوراً وتظاهر بالنظر عبر النافذة.

ـ بل سأفعل ما هو أكثر من ذلك. سأشير إلى شجرة التفاح وأهتف *One apple a day, keeps the doctor away*. وسيبدو ذلك لعمك طبيعياً جداً. لن يخامره الشك في شيء.

ـ تمام. يمكنك البدء بالقراءة.

ـ إليك إذن العنوان الذي على الورقة الأولى: **أودين أو قصة قصيرة لكاتب رائج جداً حالياً، في ترجمة للعم مونتيفيديو.** وإليك السطور التي تلي ذلك:

«كان الملك أولاف تريغفاسون قد اعتنق الديانة الجديدة.

وفي إحدى الليالي جاء إلى بلاطه رجل مسن، ملتف بعباءة قاتمة ويعتمر قبعة عريضة الحواف تخفي عينيه. فسأله الملك عما يستطيع عمله. ورد عليه الغريب بأنه يتقن رواية الحكايات وعزف الكمان. وعزفَ ألحاناً قديمة على الكمان وروى حكاية غودرون وغونار؛ وتطرق أخيراً إلى موضوع ميلاد الإله أودين القديم. قال إنه جاءت ثلاث ساحرات، اثنتان منهما تمنيتا له السعادة... أما الثالثة فأعلنت وهي مفعمة بالغضب: "الطفل لن يعيش أكثر مما سيستغرقه نفاد الشمعة المشتعلة إلى جواره." عندئذ أطفأ أبواه الشمعة حتى لا يموت أودين. لم يشأ أولاف تريغفاسون تصديق الحكاية. فعاد الغريب يؤكد أنها صحيحة، وأخرج شمعة وأشعلها. وبينما الجميع ينظرون إلى اللهب المتصاعد من الشمعة، قال الرجل العجوز إن الوقت قد تأخر وعليه أن يذهب. وعندما استُهلكت الشمعة، خرجوا للبحث عنه. وغير بعيد عن قصر الملك، كان أودين يرقد ميتاً.»

ترك صديقي الورقة الأولى فوق الطاولة واستعد لقراءة الثانية. ألححت عليه بأن يسرع قليلاً. فقد كان المذياع في المطبخ يعلن أن الساعة قد بلغت العاشرة. وقلت له متذكراً دقة عمي في مواعيده:

ـ لن يتأخر في المجيء.

ـ فلنبدأ إذن بالعنوان الذي تحمله الورقة الثانية: **مقاطع مأخوذة من معاجم يعرفها جيداً هذا الكاتب الرائع جداً.**

ـ من الواضح أن العناوين الطويلة تناسبه.

ـ المقاطع الثلاثة هي عن الصياد ميلياغرو... يقول أولها: **سرت الإشاعة بان ميلياغرو لم يكن ابن الملك إينيو، وإنما ابن الإله آريس. وبعد سبعة أيام من مولد الطفل مثلث العرافات أمام أمه ألتيا وأخبرنها بأن مصير ابنها مرتبط بالجذوة التي تستنفد في البيت. وأنه عندما تستنفد الجذوة بالكامل وتتحول إلى رماد، سيموت ميلياغرو. عندئذ أزاحت ألتيا الجذوة، وبعد أن أطفأتها خبأتها في صندوق. ولكن، حدث أن أقدم ميلياغرو وهو في الصيد على قتل أخواله، وهم أشقاء ألتيا. وحين علمت ألتيا بذلك استولى عليها الغضب، وألقت إلى النار بالجذوة التي ترتبط بها حياة ابنها. فمات ميلياغرو من فوره...**

قلت لصديقي:

ـ يبدو أنه قد وصل.

فرد صديقي:

ـ المقطع الثالث قصير جداً.

ـ هيا إذن. ابدأ بسرعة.

ـ **في قرى السِلْتيين، تظهر شخصية أودين تحت اسم أرثوس أو ارتورو، وهو ما تؤكده أسطورة** *"chasses du rio"* **النورمندية. وحسب دونتينفيل، فإن الأسطورة الكامنة وراء كل ذلك هي أسطورة ميلياغرو.**

وسمعنا في تلك اللحظة:

ـ جلسة القراءة تبدأ الساعة العاشرة.

إذا ما أردت وصفه على طريقة روائيي القرن التاسع عشر الذين يروقونه كثيراً، فإن عمي رجل ضخم ووافر اللحم، في حوالى الستين من عمره، له وجه أسمر ورأس أصلع بديع، يرتدي في الغالب ملابس يغلب عليها الأزرق والأصفر. وهناك رسم كاريكاتوري يعلقه في المكتبة، يمثله نصف مقبل على الحياة، ونصف سيناتور روماني، ولكن الرسم لا يعكس تماماً ملمحه الأكثر مغزى: حيوية عينيه الصغيرتين والسوداوين. ذلك أن عمي لم يكن ينظر مطلقاً بعيني المهمل أو المرتاب الذي عاش طويلاً ولم يعد يريد رؤية المزيد، وإنما كان ينظر على الدوام بحماسة، بمكر، بالروح المرحة لمن يذهب إلى حفلة للمرة الأولى. ومن هنا ـــ من البريق الذي يومض في عينيه ـــ تنبع جلسات القراءة التي ينظمها، وحفلاته الطقوسية، ونخلته المضاءة؛ ومن هنا أيضاً ينبع نضاله ضد أسلوب الحياة المبتذل الذي تقدمه إليه الدنيا.

ـ لماذا توضع البرامج؟ سألنا عمي وهو يقترب منا مبتسماً.

ولكنه لم يكن سؤالاً يتطلب إجابة، ذلك أنه راح يعانقنا ويحينا مازحاً. ثم واصل كلامة بعد ذلك:

ـ ثم إنني سأخبركما بأمر آخر. هذه الأوراق التي قرأتماها هي نمط غابر. فأنا لم أعد أسخر الآن ممن ينتحل بصورة جيدة.

فقلت له:

ـ أجل، لقد علمنا بموقفك الجديد من قضية الانتحال. والحقيقة أننا استغربنا ذلك جداً.

ـ ولكن، كيف علمتما بالأمر؟

ـ من الملاحظة التي تركتها لنا في الصندوق يا عماه.

ـ آه! صحيح! إنني سعيد جداً بتبديل آرائي لدرجة أنني لا أتورع عن انتهاز أي فرصة لإعلانها على الملأ. ولكننا سنتحدث في هذا الأمر فيما بعد. أما الآن فسأعد طعام الفطور.

وضحك عمي بينه وبين نفسه وهو يقول ذلك.

وحين مضى نحو المطبخ، قلت لصديقي:

ـ لقد بيّت أمراً.

وعندئذ سمعناه يقول:

ـ مسألة الانتحال هي الدجاجة التي تبيض ذهباً! لقد صرت أؤمن بذلك!

وفي أثناء الفطور تحدثنا في شؤون يومية. وحين لم يبق في الأطباق أي أثر للكرواسان والكيك والمعجنات الأخرى، حمل كل واحد منا في يده فنجان قهوته الثاني أو الثالث، وبدأنا جلسة القراءة.

وقد قرأت أنا أولاً قصص: **هانز مينشير**، **ومن أجل كتابة قصة في خمس دقائق فقط**، **وكلاوس هانهن**، **والتوأمان مرغريت وهينريش**؛ ثم جاء دور صديقي الذي قرأ: **أنا جان بابتيست هارغوس**. وأخيراً عرض عمي نظريته الجديدة في نص بعنوان: **شرح موجز لأسلوب الانتحال الجيد مع نموذج على ذلك**.

ولابد، مرة أخرى، للكلمة الأخيرة من أن تنتظر. فمن غير المناسب مواصلة البحث قبل تدوين القصص المذكورة أعلاه.

هانس مينشير

هناك في هامبورغ، غير بعيد عن بحيرة بينين، بيت يتناقض مظهره، بسبب الإهمال، مع أي بيت آخر في تلك المنطقة من المدينة، ويبدو ميتاً لولا الأزهار التي مازالت حتى اليوم تتفتح في حديقته وتسعى إلى تجاوز السياج الذي يفصلها عن شارع فيرتريب، وهو الشارع الذي يصل ما بين البحيرة وساحة إيتشيندوف.

عابر السبيل الذي يتوقف صدفة أمام ذلك البيت، ويمعن النظر في جدرانه المكشوطة، أو في اللون الباهت لبوابته الرئيسية ونوافذه، ويشعر بأن هذه الوحشة التي تميز على الدوام البيوت المهجورة، تتحدث إلى قلبه الذي ربما يكون مكاناً مهجوراً أيضاً. ولكنه لا يلمح هناك أي تمثال، ولا أي لوحة، ولا أي إشارة تحرض فضوله، فيستريح العابر هنيهة أخرى، يفكر فيها في مدى البهاء الذي كانت عليه أحواض الزهر، ثم يواصل تقدمه عبر الشارع، فيصل إلى ضفة البحيرة، ويجلس في المرسى وينظر إلى الزوارق الشراعية الهشة كيف تنساب فوق الماء، وكيف تطفر قافزة كلما مرّ مركب مزود بمحرك محدثاً دوائر متتالية في الماء؛ ولا يكون قد فعل شيئاً سوى البدء في التأمل حين ينسى البيت المهجور الذي توقف أمامه في شارع فيرتريب. وبذلك يكون قد ضيع على نفسه فرصة معرفة أنه في ذلك المكان عاش الرسام هانس مينشير، وأنه في تلك الحديقة عُثر عليه ميتاً في صباح اليوم السابع والعشرين من شهر تموز عام 1923.

ولكن، لو كان لدى العابر قدر أكبر من الفضول؛ ولو أحس بالحاجة إلى معرفة أسباب ذلك الإهمال، لكان طلب من أحدهم بعض التفاصيل عن

البيت ـ مثلما فعلت أنا ـ ولكان نبش ذلك الصباح التموزي في ذاكرة من سأله، ليشير له بعد ذلك، بملامح من يريد أن يتذكر ولا يستطيع ذلك، إلى مكتبة المدينة المركزية.

ـ إذا أردت أن تعرف ما الذي جرى لمينشير، فابحث في صحف تلك الفترة. من المؤكد أنك ستجد فيها شيئاً.

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد، يحاول العابر أن يعمل بنصيحة مخبره، ذلك أنه مثل أي عابر سبيل آخر، قد خرج إلى الشارع بحثاً عن شيء يبدل من رتابة حياته، دون أن يعرف جيداً ما الذي سيكونه ذلك الشخص، وقد بدت له ملاحقة آثار الرسام مينشير طريقة جيدة لتمضية المساء. ومتابعاً هذه الفرضية، لا يلبث العابر أن يجلس أمام إحدى الصحف الكثيرة الصادرة في اليوم التالي لوفاة الرسام، وهي تتحدث عما جرى في بيت شارع فيرتريب.

ويقرأ العابر الذي اختار الجريدة نفسها التي اخترتها أنا، وأعني جريدة «**بيلد زايتونغ**»:

> «هانس مينشير، الرسام الذي كان صديقاً حميماً لمونتش، لم يحقق الآمال التي أشاعها عمله في البداية. ونعتقد بأننا لا نجازف إذا ما أكدنا أن عالم الرسم قد خسر مينشير منذ اليوم الذي أصابه فيه الجنون، ثم تحوله السريع بعد ذلك إلى مهرج يُضحك كل من يرونه يرسم في حديقة منزلة»

وسيكون رد الفعل الأول الذي يبديه العابر ــ أي القارئ الآن ــ هو الاستغراب. وربما سيتذكر أسماء الرسامين الذين وصمت عبقريتهم بالجنون، دون أن ينعكس ذلك على أعمالهم ــ بل على العكس ــ، وسيرغب في أن يعرف تفاصيل تلك الحالة التي عانى منها مينشير، وهي على حد قول كاتب التحقيق: جنون حوّله إلى مهرج أمام الناس، وإلى شخصية مضحكة، فضلاً عن أنه جعله يفشل كرسام.

ولن يعدم بالطبع تلك التفاصيل في المقال. بل على العكس، فعابر السبيل الذي يعرف أن الحياة بائسة ولكنه لا يحب التقلب في هذا البؤس، يجد نفسه مضطراً إلى تجاوز معظم الطرائق التي يوردها الكاتب في مقاله بسوء النية ذاك الذي يتحدث به الأشخاص الطبيعيون عمن هم ليسوا مثلهم. وحين يصل العابر أخيراً إلى الواقعة المحددة التي جسدت فكرة إصابة مينشير بالجنون، تبدو له واقعة تافهة، لأن ذلك الجنون يقتصر في نهاية المطاف على موقف له علاقة بالرسم أصبح حالة عامة في هذه الأيام؛ إنه موقف الرسام حسب تجليات وإملاءات المخيلة.

فكاتب المقال يقول:

«ومثلما يعرف الكثيرون من أهالي هامبورغ ممن مروا من شارعه، فإن الرسام كان عاجزا كما يبدو عن رؤية ما هو موجود أمامه. فبعد أن ينظر باهتمام إلى ما حوله، يتناول الريشة ويرسم خطوطاً لا تلبث أن تتكشف عن منظر متوسطي؛ حقل لوز على سبيل المثال. وإذا نظر إلى شارع فيرتريب، فإن الشارع لا يظهر في اللوحة؛ بل يظهر ميدان روماني أو أي منظر غريب آخر. ولكن هذا لم يكن هو الأسوأ...»

وبالفعل، لم يكن هذا هو الأسوأ، فالأسوأ هو أن الناس ــ المواطنين الضجرين ـ كانوا لا يتوقفون عن توجيه الأسئلة إليه من الرصيف، وكان هانس التعس ـ فالتعس هو الذي لا ينتبه إلى خبث الآخرين ــ يرد عليهم **وكأنه يقف فعلاً في حقل متوسطي أو في مدينة يونانية، وكأنه هناك جسداً وروحاً بالفعل، بل ويتحدث بنوع من الكلام الإيطالي أو اليوناني**... وهذا التأكيد بخط مختلف هو من كاتب المقال بالطبع.

كان هذا هو الأسوأ، فقد راح مينشير يتحول إلى ما يدعوه الإنكليز *village character*، وبسبب ذلك ـ وأترك الكلمة لكاتب التحقيق ــ «لم يفكر أحد بالنتائج التي قد يؤدي إليها ذلك الانفصال عن الواقع». النتائج: موته المأساوي في ذلك الصباح الحزيراني.

ويروي صحفي جريدة «**بيلد زايتونغ**» وقائع الحادثة بشيء من المرح:

«في هذه السنة الأخيرة، ومثلما لاحظنا نحن جميع من كنا نتوقف في شارع فيرتريت، قصر مينشير رسومه على موضوع واحد وحيد. فقد أصبحت تظهر في لوحاته مدينة عربية، ولاشيء سوى المدينة العربية على الدوام... شوارع بيضاء، مساجد، رجال يرتدون عباءات، نساء محجبات الوجوه... كانت تلك هي عناصر لوحاته. وإلى جانب هوسه هذا، أشرق بسعادة غير مألوفة، وهي سعادة اعتبرها كثيرون مَرضية. وحين سُئل عن ذلك، أوضح الرسام سبب حالته المعنوية بكل تلقائية. قال إنه يقيم علاقة غرامية مع **نبيلة**، وهي امرأة عربية تعرف عليها في المدينة جاديغ التي تظهر في لوحاته، وجاديغ لمن لا يعرف ذلك، هي مدينة على سواحل بلاد العرب.»

أتخيل مينشير يتكلم من وراء سياج حديقته، وأتخيل وجوه من يستمعون إليه. ولا أستطيع تحمل هذه الرؤيا، لأنها تؤذيني. وإذا ما فكرنا في الأمر بترو، فربما يكون مينشير مجنوناً حقاً، لأن المجانين وحدهم هم الذين يستطيعون تحمل ابتسامة محدثيهم الساخرة.

يضيف كاتب المقال، وليس من الصعب كذلك تصوره يبتسم بسخرية:

«ويبدو أن علاقة مينشير ونبيلة كانت عاطفية جداً. وهناك صديق قديم للرسام، يجب علي أن أحافظ على سرية اسمه، كشف لي أن مينشر كان قد حدثه عن هذه العاطفة بكثير من التفاصيل، دون استثناء أكثرها حميمية؛ وهي تفاصيل لا يمكننا، لأسباب واضحة، أن نوردها هنا.»

ويعود كاتب المقال إلى التأكيد على ما كان قد قاله من قبل: «وحسب ما رواه لي صديقه في شبابه، فإن الرسام كان يتحدث عن نبيلة وكأنه قد نام معها **فعلاً، جسداً وروحاً**، في سرير واحد في مدينة جاديغ. ومن المحتمل أن يكون مينشير قد مات وهو يعتقد ذلك... ونعني مات أو قُتل، لأن هذا الأمر لم يتضح بعد.»

لقد وصل كاتب التحقيق أخيراً إلى المجال الذي يحسن التلاعب فيه أكثر من سواه. فهو يعرف أن قراء المقال ستعجبهم اللهجة الحزينة التي تناسب الواقعة المفجعة، فيسعى للتوصل إلى ذلك:

«منذ بضعة شهور بدأ الرسام بعرض صورة مختلفة جداً عن تلك التي وصفناها سابقاً. لم يعد هناك فرح في قلبه. بل على العكس من ذلك، فقد كان يبدو عصبياً ومذعوراً. وعندما أراد أحدهم أن يعرف سبب ذلك التبدل، رد عليه مينشير بأنه قد خالف بصورة خطيرة العادات العربية القديمة التي تحظر، فضلاً عن العلاقات الجسدية قبل الزواج، أي نوع من العلاقات بين امرأة عربية ورجل أجنبي، وأنه قد تم كشف أمر نبيلة، وأن أسرتها تبحث عنه بنية قتله.

»لم يصدق أحد قصته بالطبع. ولكن أناساً كثيرين أحسوا مع ذلك بالشفقة على مينشير ومعاناته. وقد فكروا في أن نوبة الكآبة تلك ستنقضي، وأنه سيعود إلى سعادته السابقة.

»ولكن ما حدث كان عكس ذلك للأسف الشديد. فقد تحول خوف مينشير إلى هلع، وصار ذلك الهلع يجعله يصرخ ويركض بجنون من جهة إلى أخرى في الحديقة. كان مينشير يطلب المساعدة من أولئك العاجزين الذين يراقبونه من الرصيف، ولم يكن هؤلاء يعرفون إذا ما كان عليهم أن يضحكوا أم أن يبكوا. وهانحن نعرف الآن أن الموقف كان يستدعي البكاء، لأن هانس مينشير قد مات. وجد مطعوناً في حديقته صباح أمس، السابع عشر من تموز. والخنجر الذي أجهز عليه ـ وهو تفصيل جرى تداوله في كل المقاهي ـ كان خنجراً عربياً حقيقياً، له نصل عريض ومقبضه مرصع على الطريقة الدمشقية.»

عابر السبيل الذي ذهب إلى المكتبة لا يشعر بالخيبة. ففضوله وفر له أمسية مسلية، وقد أصبح لدية شيء يرويه على العشاء. فينزل أدراج مبنى المكتبة بسعادة ويضيع بين الحشود.

ومع ذلك، فإن الحظ لن يحالف هذا العابر مثلما حالفني أنا بمحض الصدفة، وهو حظ أتاح لي الوصول إلى النهاية في قصة مينشير التي سأوضحها الآن.

فقد حدث أن دُعيت إلى بيت قاض متقاعد، وحيث أنه حدثني عن أنه يؤلف كتاباً عن حالات قضائية لم يتم التوصل إلى حلها، فقد خطر لي أن أسأله عن الرسام المجنون وقضية الخنجر العربي الذي قتله. فقال:

ـ هذه قضية لم يتم التوصل إلى حل لها بالفعل.

وحين لاحظ القاضي أنني بقت أنتظر جواباً أكثر تحديداً، أشار علي بأن أتبعه. وعندما وصلنا إلى مكتبه، أخرج ملفاً من الخزانة، ووضع بين يدي مغلفاً طبعت عليه ترويسة. ارتجفت يداي: فالترويسة مكتوبة بحروف عربية.

قال القاضي:

ـ اقرأ ما تقوله الرسالة.

كانت الرسالة مكتوبة بالإنكليزية، وهي لغة لا أتقنها جيداً، ولكن معرفتي لها كانت كافية لكي أفهم أن شرطة جاديغ تطلب في تلك الرسالة تزويدها بمعلومات عن المواطن الألماني هانس مينشير، وأنها تعلل الطلب بالقول إن امرأة تدعى نبيلة اباواتي قد تقدمت بشكوى لديهم. وتصرح نبيلة في تلك الشكوى بأن ثلاثة من أفراد أسرتها قد قتلوا المواطن الألماني المذكور في ليلة السابع والعشرين من تموز تلك السنة، 1923.

سألته:

ـ ما الذي حدث في الواقع إذن؟

فابتسم القاضي:

ـ أنت تنسى أنني لا أهتم إلا بالقضايا التي لم يتم التوصل إلى حل لها.

ثم أشار لي بأن الوقت قد حان لننضم إلى المدعوين الآخرين الذين بقوا في الصالة.

من أجل كتابة قصة
في خمس دقائق

من أجل كتابة قصة في خمس دقائق لابد من الحصول ـ فضلاً عن القلم والورق الأبيض التقليديين بالطبع ـ على ساعة رملية دقيقة، فهي تعطيك معلومات متكاملة عما مضى من الزمن وعن تفاهة وعدم جدوى شؤون هذه الحياة؛ وكذلك عن الجهد المحدد الذي تبذله في اللحظة الراهنة. لا تفكر بأي حال من الأحوال بالجلوس قبالة هذه الجدران الحديثة المملة وأحادية اللون؛ بل دع بصرك يضيع في هذا المشهد المفتوح الممتد فيما وراء نافذتك، في هذه السماء حيث النوارس وطيور أخرى من الوزن المتوسط ترسم هندسة سعادتها الطيّارة. ومن المهم أيضاً، وإن كان بدرجة أقل، أن تستمع إلى موسيقى.. إلى أي أغنية تكون كلماتها غير مفهومة بالنسبة إليك؛ كأن تستمع إلى أغنية روسية مثلاً. وبعد أن يتحقق كل هذا، انقلب إلى داخلك، وعض ذيلك، وانظر بمنظارك الخاص إلى حيث تعمل أحشاؤك بصمت، واسأل جسدك عما إذا كان يشعر بالبرد، إذا كان يشعر بالجوع، برد ـ جوع أو أي شكل آخر من أشكال الغم. فإذا كان الرد بالإيجاب، أي إذا ما أحسست مثلاً بدغدغة عامة، فتجنب أي شكل من أشكال القلق، لأنه سيكون من الغريب جداً أن تتقدم بعملك منذ المحاولة الأولى. تفحص الساعة الرملية التي مازال جزؤها السفلي فارغاً تقريباً، وتأكد من أنه لم يمض عليك إلا أقل من نصف دقيقة. لا تفقد أعصابك، اذهب بهدوء إلى

المطبخ، بخطوات قصيرة، مجرجراً قدميك إذا ما كان هـذا هـو مـا يروقـك. اشرب قليلاً من الماء ـ وإذا كانت مثلجاً فلا تضيع الفرصة بمسح رقبتـك ـ وقبـل أن تعـود للجلـوس إلى الطاولـة لا بـأس لـو تبولـت تبـولاً خفيفـاً (في المرحاض بالطبع، لأن التبول في الممر ليس من خواص الأدب مبدئياً).

مازالت النوارس هناك، ومازالت هناك عصافير الدوري، ومـازال هنـاك أيضاً ـ في الخزانة التي إلى يسارك ـ المعجم الضخم. تناوله بمنتهى الحـذر، كما لو أن فيه كهرباء، كما لو أنه شقراء بلاتين. واكتب عندئذ ـ دون أن تتوقف عن الإصغاء باهتمام إلى الصرير الذي يصدره القلم وهو يحتك بالورقة ـ هـذه الجملة: **من أجل كتابة قصة في خمس دقائق لا بد من الحصول على.**

ها قد أصبحت لديك البداية، وهـذا ليـس قليـلاً، لأنـه لم تكـد تمضـي دقيقتان منذ بدأت العمل. ليست لديك الجملة الأولى فقط؛ بل لديك أيضاً، في هذا المعجم السميك الذي تحمله في يدك اليسرى، كل مـا أنـت بحاجـة إليه. ففي هذا الكتاب يوجد كل شيء، كل شيء على الإطـلاق؛ وصدقـني أن سلطة هذه الكلمات لانهائية.

أسلم نفسك للغريزة، وتصور أنك أنت، أنت بالذات، هو *الغول*، رجل أو امرأة مصنوع من حروف، أو مشيد من الرموز بتعبير أدق. ولتخـرج هـذه الحروف الـتي تشـكلك لتلتقـي مـع أخواتهـا، تلـك الأخـوات الهاجعـات اللواتي يرقدن في المعجم.

لقد مضى بعض الوقت، ولكن نظرة إلى الساعة تثبت لـك أنـه لم يمـض بعد حتى ولو نصف الوقت المخصص لك.

وفجأة، ومثل نجمة تائهة، تستيقظ الأخت الأولى وتأتي إليك، فتدخل في رأسك، وتسقط بذل في دماغك. يتوجب عليك أن تنسخ هذه الكلمة علـى الفور، وأن تنسخها بحروف كبيرة، لأنها قد نمت في أثنـاء الرحلـة. إنهـا كلمة قصيرة، رشيقة وسريعة؛ إنها كلمة RED.

وهذه هي الكلمة التي تحفز جميع الكلمـات الأخـرى، وعندئـذ يسيطر على الغرفة كلها هسيس كالذي يُسمع لدى فتـح بـاب قاعـة درس الرسـم.

وبعد قليل تبرز كلمة أخرى في يدك اليمنى؛ آه، يا صديقي، لقد تحولت إلى مشعوذ غير طوعي. الكلمة الثانية تنزل من القلم منزلقة على يدين لكي تقفز بعد ذلك على الريشة وتتحول مع الحبر إلى خربشة. هذه الخربشة تقول: يدان.

ومثل من يفتح مغلف مفاجآت، شدّ طرف هذا الخيط (واعذرني لرفع الكلفة، فنحن في نهاية المطاف رفيقا رحلة)، كنت أقول: شدّ طرف هذا الخيط وكأنك تفتح مغلف مفاجآت. حيي هذا المشهد الجديد، هذه الجملة الجديدة التي تأتي معلبة بين قوسين: (**أجل، لقد غطيت وجهي بهذه الشبكة الكثيفة في اليوم الذي احترقت فيه يداي.**)

الآن اكتمل انقضاء ثلاث دقائق بالضبط. وبينما أنت لم تفعل إلا ما هو مكتوب أعلاه، ترد إليك الآن عبارات كثيرة، عبارات كثيرة أخرى، مثل فراشات ليلية يجتذبها مصباح غازي. عليك أن تنتقي، وهذا مؤلم، ولكن لابد لك من الانتقاء. ولهذا فكر جيداً وافتح قوساً جديداً: (**الناس أشفقوا علي. أشفقوا علي خصوصاً لأنهم ظنوا أن وجهي قد احترق أيضاً؛ وكنت واثقة من أن السر يجعلني متفوقة عليهم جميعاً، من أنني أسخر هكذا من اعتلالهم.**)

مازالت أمامك دقيقتان. لم تعد الآن بحاجة إلى المعجم، لا تضيع الوقت به. انتبه فقط إلى انشطاراتك، إلى مرضك الكلامي المعدي الذي ينمو وينمو دون توقف. أرجوك، لا تتأخر في نسخ العبارة الثالثة: (**يعرفون أنني كنت امرأة باهرة الجمال، وأن اثني عشر رجلا يرسلون لي الزهور كل يوم.**)

انسخ أيضاً الجملة الرابعة التي تأتي في أثر السابقة، وتقول: (**أحد هؤلاء الرجال أحرق وجهه مفكراً في أننا سنصبح كلينا في حالة واحدة، في الوضع المؤلم نفسه. ويكتب لي رسالة يقول فيها، إننا الآن متماثلان، فاعتبري موقفي دليل حب.**)

وتبدأ الدقيقة الأخيرة بالانزلاق حين تكون قد وصلت إلى الجملة ما قبل الأخيرة: (**بكيت بمرارة طوال ليال كثيرة. بكيت كبريائي ومذلة**

عاشقي؛ وفكرت في أن الرد العادل يتطلب مني أن أفعل مثلما فعل: أن أحرق وجهي.)

عليك أن تكتب الملاحظة الأخيرة في أقل من أربعين ثانية، فالوقت سينتهي: (وإذا كنت لم أفعل ذلك فإن ما منعني لم يكن الألم الجسدي ولا أي خوف آخر، وإنما لأنني أدركت أن علاقة غرامية تبدأ بمثل هذه القوة ستكون مواصلتها بالضرورة أكثر ابتذالاً من ذلك بكثير. ومن جهة أخرى لم أكن لأسمح له بأن يعرف سري، لأن ذلك سيكون قاسياً جداً. ولهذا، ذهبت هذه الليلة إلى بيته. وكان هو أيضاً يغطي وجهه بلثام. قدمت له نهدي وتبادلنا الحب بصمت؛ وكان سعيداً عندما أغمدت هذا السكين في قلبه. ولم يبق لي الآن سوى بكاء حظي العاثر.)

أغلق القوس ـ معتبراً أن القصة قد انتهت ـ في اللحظة نفسها التي تسقط فيها آخر حبة رمل في الساعة.

كلاوس هانهن

كان فجر اليوم الثاني من شهر أيلول، يوم اثنين، وقد فتح كلاوس هانهن عينيه متفاجئاً جداً، حين انتبه إلى أن المنبهات الثلاثة المصفوفة على سجادة غرفته قد بدأت ترن، في البداية واحد منها، ثم تلاه الاثنان الآخران، كانت ترن طالبة منه أن ينهض، أن ينهض كالعادة ويذهب إلى العمل بأسرع ما يمكن.

كانت الساعات تشير إليه بأن الوقت هو الخامسة والربع صباحاً. وكانت الرسالة صاخبة وفظة.

وحين وعى وضعه تماماً، تنهد كلاوس هانهن غاضباً وأغمض عينيه من جديد. لم يكن على الساعات أن توقظه؛ في ذلك الاثنين، الثاني من أيلول. فقد كان ذلك اليوم بالضبط هو اليوم الذي اختاره ليبدل حياته؛ اليوم الذي يكمل فيه سبعاً وأربعين سنة من عمره، والذي تبدأ فيه أيضا حقبته العظيمة الجديدة. لا، ولا بأي حال من الأحوال؛ فتلك المنبهات الثلاثة التي كان يحتاج إليها عادة لتخرجه من نومه، وهو نوم ثقيل دائماً، لم ترن اليوم بناء على رغبته. لقد رنت بسبب سهو في اليوم السابق وحسب.

أخرج يديه من بين الشراشف، ودون أن يهتم بإشعال الضوء، بدأ يبحث عنها فوق السجادة. ولكنه على الفور تقريباً، وما إن أطفأ رنين الساعة الأولى حتى تخلى عن مسعاه، وعاد للاستلقاء في الفراش. فسماع ذلك الرنين يناسبه في نهاية المطاف. فهو يؤكد له اللحظة التي يعيشها، ويجعله يشعر بقوة أكبر بطبيعة المرحلة الجديدة التي بدأت للتو ـ وهي

طبيعة جيدة بالطبع ـ فلترن، ولتصرخ معلنة أنها الخامسة والربع صباحاً، آمرة إياه بأنه لابد له من الذهاب إلى العمل مهما كان نعاسه. فلم يعد يهمه أن تفعل ذلك، لأنه لم يعد واقعاً تحت تأثيرها.

فلترن. فهو لن ينصاع لها، لا الآن ولا في المستقبل.

ـ من يستطيع أن يمنعك من البقاء في السرير يا كلاوس؟ ـ سأله من داخله أخوه الصغير ألكسندر. كان ألكسندر ميتاً، أو هذا على الأقل ما كانوا يقولونه له: إنه ميت منذ سنوات طويلة، وإنه قد غرق بين القصب في نهر إلبا حين ذهبا معاً في رحلة مع زملائهما في المدرسة. ولكنه لم يكن يصدق ذلك. فهو يعرف أن ألكسندر قد بدل مكانه وحسب. وأنه منذ ذلك اليوم يعيش في داخله، وليس خارجاً، وأنه يحدثه بين الحين والآخر، وخصوصاً في اللحظات المهمة. وهو يشعر بسعادة عظيمة لسماع صوت أخيه الطفولي، ويعمل بنصائحه على الدوام تقريباً. لأنه يحبه كثيراً، كثيراً جداً.

ـ لا أحد يا ألكسندر. لا أحد يمكنه عمل ذلك. ـ رد على أخيه مبتسماً. ثم انقلب إلى الجهة الأخرى لينام.

كانت قد مضت بضع ساعات عندما صفعت الشمس عينيه وأخرجته من غفوته الثانية، وأحس بمشاعر متناقضة تداهمه. كان يحس بالتأثر والسعادة لأن تلك الطريقة في الاستيقاظ تؤكد حقيقة تبدل حياته؛ ولكن إحساسه بالخوف كان موجوداً كذلك للأسف. إنه خوف أصم وغير محدد، إنما يمكن له أن يتعاظم على امتداد النهار، قليلاً قليلاً، مثلما يتعاظم وجع الرأس إلى أن لا يعود يطاق في النهاية. ما الذي سيحمله له المستقبل؟ هل سيمنحه كل ما يرغب فيه؟ لا يمكنه معرفة ذلك، ولن يجد أخوه ألكسندر كذلك الجواب الصائب على هذا السؤال؛ ولكنه يميل على أي حال إلى التفكير في أن ذلك سيحدث، وأن كل العمل الذي قام به في الشهور الماضية سيعطي ثماره أخيراً. المهم هو عدم الاستسلام للخوف. فها هو ذا صباح يوم الثاني من أيلول. وبعد أربع وعشرين ساعة سيكون خارج دائرة الخطر.

رفع كلاوس هانهن ستارة النافذة ورأى أن سماء يومه الحاسم كانت بلا غيمة واحدة. إنها علامة خير. فأكثر ما يروقه، بعد اللون الأبيض، هو اللون الأزرق.

ـ كلاوس هانهن؟ سأل وهو يخرج من الحجرة ويتقدم إلى منتصف الصالة.

كانت مرآة الصالة الكبيرة تؤطره كاملاً، من قدميه إلى رأسه. إنها مرآة بيضوية، يمكن لها أن تميل إلى الوراء أو إلى الأمام بواسطة محور خشبي. وقد كانت في ذلك الصباح مائلة إلى الأمام، فبدا كلاوس أصغر حجماً مما هو عليه في الواقع.

أومأت الصورة مبتسمة. وقال وهو ينحني بتوقير:

ـ تهانينا الحارة في هذه المناسبة.

وسارعت الصورة في المرآة إلى الرد على انحناءته، ثم بقيت تنظر إليه مباشرة، بجدية، وبنية في التمعن. أجل، ليس هناك أي مجال للشك، فعمره سبع وأربعون سنة. التجاعيد تقول ذلك، وانحسارات الشعر في جبهته تقوله، وحتى ملامح وجهه نفسها تقول ذلك. ولو أنه فكر جيداً، رغم عبثية الأمر، فإنه سيكون من الصعب جداً وضع كل تلك السنوات في سجل حياته. فأين هي الأحداث التي يجب أن تملأ كل ذلك الزمن؟ إنه لا يجدها، ولا يمكن لألكسندر كذلك أن يساعده كثيراً في هذه المهمة، فأخوه ـ وهو طفل في نهاية المطاف ـ يجهل كل شيء عن مرور الزمن. عمره الآن سبع وأربعون سنة. ربما كان الوقت متأخراً لتبديل الحياة.

سأل المرآة:

ـ أيكون الوقت قد تأخر يا كلاوس؟

ولكن المرآة أقفرت وتوقفت المحادثة قبل أن يرد أحد على السؤال. كانت ضجة مئات أبواق السيارات تصل من الشارع.

قال له ألكسندر:

ـ إنها اختناق في حركة المرور يا كلاوس.

ثم قال بعد ذلك، حين فتح كلاوس النافذة وأطل منها:

ـ مشهد رائع، أليس كذلك؟

فوافقه كلاوس:

ـ أجل، بكل تأكيد يا ألكسندر.

كانت إشارة المرور الضوئية المحاطة بالسيارات في شارع بولاشفيغ تتبدل دون جدوى من الأخضر إلى الأحمر ومن الأحمر إلى الأخضر. وقبالة بوابة بيته كان هناك موزع خبز يلعن الاختناق المروري الذي حشر شاحنته بين حافلتين.

وبينما نظره مصوب إلى الشاحنة، فكر كلاوس هانهن للمرة الثالثة في ذلك الصباح ـ المرتان السابقتان كانتا حين رأى السماء الزرقاء وحين سمع صوت منبهات الساعات ـ في أن القدر يرسل إليه إشارات تساعده على فهم منافع طريقته الجديدة في الحياة. فقد كان يمكن له هو أيضاً أن يكون، في ذلك الماضي الذي هجره للتو، موزع خبز بائس؛ يعمل كل يوم، بما في ذلك أيام السبت، منذ السادسة صباحاً حتى الخامسة مساءً. فهكذا بالضبط انقضت حياته، في توزيع الخبز، خبز عادي للمحلات، وخبز خاص وموصى عليه لبيوت السادة في أحياء المدينة الراقية. إنه يعرف جيداً اختناقات حركة المرور التي تؤخر التوزيع وتطيل يوم العمل. كان يمكن له أن يكون في يوم الاثنين ذاك في الوضع نفسه الذي يعيشه ذلك الموزع الذي يصرخ بيأس في شاحنته. ولكن ما يحدث هو أن ساعاته الثلاث تشير إلى العاشرة وعشر دقائق، وهو غير موجود. لا، هو غير موجود في الشارع، وإنما في البيت. كما أنه فصل الهاتف. من المستحيل الاتصال به، من المستحيل أن يتمكن أي شخص من سؤاله عن سبب عدم ذهابه إلى العمل.

القدر يساعد من يُظهرون الشجاعة، وكان هو قد أظهرها. ولن يعود مطلقاً إلى شاحنة توزيع الخبز.

يجب أن يكون الثاني من أيلول مختلفاً عن بقية الأيام، مختلفاً في كل شيء، حتى في أتفه التفاصيل، وقد استبدل كلاوس هانهن الاستحمام

المعتاد بالدوش بحمام قوي في ماء حرارته ثلاث وعشرين درجة مئوية. ثم عاد بعد ذلك إلى الصالة وتناول فطوراً مؤلفاً من الشاي والخبز المحمص والزبد وهو جالس على الصوفا، عارياً، والشمس تلسعه تماماً. أراد أن يجفف بدنه بالشمس، ببطء. وهو سيعيش منذ ذلك اليوم هكذا على الدوام، بحلاوة وبطء، مثل سمكة نائمة يحملها التيار.

عندما انتهى من تناول الفطور، أعاد وصل خطه الهاتفي واستدعى سيارة أجرة. ارتدى ملابسه وبشرته ما تزال رطبة، ونزل إلى البوابة.

بعد نصف ساعة من ذلك كان يدخل إلى أحد المخازن الفخمة في شارع كيلير. طلب منهم أن يعرضوا عليه ملابس غالية، فنظرت إليه الموظفة من فوق نظارتها، وتخلت عن نبرتها الضجرة التي أبدتها حين حيته وسألته أي نوع من الثياب الغالية يعني.

أوضح كلاوس أنه يرغب في استبدال كل ملابسه، من رأسه حتى قدميه. فهو يحتاج إلى ملابس داخلية، وجرابات، وقميص، وحذاء أزرق اللون، وأخيراً وهو المهم، بدلة صيفية خفيفة، بيضاء اللون. وهو يريد فوق ذلك أن يخرج لابساً كل شيء. وإذا كانوا يسمحون ـ وهو يعرف أنهم يسمحون ـ فسيترك كل ما يلبسه الآن هناك.

ـ هل أنت متأكد من أنك تريد بدلة بيضاء؟ فالصيف لن يدوم إلى الأبد.

ـ قالت له الموظفة ذلك بتواطؤ غير منتظر. وكان إصبعها يشير إلى الرزنامة الصغيرة الملحقة بصندوق الحسابات. فالخريف يقترب، وهو بارد عادة.

فقال كلاوس بالابتسامة المتواطئة نفسها التي أظهرتها له الموظفة:

ـ الجو صيف دائم في جزيرة السلاحف.

وعندئذ سمع صوت ألكسندر يؤنبه بنبرة جافة:

ـ كيف أمكن لك أن تقول هذا يا كلاوس؟

اختفت ابتسامة كلاوس عن وجهه. فهذا الذي قاله عن جزيرة السلاحف ـ وهو شعار إحدى وكالات السياحة ـ يمكن رؤيته بحروف كبيرة جداً وعلى خلفية أشجار نخيل على جميع لوحات الإعلانات في

المدينة تقريباً. بسبب خطأه هذا أصبح لدى الموظفة الآن معلومة يمكن لها أن تشكل خطراً على مرحلته الجديدة.

وهمس له ألكسندر:

ـ لم تكن حذراً يا كلاوس. هذه المرأة ستتذكر جوابك الذي قلته لها. فلنأمل ألا تصل هذه المعلومة إلى بعض الآذان.

أخوه الصغير على حق. إنه يريد أن يحيا مثل سمكة نائمة باطمئنان، تسلم نفسها للتيار؛ ولكن الأسماك حتى وهي نائمة، تضمن النتائج الطيبة لأحلامها بالإبقاء على جزء من دماغها متيقظاً. ومن المناسب له أن يقتدي بها. يجب عليه ألا ينسى أن هناك أسماكاً أخرى مؤرقة، مترصدة، وأكثر منه قوة؛ أسماكاً تشم رائحة الدماء وتعرف كيف تتبع أثرها. عليه أن يكون حذراً منها. بعد أربعة وعشرين ساعة سيكون بمنجى من كل ذلك. وعليه أن يتصرف بحذر حتى ذلك الحين.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟ ـ هتف كلاوس بذلك حين رأى الموظفة تبتعد متجهة نحو الهاتف المعلق على الطرف الآخر من الكونتوار. وبدت عليه امارات الغم.

ـ ستتصل بالشرطة! اقتلها يا كلاوس! اقتلها فوراً! ـ صرخ به ألكسندر. ولأنه ما يزال طفلاً، فإنه لا يعرف التمييز بين ما هو خير وما هو شر، ويصبح مجنوناً أحياناً. وخصوصاً عندما يرتعب.

وصرخ به هو بدوره:

ـ دعك من قول الحماقات يا ألكسندر!

ثم تابع بعد ذلك خطوات الموظفة ويداه متضمختان بالعرق، إلى أن وصلت إلى الهاتف. ولكنها كانت ما تزال تبتسم. ولم تكن تبدي أي ارتياب.

قالت له:

ـ ليست لدينا في المحل كل أنواع الملابس. يجب أن أتصل بالمخزن في القبو. ـ ثم سألت وهي تخفض بصرها وتقرب شفتيها من الهاتف: ـ هل لدينا أحذية زرقاء اللون؟

علقت الموظفة سماعة الجهاز في الوقت الذي كانت تشير فيه بإيماءة إيجابية. أجل، لديهم أحذية زرقاء اللون. سيخرج من المحل وهو يلبس مثلما أراد. دقيقتين وسترجع إليه ومعها كل الملابس التي طلبها.

انتهز كلاوس فرصة غياب الموظفة ليتكلم مع أخيه الصغير. ما كان عليه أن يفقد عقله ويسمح للخوف بالسيطرة عليهما، لأن الخوف هو أسوأ الناصحين: إنه يخفي الدروب التي توصل إلى النجاة، ويضيء بالمقابل تلك التي تقود مباشرة إلى الهاوية. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يتصرف على الإطلاق تقريباً مثلما تصرف حين قال ما قاله عن جزيرة السلاحف.

ـ صحيح يا ألكسندر، إنني معتاد عموماً على التصرف بحذر. ولو لم أكن حذراً لما كنت حجزت تذكرة سفري بالطائرة هذه الليلة قبل ستة شهور.

ولكن الموظفة كانت تستدعيه. فقطع كلاوس الحوار الداخلي ليجرب البدلة البيضاء.

حين خرج من المتجر كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، وكانت أشعة الشمس تسقط عمودية على شارع كيلير. وكان الناس الخارجين من المكاتب يملؤون الأرصفة وهم يتجهون نحو حدائق بحيرة بينين.

اتخذ كلاوس الاتجاه المعاكس ومشى نحو حي سانت باولي، ففي أحد شوارعه ـ شارع باورستراس ـ يوجد أشهر صالون تزيين للرجال، صالون سيباستيان.

لم تكن المرة الأولى التي يجتاز فيها هذا الطريق، ولكنه أحس مع ذلك، منذ بداية مشواره، بأن كل شيء كان جديداً تماماً ومختلفاً: ما يراه، وما يسمعه، وما يحسه. ولكن الجديد، لحسن حظه، لم يكن في الخارج، وإنما في داخله بالذات. لأنه هو، كلاوس هانهن، في ذلك الثاني من أيلول، لم تكن له أي علاقة بموزع الخبز القديم الذي كان ينتهز آخر ساعات مساء أيام السبت، ليأتي إلى الصالون ويكتفي بأرخص الخدمات أجراً. أضف إلى ذلك أن إحساسه هذا كان يزداد كلما توجه بنظره إلى واجهات المحلات،

لأن كل ما كانت تعكسه في صور متعددة كان يتحدث عن الشيء نفسه: رجل ثري يرتدي الأبيض ويستمتع بنزهة صيفية. فتساءل وهو يتوقف على الرصيف:

ـ أهو كلاوس هانهن؟

فحذره ألكسندر من أن التحدث إلى واجهة محل أزهار هو عمل شاذ، وأنه يمكن للمارة أن يبدؤوا بتوجيه أسئلة. ولكنه لم يكن يهتم بالمارة. إن من يهمه فقط هو ذاك الرجل الجديد الذي يحمل باقةِ زنابق على مستوى صدره. فهتف وهو يبدي تعابير المفاجأة:

ـ أنت إذن كلاوس هانهن!

فأومأت الصورة المطبوعة على زجاج الواجهة بالإيجاب، وبدأت تضحك. ولكن الضحكة لم تكن قهقهة، وإنما هزة ناعمة تخرج من مكان عميق الغور في قلبه، وتأخذ بالانتشار بعد ذلك نحو الخارج، نحو الجلد. تلك الضحكة المختفية مذ كان في السادسة أو السابعة من عمره، عادت إلى الحياة أخيراً.

وسأل عندما بدأ يمشي من جديد:

ـ ألا تضحك يا ألكسندر؟

فرد عليه أخوه:

ـ ألا ترى أنني قد بدأت أضحك؟

وصل إلى باب صالون سيباستيان دون أن ينتبه إلى ذلك تقريباً. السعادة تقصر المسافات، فليس ثمة تعب لقلب سعيد.

تقليم أظفار، كريمات فرنسية، مساجات للوجه وفق أسلوب شرقي مستورد ـ هذا ما يقوله الإعلان، مستورد ـ في تفرد صارم. قرأ كلاوس القائمة بمرح، ثم دفع الباب بتصميم. كان مستعداً لتجريب كل شيء وكل واحدة من اختصاصات المحل.

اقتادته امرأة إلى حجرة لها مظهر قمرة.

قال لها مازحاً:

ـ اجعليني أطول قامة. أريد أن أصير مثلك.

وقد كانت المرأة طويلة جداً بالفعل.

ـ هناك أشياء لا يمكنني تحقيقها في الوقت الراهن. ولكنني سأجعلك أجمل. ـ ردت عليه في الوقت الذي كانت تدلك فيه وجهه بسائل مائل إلى الحمرة. وكانت لهجتها تذكر بكباريهات سانت باولي القريبة.

فوافق كلاوس:

ـ سيكون هذا كافياً.

والواقع أنه لم يكن بحاجة لأن يكون طويلاً جداً. فإذا صح ما يقوله كراس وكالة السياحة، فإن سكان جزيرة السلاحف هم أناس قصار القامة.

أمرته المدلكة بنبرة مهنية حاسمة:

ـ سأقوم أولاً بتدليك جسمك كاملاً. دع ملابسك الجميلة على هذا المشجب واستلق هنا.

كانت تشير إلى الأماكن ـ على هذا المشجب، هنا ـ بحركات مسرحية، مثل مضيفة طائرة في لحظة الإشارة إلى مخارج الطوارئ.

تعرف كلاوس هانهن على الإيماءات، فاتجه تفكيره إلى رحلته الليلية. فكر بالمطار، بالحقائب التي كان قد أرسلها من هناك في اليوم السابق؛ وبالعشرين حزاماً الملفوفة بورق الهدايا التي يخبئها في تلك الحقائب؛ وبالعشرة آلاف مارك المطوية التي يضمها كل واحد من الأحزمة. عشرون حزاماً، مئتا ألف مارك: إنه الكنز الذي تسند إليه المرحلة الجديدة من حياته.

وفكر بعد ذلك بمدخراته التي ستسمح له الاستغناء عن ذلك الكنز لفترة من الحذر الاحتياطي. هناك بعيداً، في جزيرة السلاحف. بعد ثماني ساعات سيحل الليل، وعندئذ سيشق ظلمةَ السماءِ ضوءُ طائرة أحمر ومتقطع.

كانت يدا المدلكة تغوصان في جسده مسببتين له تشنجات ألم خفيفة، تصبح لطيفة في النهاية. أغمض عينيه لكي يتابع في ذهنه خط سير الطائرة

حتى لحظة هبوطها في الجزيرة. ولكن قلبه كان يضج بسعادة كبيرة منعته من التفكير. لقد كانت السعادة تبهره مثلما تبهر الشمس من ينظرون إلى نورها مباشرة.

* * *

الأهداف التي كان قد وضعها من أجل صباح يوم عيد ميلاده انتهت هناك، في زيارته لصالون سيباستيان للتجميل. وحين أصبح من جديد على رصيف براورستراس، تردد كلاوس في الاتجاه الذي يتخذه. نظر إلى ساعته. كانت الثانية بعد الظهر.

سأل وهو يجوب بنظره الشارع المقفر تماماً في هذه الساعة:

ـ ما هو أفضل مطعم في هذه المدينة الكئيبة يا ألكسندر؟ ـ ولكن أخاه الصغير لم يكن يعرف أي شيءٍ عن تفاهات العالم، فبقي صامتاً. فاتخذ كلاوس قراره بعد أن فكر قليلاً:

ـ سأذهب إلى مطعم باريس.

كان ذلك هو المطعم الذي يرتاده جميع السادة الذين يقطنون في الأحياء الغنية من المدينة، أولئك الذين يطلبون خبزاً خاصا لعشائهم الأسري. لا بد أنه مطعم جيد جداً. ثم إنه في ستادبارك، غير بعيد عن شارع براورستراس.

رفع كلاوس ذراعه وأوقف سيارة أجرة.

ـ إلى الباريس من فضلك ـ طلب ذلك من السائق بضجر متصنع. فقد كان يريد إخفاء لهجته المعتادة.

فقال له ألكسندر وهو يضحك ضحكة بدت له ساخرة:

ـ لا حاجة بك لأن تتكلم هكذا يا كلاوس. عليك من العطر ما يكفي ليمنع أي شخص من التجرؤ على الارتياب بمكانتك الاجتماعية.

كانت صالة المطعم مقسمة بأعمدة مذهبة، أما الموائد ـ وهي عشرون مائدة فقط ـ فكانت موزعة حول حوض مائي ضخم. ومن خلال النوافذ كان

بالإمكان رؤية أوراق الأشجار المصبوغة بالأحمر في ستادبارك. وكانت الفوط قماشية زرقاء اللون، وشراشف الموائد بيضاء.

جلس كلاوس هانهن إلى طاولة قريبة من الحوض المائي، مولياً ظهره لبقية الزبائن. كان يريد تناول الطعام ونظره مصوب إلى الأسماك التروبيكالية التي تسبح في الحوض المائي. وعلل ذلك:

ـ من المناسب أن نبدأ بالتعود على ما سنراه في جزيرة السلاحف يا ألكسندر.

ثم قال بعد ذلك بصوت واثق:

ـ ما هو اسمك؟

وكان السؤال موجهاً إلى الجرسون الذي اقترب حاملاً قائمة الطعام.

فرد عليه الجرسون بشيء من البلبلة:

ـ مارسيل، *monsieur*.

ـ *Très bien*، يا مارسيل. انصحني بشيء. اليوم عيد ميلادي.

كان كلاوس ينظر بتردد إلى قائمة الطعام التي بين يديه. فعلى الرغم من أن مكونات كل طبق كانت مذكورة، بحروف صغيرة بين أقواس، بطريقة مفهومة بالنسبة إليه، إلا أن أغلب الأسماء الواردة هناك بدت له غير مفهومة نهائياً.

ونصحه الجرسون بعد أن تمتم بكلمة تهنئة:

ـ «السافاران» عندنا رائع يا سيدي.

ـ فليكن سافاران إذن.

حاول كلاوس أن يجد ذلك الطبق في القائمة ويتعرف على مكوناته. ولكنه لم يستطع ذلك. كان يضيع في تلك القائمة الغريبة. فأضاف قائلاً:

ـ ألا يبدو اسماً غريباً لطبق من اللحم؟

فوافقه الجرسون وهو يبتسم بلطف:

ـ عذراً، لكنه يا سيدي طبق سمك. وأنت على حق على أي حال. إنه اسم غريب.

وتقبل هو الأمر بتعجل:

ـ بالطبع، بالطبع.

وسمع عندئذ صوت أخيه يرن بجفاء مثلما يحدث كلما أراد إيلامه:

ـ لقد جعلت من نفسك أضحوكة يا كلاوس.

كانا أخوين، وكانا متحابين، ولكن ألكسندر يبدو أحياناً وكأنه لا يفهمه.

وألح ذلك الصوت الجاف:

ـ أنت تعرف ما الذي سيقوله مارسيل عندما يصل إلى المطبخ، أليس كذلك؟ سيقول إن الزبون الجالس على الطاولة المجاورة لحوض الأسماك متأنق كذّاب، إنه رجل مبتذل يريد الظهور بمظهر الثري. لقد كنت مضحكاً حقاً يا كلاوس.

غطى عرق بارد جبهة كلاوس ويديه. وكان ما يزال يواصل البحث عن ذلك الطبق المدعو «سافاران».

فساعده الجرسون وهو ينحني فوق قائمة الطعام:

ـ هاهو ذا يا سيدي!

وقال له كلاوس بجفاء:

ـ إنني أراه! إنني أراه!

كان طبق الـ (Savarin scandinave avec brocoli d'aneth) مدرجاً جانباً في القائمة، بين عشرة أطباق ينصح بها رئيس الطهاة الزبائن لهذا اليوم.

ثمن الطبق جعله يفتح عينيه على اتساعهما. إنه يكلف عشرة أضعاف وجبته الكاملة في مرحلته السابقة الطويلة التي انتهت حديثاً.

أمر الجرسون:

ـ حسن. أحضره لي.

ولكنه كان مذهولاً من السعر، فاضطر لبذل جهده حتى لا يظهر عليه ذلك.

وزجره الصوت الجاف:

ـ إنك تفكر مثل فقير يا كلاوس. أنت غني وتفكر مثل فقير. لن تتبدل مطلقاً.

ـ اصمت يا ألكسندر!

كل السنوات الطويلة التي أمضياها معاً ومازال لا يفهم أخاه الصغير. إنه يقف ضده أحياناً دون أي سبب. يبدو وكأنه يحب أن يجعله يتألم.

ـ ومن أجل البدء يا سيدي؟

فرد كلاوس على الجرسون. ولكن دون أن يفكر بما طلبه:

ـ *Crepes de roquefort*.

ـ نبيذ أبيض من المنطقة؟، نبيذ من الراين؟ ـ كان الجرسون يواصل الابتسام، ولكن ليس ابتسامة مفتوحة كالسابق. وأحس كلاوس للحظة بمسحة سخرية في نظرته.

ـ بالضبط! هذا هو ما أحتاجه! نبيذ من الراين! ـ صفق كلاوس وهو يقول ذلك بحماسة، ولكن حماسه كان زائفاً.

عندما غاب الجرسون بين الأعمدة، حاول كلاوس أن يدقق في أشجار ستادبارك، التي مازالت مغمورة بالشمس، أو في أسماك الحوض التروبيكالية. ولكنه وجد أنه من المستحيل عليه حرف أفكاره. فقد كان يرجع مرة بعد أخرى إلى ذلك السافاران الذي كشفه تماماً. لقد كان طوال فترة الصباح وكأنه تلك السمكة النائمة التي تمنى أن يكونها، وظن أنه وسط تيار عذب. ولكنه حلم، مجرد حلم. فقد كان تعكير خفيف للماء كافياً لأن يجعله يستيقظ ويدرك أن التيار غير موجود. لم يكن في البحر، ولم يكن في نهر؛ بل كان في حوض مثل أسماك المطعم التروبيكالية. والفارق الوحيد هو أن الحوض الذي كان فيه أصغر حجماً.. كان يخنقه، ويجعله يتعرق.

قال الصوت الجاف:

ـ أنت المذنب يا كلاوس.

إن تأنيب ألكسندر يزيد من الغم الذي كان يشعر به في تلك اللحظات، فشكر حظه لسماع صوت الجرسون إلى جانبه. وكان قد أحضر له زجاجة نبيذ الرين.

ـ أتريد أن تتذوقه يا سيدي؟

كان للنبيذ لون العنبر. فهز كلاوس رأسه موافقاً.

ـ ألديك ورق؟ سأله بعد أن وافق على نوعية النبيذ.

أبدى الجرسون امارات عدم الفهم:

ـ ورق يا سيدي؟

ـ لكي أكتب ملاحظتين موجزتين. لا أستطيع إضاعة الوقت. أحب ذلك، ولكنني لا أستطيع.

وسمع في داخله:

ـ أجل يا كلاوس، أنت الآن تتكلم جيداً.

وابتسم كلاوس راضياً. فصوت ألكسندر لم يكن جافاً هذه المرة.

قال الجرسون وهو يقترب من الخزانة الموجودة في قاعدة حوض الأسماك:

ـ هل تنفع البطاقات البريدية؟ ـ ثم أخبره على الفور وهو يلتفت إلى الطاولة ويضع بضع بطاقات على الشرشف: ـ إنها تحمل صورة المطعم.

فقال له كلاوس وهو يتناول زجاجة النبيذ ويسكب كأساً آخر:

ـ جيد جداً يا مارسيل. شكراً جزيلاً، إنها تفي بالغرض.

وجه ملاحظته الأولى إلى مدير العاملين في مؤسسته، وبرر فيها تغيبه عن عمله ـ وكذلك وجوده في مطعم فخم ـ ناسباً ذلك إلى قرار مفاجئ بالزواج. وطلب في ملاحظته التفهم، وأكد أنه ينوي العودة إلى شاحنته في أسرع وقت ممكن.

ولكن نبرة الملاحظة تبدلت مع ذلك في السطرين الأخيرين. فالحاشية الأخيرة تقول:

لا أظن أنني سأتأخر أكثر من ثلاثين سنة. وأكون شاكراً جداً لو أنك تكون قد مت حتى ذلك الحين.

أحس كلاوس بضحكات ألكسندر في داخله، فضحك هو أيضاً. لقد كان يعرف مدير العاملين جيداً، ويمكنه أن يتصور صرخاته الهستيرية حين ينتهي من قراءة الرسالة. ولهذا السبب كتب إليه، لأنه يريد أن يمرمر له حياته.

وهمس له ألكسندر:

ـ كان عليك أن تقتله يا كلاوس.

ـ اصمت أيها الأبله. رد عليه كلاوس بذلك، ولكن بنبرة حانية، وكأنه يطلب شيئاً من طفل. فذلك النبيذ العنبري اللون كان يحسّن مزاجه.

حرر الملاحظة الثانية، ولم ينهها إلى أن أصبح الـ *crepes de roquefort* فوق الطاولة.

«سمكتك الصغيرة تودعك، وإلى الأبد. عندما تتلقى هذه البطاقة البريدية سأكون بعيداً جداً. أعرف أنك لن تفهم، ولكن لا فرق. مسألة ألكسندر لن تفهمها كذلك، ولا فرق في هذا أيضاً. لا أظن أنك ستشتاق إليّ. هكذا أفضل. كنت سأكتب لك شيئاً أكثر ولكنني لا أعرف كيف أكتب. أتمنى لك السعادة.»

وقع باسمه، وكتب العنوان وسلم الملاحظتين إلى الجرسون.

ـ هل يمكنك أن ترسلها يا مارسيل؟

ـ طبعاً يا سيدي. غداً سنأخذها إلى البريد.

ـ شكراً يا مارسيل.

قال الجرسون وهو يشير إلى الزجاجة الفارغة تقريباً على الطاولة:

ـ أظنك بحاجة إلى مزيد من النبيذ يا سيدي.

ـ أجل، أحضر لي زجاجة أخرى من فضلك. إنني أحتاج دائماً لقليل من الحماسة عندما أكتب. قال كلاوس ذلك وهو يبتسم، ورد له الجرسون الابتسامة، وسكب له النبيذ المتبقي في الزجاجة.

لم يشعر بتحسن مع النبيذ ولا مع الطعام. فقد كان يشعر بمزيد من الحر، وعندما تخلص ـ وهو يحاول ابتلاع السافاران ـ من جاكيت بدلته، لاحظ باستياء أن عرق الإبطين يحول إلى القتامة لون القميص الأزرق. كانت لطخات العرق واضحة حتى في الصورة المشوهة التي يعكسها أحد الأعمدة المذهبة.

صرخ فجأة:

ـ الحساب من فضلك!

فالتفت جميع الزبائن الذين مازالوا في المطعم نحوه. كان قد قرر التخلي عن ذلك السافاران المقرف والانصراف بأسرع ما يمكن. لقد كان يشعر بأنه يفتقد الهواء، بأنه يختنق. فعاد ينادي: ـ الحساب يا مارسيل!

أسرع الجرسون إليه بخطوات قصيرة، موارياً تعجله.

ـ أتريد الذهاب يا سيدي؟ ألن تتناول شيئاً آخر؟ ـ وكانت نظراته تشي بالذعر.

ـ أجل، أريد الذهاب! ـ وكانت يد كلاوس تلوي أحد أذيال الشرشف.

ـ أرجوك، لا تجزع. سآتيك بالحساب فوراً. إنني آسف جداً يا سيدي.

فاعتذر كلاوس خافضاً صوته.

ـ آسف، ولكن يجب علي أن أذهب إلى البيت.

لقد كان يحس بالخواء وانعدام القوة بعد الصرخات. وكان رأسه ثقيلاً.

ـ سأعود بعد دقيقة يا سيدي.

لم يكن رأسه ثقيلاً وحسب، بل إنه كان يدور أيضاً، وقد وجد صعوبة في النهوض من وراء الطاولة. بعد ذلك، وحين كان قد اصطدم مرتين بالحوض، قرر الاستناد على أحد الأعمدة والانتظار هناك إلى أن يأتيه بالحساب.

ـ أسماك جميلة يا مارسيل، جميلة جداً ــ قال معلقاً عندما عاد الجرسون. ودفع مئتي مارك ثمن الطعام، ثم قال: ــ الباقي لك. وكان الباقي ستون ماركاً.

وكانت لصوت ألكسندر نبرة سخرية واضحة حين قال:

ـ كم أصبحت كريماً يا كلاوس! يبدو واضحاً أنك مخمور.

وقال له الجرسون وهو ينحني باحترام:

ـ شكراً جزيلاً يا سيدي.

ـ لا تنس البطاقات البريدية من فضلك. إنها مهمة جداً بالنسبة إلي. حقاً يا مارسيل. شؤون عاطفية. أنت تعرف ما الذي يعنيه هذا.

كان ينطق الكلمات بصعوبة، وكان لسانه يتلعثم.

وراح الجرسون يدفعه باتجاه الباب، قليلاً قليلاً وبرفق.

بدأ كلاوس يقول وهو يتمهل ويلتفت إلى الوراء:

ـ على أي حال، الأسماك في جزيرة السلاحف أجمل بكثير. أقول لك الصدق. إنها أجمل بكثير جداً. أسماك لا يمكن تصورها.

ـ بالطبع يا سيدي. هل تريد أن أستدعي لك سيارة أجرة؟ إذا أنت رغبت فسأطلب لك سيارة أجرة. لن يكلفني ذلك شيئاً.

ـ ربما أنني لم أقدر هذا السافاران جيداً يا مارسيل. أعذرني. لو أنك تعرف... ـ قال كلاوس ذلك وهو يظهر امارات الكآبة. فعدم قدرته على إنهاء ذلك الطبق بدأت تبدو له قضية عميقة المغزى. فهذا الفشل يرمز إلى كل إخفاقات حياته.

وراح الجرسون يواسيه وهو يتنهد:

ـ يوم آخر يا سيدي. عد في يوم آخر. وسترى كيف سيعجبك. كلنا نمر بأيام غريبة في حياتنا.

ـ لا أظن أن الفرصة ستتاح لي للعودة مرة أخرى يا مارسيل. أقول لك بجد. بل بكل جدية. فبعد ساعات قليلة...

وسمع عندئذ من داخله:

ـ اصمت يا كلاوس. أنت مجنون. لقد كنت مجنوناً على الدوام.

لقد كان كلاوس مصمماً عملياً على أن يخبر الجرسون بخطط رحلته بالرغم من احتجاج ألكسندر. ولكن نظرةً إلى حوض الأسماك أوقفته. كانت الأسماك التروبيكالية تتجمع في أحد أركان الحوض وتنظر إليه بفزع. هي أيضاً ترى أنه يسيء التصرف. لماذا يكثر من الكلام؟ ألا يعرف كيف يصمت؟ عقله غير جدير بأن يكون عقل سمكة. إنه غير قادر على سماع إشارات الإنذار.

رفع كلاوس إصبعه السبابة إلى فمه، وقال لنفسه:

ـ اصمت!

ـ أتريد أن أستدعي لك سيارة أجرة يا سيدي؟

ـ *Merci beaucoup* يا مارسيل. أنت لطيف جداً. الحقيقة أنني أشعر ببعض الإعياء.

وقال له الصوت الجاف:

ـ أنت مريض إذن يا كلاوس. إنك تُضحكني.

فرد عليه كلاوس بنبرة متذمرة:

ـ إنك قاس في بعض الأحيان يا ألكسندر. أعرف أنني قد شربت قليلاً. ولكن اليوم هو عيد ميلادي في نهاية المطاف.

عادت الأسماك التروبيكالية تسبح في الحوض من جهة إلى أخرى. فوجه إليها كلاوس غمزة تواطؤ. وانتهى قائلاً:

ـ وأنا أفكر بالشيء نفسه يا صديقاتي.

وأخبره الجرسون:

ـ ستأتي سيارة الأجرة حالاً يا سيدي. ستنتظرك عند بوابة الحديقة.

ـ شكراً جزيلاً يا مارسيل. شكراً بحق. ـ قال له كلاوس ذلك وهو يربت على ظهره. ثم خرج من المطعم متعثراً وسار باتجاه سيارة الأجرة.

بعد ساعة من ذلك كان يفتح باب بيته. لقد قطع الطريق وهو يفتح نوافذ سيارة الأجرة، ولهذا لم يعد يشعر بكثير من التشوش. ولكنه كان سعيداً على كل حال لأنه كان قد أعد كل شيء. فالجزء الرئيسي من أمتعته كان قد أصبح في المطار. أما الباقي ـ وهو حقيبة سفر صغيرة ـ فينتظر في أحد أركان الصالة. ولم يعد أمامه سوى أن يستريح قليلاً ويودع تلك الشقة الرخيصة. إنها لا تروقه، ولكنه عاش فيها على أي حال طوال سبع وأربعين سنة.

وقبل أن يجلس على الأريكة، حمل المنبهات الثلاثة إلى الصالة وأخرج بندقية الصيد القديمة من الخزانة حيث خبأها في اليوم السابق. قبّل كلاوس السلاح وضحك. فقال له الصوت الجاف:

ـ إنك مخمور يا كلاوس.

وقال هو متوجهاً إلى البندقية:

ـ شكراً جزيلاً.

كان قد اشتراها من زميل في العمل منذ سنتين، ولم يستخدمها سوى مرة واحدة.

«أمس صباحاً» فكر كلاوس متفاجئاً. كان يخيل إليه أنه قد مضى زمن أطول بكثير منذ استخدم البندقية لاحتجاز أسرة مدير أحد المصارف. ولكنه كان انطباعاً خاطئاً، لأنه لم يمض على ذلك سوى أربع وعشرين ساعة. إنني أكلمك من بيتك. أنت تعرف أن لك زوجة وابنتين. وأظن أنك تحب ابنتيك على الأقل. إنني بحاجة إلى مئتي ألف مارك. فانظر بنفسك إذا ما كنت ستحضر لي المبلغ أم لا. ومن الأفضل أن تفعل ذلك دون أن تخبر أحداً بأي شيء، ذلك أنني نسيت أن أخبرك بأني أحمل في يدي بندقية ذات ست طلقات. أحضر النقود ولن يحدث أي شيء. ولكنه اضطر فيما بعد ـ تذكر كلاوس بحزن ـ إلى قتل الجميع، ليس لأنه كان يريد ذلك، وإنما من أجل أخيه الصغير؛ فألكسندر ما يزال طفلاً، ولا يعرف كم هو مرعب الموت. إنه لا يصغي إليه عادة، ولا ينصاع لأوامره بالقتل. ولكنه يطيعه عندما يكون متوتر الأعصاب فقط.

«وقد كنت لسوء الحظ متوتر الأعصاب جداً بالأمس»، فكر كلاوس وهو يتثاءب.

وقال له الصوت الجاف:

ـ لقد شربت كثيراً من الخمر يا كلاوس. إنك تتفوه بحماقات.

فرد عليه وعيناه تغمضان بتثاقل:

ـ إنني نعس يا ألكسندر.

وصرخ به ألكسندر:

ـ انهض فوراً يا كلاوس! ستنام في جريرة السلاحف مثلما تشاء! أنت هنا ولم تنظر بعد إلى نفسك في المرآة. ـ ثم أضاف بعد ذلك بصوت أكثر عذوبة: ـ يجب عليك أن تهتم قليلاً بمظهرك الجيد.

ـ أجل يا ألكسندر، أجل. قال كلاوس بانصياع. إنه يمل أحياناً من أخيه الصغير. لماذا يريده أن ينهض في لحظة يشعر فيها بالثقل حتى من بدلته البيضاء؟ إنه لا يفهم كيف يمكن لأخيه أن يكون كثير النزوات.

ـ كلاوس هانهن؟ تساءل بعد أن أصبح في منتصف الصالة.

وأومأت الصورة في المرآة بالإيجاب مثلما جرى في الصباح، ولكن دون الحماسة التي كان ينتظرها. كانت البدلة البيضاء على ما يرام، وكانت على ما يرام كذلك البندقية التي يسندها إلى صدره، وأما ما سوى ذلك فكان سيئاً. وجهه بصورة خاصة كان سيئاً. فالعرق قد أتلف كل ما صنعته مراهم التدليك. وقد عادت البقع الحمراء إلى الظهور من جديد.

كان الطبيب قد قال:

ـ هذه البشرة الدهنية وهذه البقع هي من النوع النباتي.

تذكر أنه مازالت هناك طلقة في حجرة الانفجار بالبندقية، فوجه السلاح إلى صورته نفسها، إلى البقع الحمراء التي في وجهه. حدد الهدف ـ واثقاً وثابتاً ـ وكان يغمض ويفتح إحدى عينيه. ومن الجانب الآخر، في تماثل ساخر، كان الرامي الآخر يفعل الشيء نفسه مقلوباً.

ـ أنا سأكسب! صرخ كلاوس وهو يضحك مقهقهاً ويلقي البندقية إلى الأرض. وكانت الصورة التي في المرآة تضحك مثله من تلك المبارزة. كلاهما كانا مخمورين كثيراً.

كان سيلتقط البندقية عندما بدأ جرس الهاتف بالرنين، فوجئ كلاوس بالاتصال، فدار حول نفسه وانهار على الكنبة صارخاً:

ـ لا أريد التحدث معك! لقد أوضحت لك كل شيء في البطاقة البريدية! ـ لكن الهاتف لم يصمت. وكان ذلك الإلحاح يثير أعصابه، فواصل القول: ـ لقد احتفلت بعيد ميلادي! وتناولت سافاران! ـ وقد سبب له تذكر ذلك الطبق نوبة من الضحك.

توقف الضحك ورنين الهاتف في وقت واحد، وانتهز كلاوس السكون لينظر إلى المنبهات الثلاثة ويعرف الوقت. كانت الساعة الخامسة مساء إلا

بضع دقائق. وفكر وهو يبدي علامة ضجر: "أربع ساعات لموعد الطائرة". ستبدو له هذه الساعات وكأنها أبدية. وسيسوء الحال مع وجع الرأس الذي بدأ يشعر به.

ـ كم هو طويل الوقت! ـ تنهد وهو يفرك عينيه. يمكنه أن يذهب إلى المطار، ولكن ذلك سيكون تهوراً. ثم إنه لا يشعر برغبة في التحرك.

وأمره ألكسندر حين رآه يسند رأسه على أحد مسندي الأريكة:

ـ انهض فوراً يا كلاوس! ـ ثم نصحه على الفور: ـ لا تنم قبل أن تعبئ المنبهات!

بدا له اقتراح ألكسندر معقولاً. فسواء أراد أم لم يرد، سينتهي به الأمر إلى النوم؛ ومن الأفضل له أن يتخذ الاحتياطات. أجل، سينام حوالى ساعتين ثم سيذهب بعد ذلك إلى المطار. وقد بدا له ذلك على أنه التصرف الأكثر حكمة في مثل وضعه. فالخطوات الأخيرة يجب أن يخطوها بهدوء.

ودون أن يتحرك عن الأريكة، مدّ ذراعه وبدأ يدير نوابض المنبهات. ضبط المنبه الأول ليرن في الساعة السابعة إلا دقيقتين. والثاني إلا دقيقة واحدة. وضبط الثالث على الساعة السابعة تماماً. لا بد لأحد المنبهات الثلاثة من أن يوقظه، بكل تأكيد.

انبطح على طول الأريكة وهو يعرف أن النوم لن يتأخر في المجيء، وأجهد نفسه للتفكير في جزيرة السلاحف المنشودة تلك. للجزيرة شكل الحلزون، وهي ليست كبيرة. ومع ذلك ـ إذا صحت معلومات وكالة السياحة ـ لا ينقصها أي شيء على الإطلاق ويمكن لها أن تستقبل زائرين من الفئة الراقية. ففيها يوجد فندقان، وقرابة مئتي بونغالو ومئة لاندهاوس. وفيها فوق ذلك: كراجات وورشات للسيارات، ومقاهٍ ومطاعم، وثلاث صالات سينمائية كبيرة، ومرفأ صغير يغص بيخوت بيضاء. الجزيرة كلها تضج بالحياة والألوان، وأهلها يعيشون في سعادة غامرة يقضون معها اليوم كله في الغناء. وأشجار النخيل فيها ليست بالأشجار الصغيرة التافهة، وإنما هي أطول أشجار نخيل في العالم وتمتد حتى الشاطئ. أما

الشاطئ ـ وهو أكثر الأشياء روعة ـ فهو فسيح ومديد إلى حد رهيب، ويحيط بالجزيرة كالخاتم. والبحر أزرق في الصباح وزمردي في المساء، وأغلبية الأسماك الساحقة حمراء اللون.

كان كلاوس ينظر بتمعن إلى تلك الأسماك الحمراء المستسلمة للأمواج ذات اللون الزمردي، إنها تتقدم وتتراجع مع حركة الموج، حتى وكأن البحر يحتضنها في مهده لتنام.

ـ إنك محق يا سيدي. فهي أسماك جميلة جداً. إنها أجمل بكثير من أسماك المطعم.ـ قال ذلك أحد بجانبه. ففتح كلاوس عينيه ورأى أن المتكلم هو مارسيل، جرسون مطعم باريس. ومع أنه كان ما يزال يضع ربطة عنقه، إلا أنه كان يرتدي الآن مايوه سباحة أبيض منقط بالأسود.

ـ في هذه الجزيرة لا يأكلون سافاران يا مارسيل. ـ قال له ذلك، ولكن الجرسون كان قد اختفى عن الشاطئ.

ففكر وهو ينظر إلى البحر ذي اللون الزمردي: «لا بد أنه ذهب للسباحة». ولكن الأسماك الحمراء هي وحدها التي كانت تسبح هناك.

وسمع بعد قليل من يقول:

ـ انهض فوراً يا كلاوس!

وفي المكان الذي كان يقف فيه الجرسون، كان هناك الآن طفل. وكان الطفل يرتدي مايوه سباحة أصفر اللون ويبتسم له ابتسامة ازدراء.

سأله كلاوس وهو يحرف نظره عن تلك الابتسامة:

ـ ما الذي تفعله هناك خارجاً يا ألكسندر؟

وفي تلك اللحظة بالضبط بدأ يسمع صفيراً غريباً. فسأل:

ـ من الذي يصفر؟

ولكنه لم يتلق رداً.

وما كاد ينتهي من سؤاله حتى بدأ يسمع صفيراً آخر صارّاً مثل الصفير السابق. ثم تلاه بعد قليل صفير ثالث.

صرخ به ألكسندر وهو يركله في خاصرته:

ـ انهض فوراً يا كلاوس! انهض أيها الأحمق!

فأنَّ كلاوس:

ـ لماذا تضربني يا ألكسندر؟ إذا ضربتني فسألقي بك في الماء وأغرقك! مثلما فعلتُ يوم ذهبنا في الرحلة إلى نهر إلبا!

ـ إنني أكرهك يا كلاوس!

ـ لقد كنت أنت المذنب يا ألكسندر! دفعتك إلى الماء لأنك كنت تركلني! ـ قال كلاوس ذلك وهو يبكي بكاء سافراً، ثم أدار رأسه إلى الجانب الآخر. لم يكن يريد أن يسمع ما يقوله أخوه الأصغر.

وما إن أدار رأسه حتى رآها. إنها ثلاث سلاحف كبيرة جداً. وكانت تقف فوق صخرة وهي تمط رقابها وتصفر.

وفكر كلاوس: «إنها السلاحف إذن، لم أكن أتصور أن لها صوتاً كهذا». ولكنه استاء لمعرفة ذلك. فهو لم يكن يتوقع وجود أي شيء مزعج في تلك الجزيرة.

صمتت إحدى السلاحف.

وفكر: «لا شك أن الكبرى ستصمت الآن». وكان هذا ما حدث، فقد توقفت السلحفاة الكبيرة عن الصفير أيضاً. ولم يبق إلا دوي تلك التي في أعلى الصخرة.

فقال:

ـ لا بد أنها أكبرها سناً.

ثم صرخ:

ـ اخرسي أيتها العجوز!

لم تستجب له على الفور، ولكنها انتهت إلى الصمت أيضاً. تنفس كلاوس الصعداء وبحث عن أخيه الصغير على الشاطئ. ولكن الشاطئ كان مقفراً.

فقال له:

ـ لقد أحسنت صنعاً بالدخول داخلاً يا ألكسندر. أنت أفضل حين تكون في الداخل. كلما خرجت خارجاً نختلف، وهذا سيئ بين الأخوة.

كانت الشمس تهيمن على السماء في الأعـالي، وبعـد صفـير السـلاحف، بدا له هدير الأمواج لطيفاً جداً. فقـد كـان يحتضنـه بعذوبـة أكـبر فأكـبر، ويأخذه أبعد فأبعد...

مرغريت وهنريش، توأمان

فلنفترض أن هذا الذي بدأناه الآن هو قصة أو أقصوصة من حوالى عشر أو اثنتي عشرة صفحة، ولنحدد هذه الفرضية بالقول إن بطلي هذه القصة سيكونان بالضبط من ورد اسماهما في العنوان: الشقيقان التوأمان، مرغريت وهنريش، وكانا يعيشان في فترة الأحداث التي سنرويها ــ في خريف سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين ـ في مدينتين مختلفتين في ألمانيا، كل منهما بعيد عن الآخر.

لقد قلنا **كانا يعيشان**، بصيغة التثنية وبالماضي الناقص، مشيرين بهذه الصيغة إلى شقيقين وإلى خريف بكامله. ومن الواجب مع ذلك أن ننتهز هذه الفقرة الثانية لتلوين ما ذكرناه في الفقرة السابقة، ذلك أن موت أحدهما ـ موت مرغريت تحديداً ـ هو أحد المقدمات الأساسية للفرضية. ولنقل إذن أن مرغريت قد ماتت في محطة قطارات مع بداية الخريف المذكور أعلاه؛ وأنها قد اختفت بين ليلة وضحاها بصورة مفاجئة، مثل واحد من تلك الطيور البحرية التي ما إن تشعر بأنها مصابة بجروح قاتلة، حتى تغادر الفضاء وتغطس في البحر إلى الأبد.

ولكن الموت، بما في ذلك ميتة مثل هذه الميتة التي بين يدينا الآن، لا يمكن له أن يبقى سرياً؛ وهو يحتاج لكي يكتمل، إلى أحد يؤكده وينشره. فلنضف إذن بعض التفاصيل إلى ما عرضناه: هناك أولاً التفاصيل المتعلقة برسالة بعث بها قاض من بافاريا إلى هنريش؛ ولدينا بعد ذلك التفاصيل المتعلقة بالظروف التي أحاطت بقراءة الرسالة المذكورة. وسنفعل ذلك

بالطرق الكلامية التي تبدو أكثر راحة في الاستخدام، حتى ولو كانت غير مناسبة للأسلوب الافتراضي.

تقول رسالة قاضي بافاريا:

«الواجب يفرض عليّ أن أطلعك على أن شقيقتك مرغريت ويتزل قد توفيت في الساعة صفر وخمس عشرة دقيقة من يوم 22 أيلول. يبدو أنها سقطت تحت عجلات قطار كان يدخل المحطة في تلك اللحظة بالضبط. سنكتب إليك ثانية فور الانتهاء من التحقيقات. لسنا نستبعد احتمال أن يكون موتها اغتيالاً.»

الظروف التي أحاطت بقراءة الرسالة:

في البداية ميناء هامبورغ، حيث كان يعمل هنريش في قيادة إحدى رافعات الرصيف رقم ثمانية؛ وبتحديد أدق، في كابينة تلك الرافعة المصنوعة من زجاج غير قابل للكسر، حيث كان يطل منها، ودون أي جهد، على كامل سطح السفينة التي يحمّلها. ثم نشير إلى الوقت: مساء ماطر، وهو مساء يوم الثاني من تشرين الأول. وهناك كذلك تفصيل آخر هو النسيان، ذلك أن هنريش ـ الذي لم يول اهتماماً لرسالة بدت له رسمية ـ لم يتذكر قراءتها إلا بعد عدة أيام من الاحتفاظ بها في جيب افرهول عمله.

وبوصولنا إلى هذه النقطة، يتوجب على القارئ أن يعطي الإذن ـ هكذا يقول كتبة الأغاني ـ لكي ينسى الكاتب تماماً الفرضية التي انطلقنا منها. لأننا إذا لم نفعل ذلك، فلن نتمكن من تفادي اللجوء إلى استخدام صيغ ـ مثل التي استخدمناها حتى الآن ـ لا تفيد في شيء سوى عرقلة انسيابية القصة. فلنواصل الحكاية إذن وكأنها قد جرت فعلاً.

ما إن قرأ هنريش الرسالة حتى دفع رأسه إلى الوراء إلى أن لامس الصفيحة الفولاذية في الجزء الخلفي من كابينة الرافعة، وأحس بقلبه يضطرب ويبدأ بضخ الدم بصورة جنونية، وكأنه يريد أن ينشر في كل أنحاء جسده الصدمة التي أحس بها حين قرأ سطور القاضي. وسرعان ما أصبح الألم في ركبتيه، وفي رئتيه، وفي أمعائه.

بقي مستنفداً وغائباً عن العالم المحيط به ؛ ساهياً عن المطـر الـذي كـان يهطل لحظتئذ بغزارة؛ وغير منتبه كذلك عن الصرخات التي كـان يطلقهـا العمال الآخرون من الرصيف. بعد ذلـك ، حـين خـرج أخـيراً مـن شـروده، سمع صرخة نورس، وبدأ يتابع بصورة غريزية طيران الطـائر بنظـره. نـزل النورس من بين الغيوم وحط على مقدمة السفينة التي كان يحمّلها. وعندئـذ قرأ اسمها : *Three sisters* (الأخوات الثلاث).

أضاعت عينا هنريش كل المشهد من رؤيتهما وتركزتا بذهول علـى تلك الحروف الاثني عشر التي تؤلف اسم السفينة. وخطر له :

ـ أنا لم تكن لي سوى أخت واحدة.

الوخزة التي أحس بها مـن سـخرية الحيـاة تلـك انتزعتـه مـن وجومـه تماماً ، وأعادته إلى الدنيا.

نزل ببصره باتجاه الرصيف. كـان زمـلاؤه يشـيرون إليـه بـأن الشـحنة مثبتة وجاهزة، مومئين له بغضب. ما الذي ينتظره ليرفع الشحنة؟ ألا يرى أنهم مبللون؟ مسح زجاج الكبينة وفعل ما كانوا يطلبونه منه دون أن يوليهم أي اهتمام، ببرود مطلق. ثم نزل فور ذلك على سلم الرافعـة واقـترب منهـم ليخبرهم بصوت مختنق :

ـ يجب أن أذهب. ـ ثم أضاف : ـ أظن أنني مريض.

ولكن الرجال العشرة الذين على الرصيف كانوا قد لحظوا الرسـالة الـتي يبرز طرفها من جيب بنطاله ، ولم يصدقوه.

ـ لا تقلـق يـا هـنريش. جميـع النسـاء متشـابهات. سـتجد لـك واحـدة أخرى. ـ قال ذلك رئيس جماعة العمال بنـبرة سـاخرة، وانفجـر الآخـرون كلهم بالضحك.

فتلك الكلمات التي بدت مواسية في الظاهر، لم تكـن نتيجـة سـوء فهـم وحسب ، وإنما كذلك ـ وهو الأهم ـ غمزة من ضعف رجولة هنريش. فعمـال المرفأ كانوا يزدرون ذلـك الشـاب الرصـين ذا الأسـلوب الرقيـق الـذي يديـر الرافعة هناك في الأعلى، فوقهم جميعاً. لم يكن بالشخص المناسب للعمل في

ميناء. فالعمل في الميناء يحتاج إلى رجال حقيقيين، رجال ممن ينفقون بعد ذلك كل أجرهم في مواخير سانت باولي.

غادر الرصيف دون أن يرد على الاستفزاز، وبعد أن بدل ملابسه اجتاز ممراً حديدياً وخرج إلى الطريق العام. لم يكن يفكر في أي شيء. وكان يكفيه أن يتبنى لنفسه صرخات النوارس التي تحلق فوقه.

كان هنريش قد أمضى أكثر من ثلاث سنوات في العمل في ميناء هامبورغ، إنما لم يكن لديه ـ سواء بين أناس الميناء، أو أناس حيه ـ أي صديق. لم يكن يحتاج إلى أصدقاء في الواقع، لأن الوحدة التي ظهرت في حياته منذ وصوله إلى هناك، لم تبد له عبئاً، وإنما راحة وحرية، ولأن مراسلاته مع أخته كانت تخفف من مشقة أسوأ اللحظات.

ولكنه بينما كان ينتظر الحافلة في ذلك اليوم، تحسر لأنه وصل إلى ذلك الوضع، وجال في تعرجات ذاكرته باحثاً عن اسمٍ، عن وجهٍ؛ مسلماً قياد نفسه للتخيل، رأى نفسه هكذا بالضبط في صالة بيت صديق، أمامه فنجان قهوة وهو يتحدث عن مرغريت، يروي له أنها لم تكن أخته الوحيدة وحسب، بل كانت كذلك كل أسرته منذ بقيا يتيمين، وأنها كانت فتاة في الرابعة والعشرين، ذات شعر أشقر، ولها طباع مختلفة تماماً عن طباعه، فهي مرحة الطبع، لقد كانت مرحة جداً، تحب الحفلات، أتعرف؟ لقد كانت ضعيفة حقاً حيال المعاطف المطرية، وكذلك حيال المظلات، لا يمكنك أن تتصور مدى تأنقها في الملبس، وفي أحد الأيام، عندما كنا نعيش في نوع من البحبوحة، ذهبنا لقضاء خمسة عشر يوماً في قرية على الشاطئ الفرنسي، وقد قالت لي، أجل يا هنريش، إنها قرية جميلة، ولكن المكان الذي لا يعرف المطر يبدو مبتذلاً على الدوام، ثم تناقشنا بعد ذلك حول عادات النوارس... ورأى هنريش النوارس من نافذة الحافلة، ورأى كيف كانت ترسم دوائر فوق المراسي، وكأنها تبحث عن غذاء ما بين الأخشاب المتعفنة وخردة الحديد. ولكنها كانت نوارس أخرى. ولم يكن هناك أي اسم في ذاكرته. ولم يكن هناك أي صديق.

نزل من الحافلة وركض نحو بيته. كان بحاجة إلى الاختباء، إلى الهرب من الناس الذين كانوا يحتمون من المطر في ذلك المساء بالازدحام قبالة واجهات المتاجر أو عند مداخل صالات السينما. جميعهم، ودون استثناء، كانوا يبدون له حمقى وبغيضين: حمقى لأنهم لا يعلمون بخبر موت مرغريت؛ وبغيضين بسبب عدم المبالاة التي يراها في وجوههم، لأنه كان يدرك أن أياً منهم لم يكن مستعداً لمشاطرته محنته.

أمضى هنريش أكثر من ساعة وهو منبطح على السرير. وعندما استكان قليلاً بعد ذلك، قلّب الأدراج وجمع منها كل الأشياء التي يمكن لها أن تخبره شيئاً عن أخته: الصور، علبة فيها خصلة من شعرها، دفتر *التخيلات* الذي أهدته إليه في رحلتهما إلى الشاطئ الفرنسي. وبعد أن رتب كل تلك الأشياء على الطاولة، تحولت إلى مذبح.

ـ كيف لم تَرِ القطار يا مرغريت؟ سأل وهو يجلس أمام الطاولة. وتواصلت الطقوس التي بدأت بذلك السؤال حتى الفجر.

ولكن المذبح الصغير لم يوفر له العزاء. بل على العكس، فقد جعله يشعر بالفراغ الذي في داخله يكبر أكثر فأكثر. الأشياء المعروضة أمامه رفضت التحدث عن الأزمنة الطيبة للأخوين "ويتزل"؛ وكانت تتكلم، بل تصرخ، عن غياب مرغريت وحسب.

كان يفكر في وقف تلك الطقوس عندما انتبه إلى أن هناك شيئاً غائباً بين الأشياء التي على الطاولة. وربما كان شيئاً أساسياً: فستان مرغريت الذي نسيته هناك في زيارتها الأخيرة. إنه يحتفظ به في خزانة حجرته. فقرر:

ـ سألبسه.

ألم يكونا شقيقين توأمين؟ ألم يكن التمييز بينهما شبه مستحيل لزمن طويل؟ لماذا إذن اللجوء إلى بعض الأشياء في حين هناك جزء كبير من مرغريت فيه هو بالذات؟

وبينما هو يتقدم في الممر لم يكن يفكر في أن ما سيقدم عليه سيغير حياته بالكامل. فقد كان غرضه الوحيد هو إنقاذ أخته من الموت،

ولكـن للحظـة فقـط، إلى أن ينهـي طقوسـه. وبعـد ذلـك يعــود إلى حياتــه المعتادة.

ولكن التحول تحقق فور ملامسة الفستان لبشرته، مثل جنيات المحبـة في حكايات الأطفال اللواتي يحولن في الحال، وبمجرد لمسـة عصـا، كوخـاً قبيحاً إلى قصر منيف. ففي تلك اللحظة بالضبط، أدرك هـنريش كـل شـيء أخيراً حين نظر إلى نفسه في المرآة ورأى امرأة تشبه مرغريت شـبهاً كبـيراً. وفجأة اكتسبت كل أحداث حياته مغزى، وكذلـك الضيـق الـذي رافقـه في مسقط رأسه والوحدة التي عاناها فيما بعد. بل وجد تفسيراً للكراهيــة الـتي يشعر بها الآن تجاه أجواء الميناء.

أحس هنريش بفخر لم يشعر بمثله من قبـل. لقـد عـاش لسـنوات مثـل ذلك الطفل التائه في الغابة وجسده مغطى بخدوش، يصرخ دون أن يسـمعه أحد. أما الآن فلم يعد هناك مزيد من الخدوش، ولا مزيد من الصـراخ. لقـد وجد الدرب الذي سيُخرجه من الغابة، وها هو يرى نهايتها، وها هو يرى المشهد المفتوح واللطيف الذي ينتظره.

دمدم:

ـ منذ الآن فصاعداً سنكون الشخص نفسه يا مرغريت.

لقـد كـانت بكـل تـأكيد مجـرد كلمـات صـادرة عـن خلفيـة مــن الأرق والتعب، ولكنها كانت تعكس على الرغم من ذلك ما يشعر به هنريش. فهو سيكون امرأة منذ ذلك اليوم. وأضاف:

ـ لن أنساك مطلقاً يا أختي الحبيبة.

فمهر بهذا الوعد قراره السابق.

جلـس ثانيـة إلى الطاولـة، وحـرر ملاحظتـين. في الملاحظـة الأولى الـتي وقعها باسم مرغريت، أخبر مدير الميناء بموت هنريش ويتزل؛ ورجـاه بـأن يرسل إليها تصفية حسابات أخيها. والملاحظـة الثانيـة كـانت عبـارة عـن قائمة بكل الأشياء، بدءاً من قلـم أحمـر الشـفاه، الـتي سيشـتريها في اليـوم التالي.

وقبل أن ينام توقف قبالة النافذة. كانت المدينة ما تزال هاجعة، ولكن مؤشرات الفجر كانت ظاهرة بجلاء؛ أشعة تحصد الغيوم، وانعكاس الشمس الأصفر على أعلى المباني. بعد قليل ستبدأ المنبهات بالرنين في غرف النوم في كل البيوت. وبعد ذلك سيخرج الجميع - رجالاً ونساء، شيوخاً وشباباً - إلى الشوارع.

أطلق زفرة عميقة. إنه يرغب للمرة الأولى في حياته في أن يختلط بالناس.

كانت السعادة التي أدخلها إلى حياته ذلك التغيير كبيرة، حتى أنه لم يخطر له أي ظل من الشك. كان واثقاً من المستقبل، أو بكلمة أدق، كان يتصوره مشرقاً. لقد كان مقتنعاً من أن روح مرغريت هي دليله، وأن هذا الدليل - مثل جنية محبة - سيقوده دوماً إلى أماكن رائعة، إلى بيوت مرحبة، حيث يلتقي أصدقاء بشوشين.

ويبدو أن ذلك المستقبل الذي يثق به كان جاهزاً لتعزيز رؤيته، وأنه يرغب في أن يقدم له كل ما كان يتصوره: فقد خرج في أحد الأيام ليتمشى في شوارع المدينة وانتهى به المطاف بطريقة ما في منزل فخم الصالونات، حيث رقص في حفلة؛ وفي يوم آخر ذهب إلى مشرب ثم دعي لقضاء نهاية الأسبوع في بيت ريفي؛ ثم تلقى في يوم تال رسالة ودودة.

مفكرته التي كانت خاوية من قبل، بدأت تمتلئ يوماً بعد يوم بالأسماء وأرقام الهواتف. وقبل مرور شهر واحد على ارتدائه فستان أخته، تم قبوله في **اتروبوس**، وهو أحد أفضل الأندية الخاصة في منطقة سانت باولي. وكان يصعد في بعض الأحيان إلى المنصة ويغني.

وفي أحد الأيام، بينما كان في **اتروبوس**، عرّفوه على والتر، وهو أستاذ في الأربعين. طويل القامة، وأسود الشعر والعينين. وكان يضع منديلاً من الحرير الأحمر حول عنقه.

سأله والتر:

ـ أتحبين تناول القليل من الشمبانيا معي؟

ورد هنريش:

ـ بكل سعادة، مع أنني لست معتادة على عمل ذلك.

ـ إنني سعيد بالتعرف عليك سعادة لم أشعر بمثلها منذ زمن بعيد. وأقول لك هذا بكل صراحة.

وابتسمت له هاتيك العينان السوداوان.

أمضى هنريش يومين دون أن يتمكن من إزاحة تلك الابتسامة من تفكيره. وفي اليوم الثالث اتصل به والتر هاتفياً. وبينما هما يتنزهان في حديقة في اليوم الرابع، قررا بدء علاقة مستقرة.

كانت تلك هي أسعد فترة في حياة هنريش كلها. كان والتر هو حبه الأول، وربما بسبب ذلك كان حباً بلا ساعات، مقصوراً عليه، يمتص كامل كيانه. فلم يكن هناك من وجود لأي شيء خارج هاتيك العينين السوداوين.

وفي أحد الأيام سأله والتر بعد أن أهدى إليه الكتاب الذي نشره للتو في الجامعة. وكانا يتناولان العشاء في مطعم إنكلترا مع شمبانيا فرنسية:

ـ كيف هي حياتك؟

ـ جيدة جداً مذ تعرفت عليك.

ـ أجل، جيدة جداً؛ ولكن ماذا سوى ذلك، كيف تعيشين؟

وأصاب هنريش عندما رد:

ـ كما في رواية.

فضحك والتر وهو يشير إلى كتابه:

ـ لحسن الحظ! فالروايات ألطف من الدراسات.

ولكن هنريش كان مخطئاً. فحياته أبعد كثيراً من أن تكون رواية طويلة النفس، مؤلفة من خمسة عشر أو عشرين أو أربعين فصلاً. والأصح أنها كانت أقرب إلى قصة قصيرة تتسارع نحو حل عقدتها. وربما بسبب ذنب جناه هو نفسه، لأنه في غرقه الكامل بالعلاقة الغرامية، نسي تماماً أخته الوحيدة مرغريت، فاستحق لذلك ــ وفق القانون الفولاذي الذي تطبقه حكايات الجنيات على الشخصيات التي لا تنجز عهداً قطعته على نفسها ـ عقوبة نموذجية من جانب القدر.

الغمامة، تلك الغمامة التي كانت تلفه والتي كانت تستند إليها حياته، بدأت تتلاشى في إحدى الليالي بعد عرض مسرحي ذهب لمشاهدته مع والتر. ففي الشوارع الصامتة، كانا هما أيضاً يمشيان بصمت في طريقهما إلى البيت عندما اجتاز المدينة كلها صفير طويل.

ـ إنه القطار. قال والتر ذلك، وواصل المشي.

ولكن هنريش بقي مسمراً على الرصيف، وهزت قشعريرة جسده بالكامل. لم يكن ذلك الصفير النفاذ إلا إشارة، رسالة ذات مغزى تافه؛ ولكنه بالنسبة إليه كان غناء، كان موسيقى قاتمة وقاهرة.

سأله والتر وهو يدنو منه:

ـ لماذا توقفت؟

فرد عليه بصوت ضعيف:

ـ أريد سماعه مرة ثانية.

ارتعب والتر. وأمسك رأسه بكلتا يديه:

ـ ماذا أصابك؟ لماذا تبكين؟

ـ لا شيء. لقد تذكرت شيئاً حزيناً فجأة. ـ قال ذلك وهو يدفن وجهه في صدر صديقه.

بعد ذلك، وما أن استعاد هنريش اتزانه، حتى ربط ما جرى بالظروف التي أحاطت بموت أخته. ثم أضاف قائلاً:

ـ لهذا السبب كان تأثري شديداً. لقد ذكّرني الصفير بأختي. لم أعد أفكر فيها منذ وقت طويل. ولكن هذا لن يحدث ثانية.

ولكن تلك الطريقة المتعقلة جداً في تفسير الأحداث ـــ وقد وافق عليها والتر نفسه، وروى له عدة حالات مشابهة ـــ لم تكن مؤكدة. لأن هنريش سرعان ما اعتاد على التجول عبر المدينة طوال الليل مثل مسرنم، دون أي هدف آخر سوى سماع صفير القطار المتتالي. وكان ينجز ذلك الطقس كل يوم دون أن يهتم بأي شيء أو أي شخص يكون عليه أن يتركة ليقوم

بجولته. فهو لم يعد يستطيع مقاومة جاذبية ذلك الصفير، وصار يغادر دائماً، سواء أكان يحضر حفلة أو كان في بيت والتر.

لم يعد بريق السعادة نفسه يلمع في حياة هنريش مثلما كان في أيام التبدل الأولى. وتحول إلى شخص صامت ومكفهر.

وقد اعترف يوماً حين جاء والتر لزيارته، بعد أن توقف عن التردد على النادي:

ـ أجل. إنني أمر بفترة سيئة جداً.

ـ وماذا عن بيتي؟ أنت لا تأتين حتى إلى بيتي. ألا تستطيعين رؤيتي كذلك؟

ـ سأذهب، ولكن فيما بعد، عندما أخرج من هذا الوضع.

فقال والتر وهو يخفض بصره:

ـ هل تعرّفتِ على أحد سواي؟

ـ لا، ليس الأمر على هذا النحو. ولكنني بحاجة لأن أكون وحيدة.

بكى والتر، ولكن دون جدوى. فقد كان قرار هنريش صارماً.

جاء الشتاء، وصارت المدينة أكثر كآبة. وكان يبدو مع حلول الظلام أن سكارى المحطة هم الأحياء الوحيدون فيها. وكان بعضهم، معظمهم، يشربون ويضجون على الأرصفة؛ ويحاول بعضهم أن يجتذب المرأة الوحيدة التي اعتادت الذهاب إلى هناك. فكانوا يقولون لها:

ـ لا تبقي هناك تنظرين إلى عجلات القطارات. انظري إلينا نحن.

ولكن هنريش لم يكن يسمع ما يقولونه. كان ينتظر وصول القطارات وصفيرها موسوساً وهو يقترب منها أكثر في كل مرة. وكانت كل حياته تتركز على ذلك.

وقبل أعياد الميلاد بوقت قصير تلقى رسالة رسمية، يخبره فيها قاضي بافاريا بانتفاء إمكانية القتل في قضية موت مرغريت. ويؤكد له:

«وبالتالي، علينا أن نعتبر موتها انتحاراً».

مزق هنريش الرسالة وألقى بها في سلة المهملات. فهو لم يكن بحاجة إلى ذلك التأكيد. ثم مشى بعد ذلك، وربما للمرة الأخيرة، باتجاه المحطة.

أنا جان بابتيست هارغوس

أنا، جان بابتيست هارغوس، الجندي مذ بلغت الثالثة عشرة من عمري تقريباً، تركت مدينتي نانسي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الأول في السنة السابعة والستين وثمانمئة بعد تجسد سيدنا، وانطلقت للقتال ضد جيوش النورمانديين تحت راية اللورين التي كانت زرقاء وبيضاء، كان النورمانديون قد نهبوا مدينتي بلوا وأورليان، وكانتا مدينتين شقيقتين جداً لمدينتنا، فما كان من الكونت لوتاريو، سيد المملكة وسيد حياتنا، والرجل قليل الصبر، إلا أن صمم على عدم البقاء وراء الأسوار. فانطلقنا، مثلما قلت، في اليوم الخامس عشر من كانون الأول، بألفي رجل وسبعمئة حصان.

وسرعان ما بدا أن ربنا لم يشأ أن يلهمِ الكونت، أو أن الكونت لم يشأ أن يسمعه، ذلك أن الشتاء كان بارداً جداً، وكانت الأمطار تملأ الدروب بالمياه، والثلوج تغطي أسطح البيوت وقمم الأشجار، وكانت الرياح تهب جليدية. ومع أننا كنا نبتهل أن تطلع الشمس من جديد وأن تصفو السماء وتحلو فوق رؤوسنا، إلا أن الشتاء لم يكن يستريح وكان يزداد تجهماً وجفاءً نحونا.

بعد قرابة عشرة أيام، وعندما أصبحنا بعيدين جداً عن تخوم موطننا الحبيب في اللورين، وبعد أن فقدنا في الطريق نحو أربعين رجلاً وأكثر من عشرين حصاناً بفعل المرض أو سوء الطالع، سمعنا أول الأخبار عن أعدائنا النورمانديين من أفواه المسافرين الذين كانوا يقولون لنا:

ـ إنهم جبابرة وقساة. سيقضون عليكم مثلما تقضي الكلاب على غزال، ثم سيحرقون بعد ذلك رايتكم.

ولأننا كنا متعبين وفي أرض غريبة، فقد راحت حماستنا تخمد، وخصوصاً حماسة الجنود الأصغر سناً، وصرنا جميعنا نرغب في العودة على أعقابنا. ولكن الكونت لوتاريو كان يجهل رغباتنا أو أنه كان يعرفها ولا يريد تلبيتها، فيأمرنا بمواصلة التقدم والسير حتى الوصول إلى ميدان المعركة، وكان يقول ذلك ضاحكاً وكأنه واثق من النصر ويرى دماء جنود نورمانديا الحمراء فوق الثلج. ولكن ما كان يراه لم يكن يراه أحد سواه، وكلما كنا نتقدم على الطريق، كان يزداد الخلل الذي تُحدثه سمعة الأعداء في نفوسنا. فحيثما كنا نمر تطل النساء من النوافذ ويطلبن منا متأوهات أن نبدأ التراجع، وتنزل بعضهن من بيوتهن ويقتربن من القادة ليتوسلن إليهم ألا يقتادوا إلى الموت المؤكد كل هؤلاء الجنود الشباب. وعندما كنا نتوقف للراحة في أحد الأديرة، كان الرهبان يتطلعون إلينا وكأننا خراف تمضي إلى المسلخ، ويصلون من أجل أرواحنا وكأننا قد متنا بالفعل.

ولكن الرب مولانا لا يفلتنا أبداً من يده، وحتى في أسوأ النكبات يعرف كيف يوفر لنا قسطاً من السعادة، وكان هذا هو ما فعله معي كذلك برفقه العظيم في ذلك الشتاء. فقد منحني صديقاً طيباً ومخلصاً اسمه: بيير دو بروك.

رأيته أول مرة في نُزل دير سان دينيس في ليلة لم أجد فيها إلى النوم سبيلاً. كان بيير وحيداً في القاعة الخاوية، وكان يعزف على الرباب ويغني بجانب النار المطفأة، كان يجود في هذين الفنين إلى حد يبعث على الأسى أنه لم يكن هناك من يستمع إليه بسبب إرهاق الرجال وشدة البرد.

سألته:

ـ لماذا تغني؟ لماذا لا تنام مثل بقية الجنود الآخرين؟

فرد علي:

ـ لأنني خائف.

واعترفت له بدوري:

ـ وأنا خائف أيضاً. ولا أستطيع النوم.

ـ فلنغن معاً إذن.

ـ إننا خائفان لأننا فتيّان، وليس لأننا جبانان.

ـ كم سنة عمرك؟

ـ أظن أن عمري سبع عشرة سنة.

تعانقنا في تلك القاعة الخاوية ثم وجدنا عزاء كبيراً في أغنيات موطننا الحبيب اللورين.

هناك أصدقاء هم أصدقاء للحظة واحدة، وأصدقاء هم رفاق مائدة، وأصدقاء لا يظهرون إلى جانبنا إلا في أيام الازدهار والسعادة. أما بيير دي بروك وأنا، جان بابتيست هارغوس، فلم نكن من هذا النوع من الأصدقاء، بل أصبحنا منذ ذلك الحين أخوين ورفيقي طريق وبؤس وإنهاك، كنا نتبادل السلوى والتشجيع ولا يريد أحدنا أن يفارق الآخر.

بعد أربعين يوماً على خروجنا من نانسي، حين كان الشتاء في أوجه وكانت الحقول مغطاة بالثلج، وصلنا إلى قرية تدعى أومونت، وصادفنا يهودياً هارباً من أورليان تكلم إلى أحد القادة وأعلمه أن الجيش النورماندي على بعد أقل من خمسة عشر فرسخاً، وأنه على الرغم من سوء الحالة الجوية فإنه يمكن لرجل على جواد أن يصل إليه في مساء واحد.

عندئذ أمر الكونت لوتاريو بنصب المخيم وبعث متقدماً ليرصد النورمانديين. كان الكونت يريد أن يعرف عدد رجال جيشهم، وعدد خيولهم، ومدى ثقتهم بقواتهم. انطلق المتقدم باندفاع مثيراً زوبعة بيضاء من الثلج بحوافر جواده، وجلست أنا وبيير في الخيمة نعزف على الرباب ونغني.

ولكن مر يوم، ومر يومان، ومرت ثلاثة أيام والمتقدم لم يرجع، وبعد انقضاء أسبوع اعتبرناه جميعنا ميتاً. وحدث حينئذ أن كبير الطباخين لم يصدق ما سمعه، وقال إن احتمال هربه أكبر من احتمال موته، ووجه تهمة الخيانة والجبن إلى ذلك المتقدم الذي كان الكونت قد اختاره من بين أفضل الرجال، وكان هذا هو السبب الذي دفع أحد القادة، وهو صديق لذلك

المتقدم، إلى قتل كبير الطهاة بسيفه. احتج جميع الجنود القدماء على تلك العقوبة القاسية، وقد أثبت مرور الوقت أنهم كانوا على حق في ذلك، لأننا منذ ذلك اليوم أصبحنا نأكل بصورة أسوأ بكثير من السابق.

المتقدم الثاني الذي أرسله الكونت رجع بعد يومين من ذهابه. أنا لم أره بأم عيني، ولم يره بيير كذلك، ولكن من رأوه قالوا إنه دخل المعسكر وهو يحمل كل علائم المرض والموت، وإنه كان شاحباً وزائغ البصر، يحوم الذباب فيما حول رأسه، وكان ذلك معجزة في شتاء قارس مثل ذلك الشتاء. ولم ينفع ذلك المتقدم الثاني الكونت في أي شيء، فقد كان يتكلم كلاماً بلا معنى، مثلما يفعل من تتملكهم الحمى. وعندئذ جمعنا الكونت كلنا وطلب ثلاثة متطوعين قائلاً إنه سيمنحهم الكثير من المنافع وسينعم عليهم إذا ما توصلوا إلى معرفة شيء عن الجيش النورماندي.

أبدى الضابط الذي قتل كبير الطهاة وجنديان آخران استعدادهم للذهاب وانطلقوا من فورهم. ولكن ذلك لم يعزز معنوياتنا، فقد حدثت الانشقاقات الأولى في ذلك اليوم بالذات، وفور انطلاق المتقدمين الثلاثة، وقد قال البعض إن عشرين رجلاً هو عدد من انشقوا، بينما قال آخرون إن العدد أكبر من ذلك بكثير، وإن مئة حصان على الأقل قد اختفت من الحظائر.

تأخر الضابط والجنديان في العودة، ومر حوالى عشرة أيام قبل أن نراهم قادمين عند تخوم الغابة، وقد استغربنا جميعنا حين رأيناهم يأتون ضاحكين، يتبادلون النكات، ويلعبون فيما بينهم مثلما يفعل الأطفال.

وهمس بيير في أذني:

ـ لقد أصيبوا بالجنون يا جان بابتيست.

فسألته:

ـ ولكن، ما الذي يراه المتقدمون حين يذهبون؟

ـ إنهم يرون النورمانديين يا جان بابتيست.

ـ لا بد إذن من أن يكون صحيحاً ما قالته لنا نساء اومونت.

كانت نساء اومونت قد قلن لنا إنه لدى النورمانديين حيوانات متوحشة محبوسة في أقفاص ومدجنة مثل الكلاب، وإن من يراها مرة واحدة لا يمكنه أن ينساها مطلقاً، لأنها مثل الأبقار، ولكن بقوائم خيول ورؤوس ذئاب، وإننا إذا دخلنا في معركة فسوف نموت افتراساً على يد تلك المسوخ.

تنهد بيير:

ـ فليرأف الرب بنا يا جان بابتيست.

وحين مضينا إلى الخيمة للعزف على الرباب، تقدم منا جندي قديم أعرج كان يلحق بنا دائماً، وكان مغتاظاً لأننا لم نحب مرافقته مطلقاً، ورمى نحونا عصفوراً مثلما يرمي حجراً، وقد لمس العصفور صدر كلينا، أولاً صدر بيير ثم صدري. كان جناحا العصفور أصفرين وكان ميتاً من البرد وعيناه مغمضتان تماماً، وقد بدت لنا ملامسته لنا فأل شؤم كبير.

اعتصم الكونت لوتاريو بخيمته ليفكر، وابتهل جميع الجنود إلى الرب مولانا أن يريه بأنه لم يعد هناك من سبيل سوى التراجع، وأن الوقت قد حان لكي يعود أبناء اللورين إلى أرضهم الحبيبة. ولكن الكونت لم يكن يفكر في الانسحاب، وإنما كان يبحث عن متقدم آخر. وهكذا وقع اختياره على غيلليرم، وهو ابن زنا صغير من قرية اومونت كان دائم التجول في أنحاء المعسكر، وقد فكر الكونت بأن النورمانديين لن يرتابوا بطفل في التاسعة من عمره. وتقبل غيلليرم الأمر بسعادة كبيرة، لأنه كان يرغب في أن يكون جندياً، ولأن الكونت وعده بخنجر فضي مقابل الأنباء التي لم يتمكن أي من المتقدمين السابقين من الحصول عليها.

ذهب ضاحكاً ودون أي إحساس بالخوف بعد أن استمتع بالحفلة التي شاء بعض الجنود إقامتها على شرفه. وقد شاركنا أنا وبيير كذلك في الحفلة، لأننا رأينا أن مصيرنا رهن يديه. وطلبنا من الرب مولانا أن يقود خطى ذلك الطفل، وأن يمكنه من رؤية الأقفاص التي يحتفظ فيها النورمانديون بالأبقار التي لها رؤوس ذئاب وقوائم خيول. فمن المؤكد أنه لم

يكن هناك جندي واحد يرغب في القتال ضد تلك المسوخ، وهكذا يكون على الكونت أن يتراجع ويعطي الأمر بالانسحاب.

وفي أثناء ذلك كان الشتاء يطول، وكان الكثير من الجنود يقعون مرضى. وكان آخرون يسرقون أحصنة ويهربون.

رجع غيلليرم بعد حوالى خمسة عشر يوماً، وقد رجع سعيداً مثلما كان في يوم ذهابه. وعندما توجه نحو خيمة سيدنا لوتاريو سار وراءه كل جنود المعسكر.

وقلت لبيير:

ـ الآن سنحصل حقاً على معلومات عن النورمانديين.

ولكن عندما صعد غيلليرم على عربة وبدأ يروي صارخاً ما شاهده في معسكر العدو، تبادلنا جميعنا النظرات بذهول كبير، لأننا لم نفهم شيئاً مما كان يقوله. لم يكن يتكلم بلغتنا، ولا باللاتينية كذلك. وعندما بدأ سيدنا لوتاريو بتوجيه الأسئلة إليه، وقف الطفل مدهوشاً مثلنا. فهو لم يكن يفهم كذلك الأسئلة التي تُوجّه إليه.

قال لي بيير بأسى:

ـ هل تعرف اللغة التي يتكلم بها يا جان بابتيست؟

ـ لا، لا أعرفها.

ـ إنه يتكلم بالنورماندية. لقد نسي لغته وتعلم لغتهم، كل ذلك في خمسة عشر يوماً وحسب. إنهم أقوى مما كنا نفكر بكثير يا جان بابتيست. لابد أنهم جيش من عشرين ألف رجل.

ـ ولكن الأطفال يكونون متيقظين عادة يا جان بابتيست. ولديهم القدرة على تعلم كلمات جديدة بسهولة.

ولكننا لم نستطع مواصلة الحديث، فقد انطلقت صرخة وسط الهمس الذي تلا كلمات غيللرم، ثم تبعتها صرخة أخرى، وبعدها صرخة أخرى، وسرعان ما كان ألف جندي من جنود اللورين يصرخون، وكان هناك أيضاً ألف جندي يركضون باتجاه الخيول متدافعين ومتضاربين، لأنه لم تكن هناك خيول تكفي للجميع.

قلت لصديقي:

ـ فلنهرب نحن أيضاً يا بيير.

فهتف قبل أن ينطلق راكضاً:

ـ الرباب! لقد تركت الرباب في الخيمة يا جان بابتيست!

صرخت به:

ـ بيير!

أردت أن أقول له أن ينسى الرباب، وألا يدخل وسط الجيش الذي سيطر عليه الجنون. وعندئذ انزلق أمام عيني على الوحل وسقط تحت حوافر حصان. ثم مرت فوقه ثلاثة جياد أخرى، وبضع عشرات من الجنود.

صرخت ثانية:

ـ بيير!

ولكنه كان قد مات.

انفجرت بالبكاء، ولم تعد بي رغبة في التحرك من مكاني، ولم تكن بي رغبة كذلك في منع الجندي الأعرج الذي كان يتبعنا دائماً من الوصول إلي وإلقائي في الوحل. لأنني أنا جان بابتيست هارغوس كنت أريد الموت مثل صديقي بيير دو بروك، مهشم الرأس تحت حوافر حصان.

منهج في الانتحال

اسمحوا لي يا أصدقائي أن أبدأ هذا العرض بقصة حلم، ولا تقلقوا إذا ما أرجأت، بعد إذنكم، الحديث عن اعتباراتي المتعلقة بممارسة الانتحال؛ لأن ما سأرويه لن يكون استطراداً غير مجد، بل سيكون مفيداً في إغناء الموضوع، وسيكون ـ مثلما آمل أنا على الأقل ـ ممتعاً للجميع. واعلموا فضلاً عن ذلك، أن هذا الحلم بالذات كان الأساس في التبدل الذي طرأ عليّ؛ وإليه يعود الفضل في أنني أتقبل اليوم آراءً واتجاهاتٍ كنت أزدريها وأرفضها إلى ما قبل وقت قريب. فقد كنت من قبل، مثلما تعرفون جميعكم، معادياً حازما للانتحال.

حدث أن جاءني في إحدى الليالي حلم مزعج، رأيت نفسي فيه وسط غابة متشابكة وكثيفة وموحشة. ولأن الغابة كانت غارقة في ظلام دامس، وكانت تجوب أنحاءها ضوار من كل الأنواع، فقد فكرت في أن حياتي ستنتهي هناك، وارتعبت رعباً لا يوصف.

ولكنني مع ذلك لم استسلم لليأس، وحاولت البحث عن مخرج، وبعد أن اجتزت مسافة طويلة بين الآجام المتشابكة، وصلت إلى نتوء صخري حيث ينتهي الوادي المغطى بالأحراش. والحقيقة أن جهدي لم يكن دون طائل، لأنني لمحت في القمة التي يؤدي إليها ذلك النتوء الصخري علامات واضحة تشير إلى وجود النجم الذي يمنحنا الضوء والدفء، فاستعدت الطمأنينة بذلك. كان قلبي يحدثني بأنني إذا ما استطعت الوصول إلى ذلك المكان المضيء فإنني سأنجو.

انقدت إلى هذا الأمل، وبدأت الصعود مخلفاً ورائي ظلمات الغابة. ولكن الذهول ملأني عندما وصلت، لأن القمة والأماكن المحيطة بها كانت دون حياة، ولم تكن هناك أي نبتة تنمو في تلك الأرض القاحلة. وأحسست مرة أخرى بالضياع والبؤس، وبأنني دون قدرة على اختيار الدرب الذي سأسلكه. وكنت في هذا الوضع الحزين، جالساً على صخرة وأنا أسند رأسي براحتي، عندما اقترب مني أحدهم. فقلت له:

ـ لتكن من تكون، أرجوك أن ترأف بحالي.

بقي ينظر إلي، دون أن يقول شيئاً، وكأنه أبكم.

سألته:

ـ من أنت؟ هل أنت شبح أم بشر من لحم وعظم؟

وعندئذ فقط رد علي:

ـ لستُ بشراً، ولكنني كنت كذلك. أبواي جاءا إلى الدنيا في أورداكس دي نافارا. أما عن مروري على الأرض، فيجب أن تعلم أنه بعد أن أقمت في سلمنكا وأماكن أخرى، استقر بي المقام في قرية سارا تلبية لإرادة سيدي المحبوب برتراند دي اتشاواس، وهناك عشت السنوات التي شاء لي ربنا الله أن أعيشها، وقد بلغتْ ثمانٍ وثمانين سنة.

استولت علي الدهشة، وفتحت عيني على اتساعهما من السعادة والذهول على السواء.

ـ أنت إذن بيدرو داكيري أثبيليكويتا، رئيس الجامعة الذي اشتهر بلقب أتشولار! أوسع الأساتذة شهرة، وأرفع السلطات مقاماً، والأول بين كل المؤلفين الباسكيين! لست نادماً الآن لأني كنت قد قرأتك. فأنت معلمي ومؤلفي المفضل. ساعدني من فضلك. أنظر كم أنا تائه وضعيف في هذا القفر. أنقذني من هذا المأزق الذي أنا فيه أيها السيد الكريم والمعلم الحكيم!

ـ يجب أن أريك شيئاً في البداية ـ قال لي ذلك وراحٍ يمشي على مرتفعٍ أشد صعوبة من السابق، متوجهاً نحو قمة أكثر ارتفاعاً. فلحقت به واضعاً ثقتي فيه.

وما إن وصلنا إلى القمة الثانية حتى رأيت أننا في جزيرة تائهة في اتساعات البحر. لقد كانت جزيرة صغيرة جداً، ولم تكن فيها أية إشارات تدل على وجود الحياة. وكانت هناك سفينة سوداء تدنو من شواطئها.

قلت له بقلب مكروب:

ـ كم هي صغيرة ومحدودة! ثم أضفت: ـ ويا لعظمة وحدتها!

فهز المعلم رأسه موافقاً:

ـ هناك تمازج وعلاقات بين كل الألسن واللغات العادية الأخرى في العالم. أما إوسكارا[1] فهي وحيدة ومختلفة عن أي لغة أخرى. وهذا هو تفردها.

حين سمعت تلك الكلمات أدركت أن تلك الجزيرة ليست مثل سردينيا أو مثل صقلية، وإنما هي من مادة أخرى؛ وأن ذلك التضريس الجغرافي الذي كنت أتأمله، مهما بدا الأمر غير قابل للتصديق، ما هو إلا لغتي نفسها. ولكن بدا لي أن المعلم يريد أن يقول لي شيئاً آخر، فتخليت عن تلك الأفكار المشوشة التي كانت تحوم في رأسي لكي أتأمل فيها فيما بعد.

ـ لقد مضى زمن كان فيه هذا المكان رائعاً وبديعاً، بينما هو اليوم مجرد قفر ميت. ولهذا السبب تبدو لك الجزيرة صغيرة ومحدودة. ولكن، لو كانت قد كُتبت بلغة إوسكارا كتب كثيرة مثل تلك التي كتبت بالفرنسية أو أي لغة أخرى، لكانت إوسكارا لغة غنية ومضبوطة مثل تلك اللغات، وكون الأمر ليس كذلك هو ذنب الإوسكالدونيين وليس ذنب هذه الجزيرة.

بدا أن ذلك الدكتور الملائكي للإوسكال هيريا[2] قد اكتأب، فلم أقل أي شيء لبعض الوقت حتى لا أزيد من غمه، ولكنني كنت ارى السفينة السوداء تدنو أكثر فأكثر من الشاطىء؛ وصار بإمكاني أن أميز كذلك جماعات الناس الذين على سطح السفينة. وبينما أنا في تلك الحال،

---

[1] إوسكارا و إوسكال وأوسكادي هي تسميات للغة وشعب الباسك

[2] الإوسكال هيريا: اللغة الباسكية

لم أستطع أن أكبح سؤالاً كان يجاهد ليشق طريقه عبر حنجرتي. فقلت له:

ـ ما هي هذه السفينة أيها المعلم؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين فيها؟

فزفر قبل أن يجيبني:

ـ هذه السفينة هي مثل **غراند سان أنطونيو** تلك التي رست في ميناء مرسيليا.

فاعترفت له:

ـ ليست لدي أية معلومات عن هذه السفينة أيها المعلم.

ـ **الغراند سان أنطونيو** هو اسم السفينة التي حملت الطاعون إلى مرسيليا.

فقلت مذعوراً:

ـ ومن هم إذن هؤلاء الناس؟

فقال بعد ذلك:

ـ أترى أولئك الذين في المقدمة؟

ـ أجل، إنني أراهم. ويبدون لي سعداء جداً! إنهم يرفعون أعلاماً ويطلقون هتافات، كما لو أنهم يريدون تقديم تحية فرح إلى الجزيرة.

ـ لا تصدقهم إذن. الحق أقول لك إنهم منافقون، وكل ما يفعلونه يبقى مجرد مظاهر. إنهم يتكلمون كثيراً، أما عندما يحين وقت الأفعال... فلن تجدهم يعملون أي شيء على الإطلاق. ينشئون أحمالاً ثقيلة لا سبيل إلى حملها، ثم يلقون بها على كاهل جارهم؛ بينما هم لا يحركون بالمقابل إصبعاً واحداً. كل ما يفعلونه هو من أجل لفت انتباه الناس إليهم. يُلمّع أحدهم الصور أو الشعارات ليلقيها على ملابسه، ويزين آخر واجهة بيته بعبارة مأخوذة من الجزيرة؛ ويريد ثالث من جهته أن يوضع اسمه أولاً عند التوقيع على عريضة . ولكن كل ذلك ليس إلا قذى. فكلماتهم، مثل كلمات المعلم ذاك، لا نفع فيها إلا للخداع.

ـ وأولئك الذين يشكلون جماعة وراءهم؟ من يكونون؟

ـ هل تعني أولئك الذين يحملون دفاتر حسابات بين أذرعهم؟

ـ أجل يا معلم.

ـ إنهم المبتذلون يا بني . وهؤلاء أناس شديدو الطمع والغباء، وليست لديهم أية تطلعات روحية. أنهم لا يتوقفون مطلقاً عن تدقيق حساباتهم، وهم خير من يعرف الطريقة التي يجنون بها الفوائد من الجزيرة. والحق أقول لك إنهم مخيفون، لأنهم ـ مثل كل بني سلالتهم ـ يرون أن من المناسب جداً بالنسبة إليهم أن تبقى الجزيرة على حالها، ضيقة ومحدودة. لأنها إذا ما تمتعت بوضع أفضل فإنهم سيتجشمون عناء أكبر في ضبط حساباتهم.

وبينما كنت أكتشف المستقبل الذي ينتظر الجزيرة، صرت أجد مشقة في التقاط أنفاسي. ولكنني لم أستطع مع ذلك البقاء صامتاً. فقد كان ينقصني معرفة الكثير، ودفعني ذلك إلى مواصلة السؤال:

ـ وأولئك الذين هم إلى جوار صاري السفينة؟

ـ أتعني ذوي الوجوه المائلة إلى الصفرة؟

ـ أجل يا معلم، هؤلاء هم من أعنيهم.

ـ هؤلاء يأتون إلى الجزيرة ليروا إن كان فيها مروج. فإذا كانت فيها مروج ووجدوها، فإنهم يزرعون فيها على الفور بذور الزؤان أو أي عشبة خبيثة أخرى. إنهم لا يستطيعون العيش دون أن يزرعوا البذور الضارة بين القمح. وحيثما توجد مجادلة عقيمة وبائسة، وحيثما يرون أنهم قادرون على زرع الشقاق والعداوة، تجدهم مجتمعين معاً باسم الشعب أو باسم جريدتهم.

ـ ومن هم فوق الصاري؟ لماذا يكشرون كثيراً هكذا؟

ـ إنهم لم يصعدوا الصاري، وإنما قيدوا إليه بحبل. ولولا ذلك لحملتهم الريح وكأنهم بالونات. يجب أن تعرف أن هؤلاء من فصيلة المنفوخين، مثل الضفادع. يظنون أنهم الأعلون، ولا يتوقفون عن السخرية من الجزيرة أو مهاجمتها، معتقدين أنهم يثبتون بذلك علو شأنهم. ولكنهم ليسوا رفيعي

الشأن، وإنما أدنياء وقذرون. يظنون أنفسهم جبابرة، ولكنهم لا يجرؤون إلا على مهاجمة الجزيرة لأنهم يرونها ضعيفة ودون قوة. ولو لم تكن كذلك، لبحثوا عن لغة أخرى فيما حول البلاط، واستقروا للعيش هناك.

وكنت أنا الذي تنهدت في هذه المرة:

ـ سأوجه إليك سؤالاً أخيراً أيها المعلم، لأن من هم في المركب كثيرون جداً ولست أريد إرهاقك بالسؤال عنهم جميعاً. قل من هم أولئك الذين في الخلف، في الطرف الآخر للسفينة، يبكون ويتحسرون؟

ـ بما أنني شبح فإنني لا أعرف التعب. أما أنت بالمقابل فتتعب. أرى أنك لم تعد تستطيع التحمل أكثر وأن قواك تخور، ولهذا سأصمتُ بعد أن أنبئك بأخبار هؤلاء الأخيرين. فهؤلاء الذين تراهم هناك هم الحزانى. وهم مثل العاشقين البائسين، لا يقدمون للجزيرة إلا أحزانهم، ولا يتوصلون بذلك إلا إلى زيادة الأحوال سوءاً. مثل أبي إيكارو، يهمسون في أذن كل من يرونه يسقط: إنك ماضٍ في طريق سيئ. أما من تمضي أموره بالمقابل على ما يرام ويمضي صعوداً، فإنهم ينظرون إليه بوجه قانط، ليشعروه بأنه لا جدوى من كل ما يفعله. ولو أن الجزيرة في أيديهم فإن جسمانية[1] سيكون مكاناً بهيجاً بالمقارنة معها.

كلانا بقينا ننظر إلى السفينة السوداء لبعض الوقت، دون أن نقول شيئاً. بعد ذلك أمسك بيدي وقادني على السفح نزولاً إلى أحد الأركان النادرة التي مازالت خضراء في الجزيرة. كانت الأرض مغطاة بعشب طويل، وكانت هناك في كل مكان أشجار تين مثقلة بالثمار.

قلت له متوسلاً حين رأيته يفلت يدي:

ـ أرجوك أيها المعلم ألا تذهب الآن.

ـ وماذا تنتظر مني؟ أتريدني أن أعطيك دواء شافياً؟ ـ قال ذلك وهو يقرأ ما يدور في ذهني.

---

(1) قرية قرب القدس، فيها البستان الذي قُبض فيه على السيد المسيح قبل صلبه حسب رواية الانجيل.

فأومأت برأسي إيجاباً.

ـ لقد أخبرتك بالدواء من قبل: لو أن كتباً كثيرة كُتبت بلغة إوسكارا...

ـ ولكن الكتّاب قليلون أيها المعلم! كما أنهم ليسوا بمثل قامتك.

قطف المعلم ثمرة تين عن الشجرة وقدمها إليّ. وبقي ساهماً بينما أنا آكلها. ثم سألني بعد ذلك:

ـ والمنتحلون؟ ألا يوجد منتحلون؟

فقلت معتذراً:

ـ لست أدري إذا ما كنت أفهمك أيها المعلم.

ـ ما أود معرفته هو ما إذا كان هناك من يُقدِّرون كاتباً كبيراً، ويحاولون أن يكتبوا مثله. ففي عصري كانت فكرة الكتب تختمر بهذه الطريقة.

وبدا لي أنه لا بد من توضيح بعض الملابسات قبل مواصلة الحديث، فقلت:

ـ لا أظن ذلك يا سيدي. ثم إن الأمور قد تغيرت كثيراً ما بين عصرك وعصري. فالانتحال صار أمراً سيئاً جداً منذ القرن الثامن عشر. إنه بغيض مثل السرقة. وعمل المؤلف اليوم يجب أن يبدو وكأنه مختلق من العدم. وبكلمة أخرى، يجب أن يكون عملاً أصيلاً.

نظر إلي بتمعن وكأنه يريد أن يفهم. ثم سحب صحناً من مكان ما، وراح يقطف التين.

وبعد وقت من ذلك، وبينما هو يمضي من شجرة إلى أخرى، بدأ يقول:

ـ ليس لائقاً بأي حال أن يكون الأمر هكذا. فالانتحال حسب رأيي له فوائد كبيرة إذا ما قارناه بعمل الإبداع. فهو أسهل منالاً وأقل مشقة. يمكن إنجاز عشرين انتحالاً في الوقت الذي يتطلبه إنجاز عمل مُبْدَع واحد. وتكون النتائج في أغلب الأحيان جيدة جداً، وهو ما لا يتحقق في النصوص المبدعة، لأن مواصفات النموذج المحتذى به تشكل دليلاً وتوفر العون. الحق أقول لك إن هذا الاتهام بالسرقة مضر. لأنه يحرمنا من أفضل وسيلة لبعث الحياة في الجزيرة.

ومع أنه كان يبدو غاضباً، إلا أنه كان يعنى كثيراً في صف ثمار التين في الصحن. وقد بقيت أنا صامتاً في أثناء ذلك. لم أكن أريد أن أحرفه عن الموضوع الذي يشغل تفكيره.

ـ ليس من اللائق أن يقول أستاذ جامعي هذا، ولكن... ماذا إذا كانت السرقة بارعة؟ ـ سألني ذلك وهو يدنو مني مجدداً. وعبرت محياه ابتسامة مغتصبة.

ففوجئت:

ـ أتعني الانتحال دون الكشف عن المصدر؟ أهذا ما تعنيه أيها المعلم؟

ـ بالضبط.

ـ ولكن عمل ذلك يتطلب منهجاً، ثم إن...

فوضع يده على كتفي وقال لي:

ـ بني، أجبني بصراحة! هل تحب هذه الجزيرة؟

وأجبت بشيء من القلق:

ـ كثيراً جداً أيها المعلم.

ـ وهل أنت مستعد للمخاطرة والمجازفة من أجلها؟

وبسبب تلك النظرة التي كان يصوبها إليّ، لم يكن بمقدوري أن أقول له لا.

ـ اذهب إذن إلى الدنيا وهيئ هذا المنهج. فلتتعلم الأجيال الناشئة الوصول إلى انتحالات بارعة! ولتزهر الجزيرة بكتب جديدة!

قال ذلك ووضع بين يدي الطبق المملوء بالتين. ثم دخل بعدئذ في غيمة هبطت نحونا، واختفى عن ناظري. ففتحت عيني واستيقظت.

وبالرغم من أني رأيت من النافذة جبال أوبابا المألوفة لدي، إلا أنني تجشمت جهداً لأعرف أنني في غرفتي. فكل شيء هناك، سواء اللوحات أو ملابسي أو الكتب، بدا لي غريباً، لآن الواقع لم يكن قوياً بما يكفي ليبعثر الحلم. فقد بقيت مع مؤلف *Gero* حتى وأنا مفتوح العينين؛ وكنت أرى نفسي على القمة أتأمل الجزيرة، ووسط الغوطة بين أشجار التين.

وتذكرت عندما استيقظت تماماً: «لقد وعدته بأن أضع منهجاً للانتحال!»

لقد واجهت مشقة في العودة إلى الدنيا مع ذلك الوعد، ورغبت في العودة إلى النوم. ومع ذلك، فقد استحوذ القلق على قلبي، ورحت أصحو أكثر فأكثر. كنت أفكر في أنني لن أكون قادراً على كتابة ذلك المنهج، وأن كلمتي، إذا ما توصلت إلى ذلك، لن تكون مجدية في شيء. ثم أنها كلمة غير موجهة إلى أي شخص عادي، وإنما إلى أتشولار نفسه، الدكتور الملائكي للإوسكال هيريا. وكان القلق الناجم عن هذا التقدير شديداً إلى حد أنني شرِقت بثمرة تين حين أردت أكلها. وخطر لي عندئذ:

«يجب على المنتحل أن يختار نصوصاً ذات حبكة واضحة. وستكون هذه هي القاعدة الأولى في المنهج.»

وبينما كنت ما أزال مذهولاً من هذه الفكرة التي برزت فجأة، وكنت سعيداً أيضاً، تناولت دفتراً عن الكوميدينو ودونتها فيه. ثم أضفت إليها تعليقاً:

«وبكلمة أخرى، يجب اختيار قصص أو روايات يمكن تلخيص حبكتها في عدة وقائع أو أحداث. ولهذا السبب، سيكون من غير الملائم للمنتحل اختيار نماذج من أمثال روب غرييه أو فوكنر، لأن الحكاية هي أقل شيء يروى في أعمال هذين المؤلفين. بينما يُنصح بالمقابل جداً بأعمال كتّاب مثل ساكي وبوزاتي، أو حتى همنغواي نفسه. وبصورة عامة، كلما كان النموذج المختار أقدم عهداً، يكون الوضع أفضل للمنتحل: فيمكن استخدام ألف حكاية من استعادة **ألف ليلة وليلة**، ولكن لا يمكن استخدام قصة واحدة من مجلد مختارات طليعية.»

تفحصت ما انتهيت من كتابته، وبدا لي أنه غير سيئ، وأنه ربما لا يكون وضع المنهج معقداً مثلما افترضت.

واحتفالاً بلقيتي المشجعة، رفعت ثمرة تين إلى فمي وابتلعتها بحذر شديد. وخطر لي عندئذ: «لا بد من أجل الانتحال من استبعاد أي نوع من

الكتب الغريبة النادرة»، وكانت دهشتي أكبر مما شعرت به عندما طرأت لي الفكرة الأولى. لقد كنت في ذلك الصباح، ودون أن أعرف السبب، ملهماً أكثر من أي وقت مضى. ولكنني على الرغم من دهشتي الكبيرة، لم أكن لأتخلى عن انتهاز هذه الفرصة مثلما فعلت بالسابقة. فتناولت الدفتر مجدداً، وبدأت بالتعليق على القاعدة الثانية:

«يجب ألا يخطر ببال المنتحل أن يختار أي كتاب نادر وغريب غير مترجم إلى لغته. فعليه ألا يهتم مثلاً بتلك الرواية التي أحضرها له أبواه من مكتبة في ساحة لينين، حين رجعا من رحلتهما إلى موسكو، حتى ولا عندما يضع له صديقه العالم باللغات ملخصاً جذاباً لموضوع الرواية. ففي نهاية المطاف، ما الذي يعرفه هو عن اتجاهات الأدب الأكثر حداثة في روسيا؟ وماذا لو أن أبويه، في براءتهما، قد أحضرا له رواية لشخص يوشك على التحول إلى منشق؟ ما الذي سيحدث عندئذ؟ فبعد سنتين سيشتهر هذا الشخص عبر كل وسائل الاتصال الجماهيري، وسيعرف حتى الطلبة الجامعيون عن ظهر قلب كل موضوعات أعماله الأدبية ملخصة. وإذا ما حدث كل هذا فإن المنتحل سيتعرض للخطر بالطبع.

لا، ليس على المنتحل أن يلجأ إلى استخدام الحيل لكي يتوصل إلى هدفه بمهارة. يجب ألا يتوجه بخطاه نحو الأحياء البعيدة أو الأزقة المعتمة كما لو أنه نشال صغير، بل عليه أن يمضي في وضح النهار في الأماكن الفسيحة في مركز العاصمة. عليه أن يتوجه إلى بوليفار بلزاك أو إلى حدائق هاردي أو إلى شارع هوفمان أو إلى ساحة بيرانديللو... وهذا يعني بكلمات أخرى أنه عليه أن يختار نماذجه من بين أعمال المؤلفين الذين تدور أسماؤهم على كل لسان في العالم بأسره. وعليه ألا يقلق من ذلك. فلن يكتشفه أحد على الإطلاق. لأن الكلاسيكيين ـ مثلهم مثل رؤساء الملائكة ــ غير معروفين إلا بأسمائهم وأيقوناتهم.»

لقد أقررت قاعدتين من قواعد المنهج، وحين وجدت نفسي أكثر اطمئناناً، رحت أتطلع إلى جبال أوبابا، أراقب حركة الفلاحين الذين

يعملون في الحقول. وكان على أن أنهض كعادتي لتناول القهوة، ولكنني كنت أخشى ترك الفراش. لأن الإلهام قد يغادرني إذا ما فعلت ذلك. من أين تأتيني كل هذه الأفكار؟ ألم أكن أنا بالذات جاهلاً تماماً في كل شؤون الانتحال؟ هنالك شيء غريب يحدث.

«من أين جاءت ثمار التين؟»، تساءلت عندئذ بدهشة. لأن موسم التين لم يكن قد حلّ في أوبابا.

أمسكت الطبق الأبيض بين يدي، وحين تفحصته تلاشت شكوكي. فقد رأيت أن الثمار المصفوفة هناك بدقة هي نفسها التي قطفها أتشولار في الجزيرة.

وأخيراً رأيت بوضوح وفهمت كل ما جرى. لا، ذلك الحلم لم يأتني صدفة، وإنما بإرادة المعلم المحددة، لأنه بحاجة إلى شخص ينشر بدعة الانتحال الطيبة. وأدركت أن تلك التي في الطبق ليست ثمار تين عادية، وإنما هي مليئة بالحكمة؛ وأن تلك الثمار ستعرفني ـ مثلما بدأت تفعل ـ على منهج الانتحال.

بقيت أفكر بعض الوقت في تلك الواقعة، معجباً بالقدرات التي كان يتحلى بها قاطنو البارناس[1]. ولكن الدفتر بقي إلى جانبي، ووجوده كان يشد إلى ذهني المهمة التي وعدت بإنجازها. وبهذه الذكرى، تناولت القلم وتأهبت لكتابة صيغة القاعدتين الثالثة والرابعة.

«يمكن لمثال أن يوضح خير من أي مقال كيفية حل مسألة الزمان والمكان. فلنفترض أن ما سننتحله هو قصة تجري أحداثها في بلاد العرب أو في العصر الوسيط، وأن بطليها ـ المختلفين في مجادلةٍ حول ناقة ـ يدعيان أبو الفارسي وعلي ريول. حسناً، على المنتحل أن يأخذ القصة بمجملها، ولكن ـ فرضاً ـ عليه أن ينقل الأحداث إلى انكلترا في هذه الأيام.

---

[1] البارناس: سلسلة جبلية في بلاد الإغريق، هي في الأساطير موطن أبولون وربات الشعر والموسيقى.

وهكذا يتحول البطلان، مثلاً، إلى أنتوني نورثمور وفيليب ستفينسن، ويصير سبب الجدل الدائر بينهما خلاف على سيارة بدل الناقة. وهذه التبدلات، كما يسهل التصور، ستجر معها ألف تبدل آخر، فلا يعود بإمكان أي شخص التعرف على القصة الأصلية.»

بعد أن اكتشفت مصدر إلهامي، لم يعد هناك ما يمنعني من النهوض من الفراش، فنزلت إلى المطبخ لأعد القهوة. وفي تلك الأثناء كان هناك أناس كثيرون يسيرون في القرية، وكانت التحيات والوداعات المتبادلة فيما بينهم تصل إلى بيتي. وكانت الشمس تحلل الغيوم القليلة التي في السماء. بعد قليل، أعلنت مقرعة الباب عن وصول الجرائد. أجل، إن عجلة الحياة تواصل الدوران دون توقف، فأحسست بسعادة لم أشعر بمثلها منذ زمن طويل.

بعد بضع ساعات من ذلك، سكبت لنفسي فنجان القهوة الثاني، وأكلت ثلاث ثمرات تين متتالية، وتهيأت لكتابة قواعد المنهج الأخيرة. وبدأت:

«تهيئة دفاع جيد هو أمر بالغ الأهمية للمنتحل». ثم أضفت إلى العبارة المذكورة هذه السطور الأربعين التالية:

«قد يحدث أن يتقيد المنتحل بالقواعد الأربع السابقة، ثم يُكتشف أمره رغم ذلك. فأي شخص قد يتعرض لضربة سوء الطالع، وخصوصاً في الثقافات ذات الأجواء المحدودة، حيث ضيق المجال يودي عادة إلى علاقات ـ وخصوصاً الأدبية منها ـ مليئة بالمكائد والخبث والعداء.

ولكن ضربة سوء الطالع تلك يجب ألا تكون بالضرورة مؤذية للمنتحل؛ بل يمكن له على العكس تماماً، أن يخرج من شِباك خصومه وقد ازداد صلابة. ولكن التوصل إلى ذلك يستدعي منه بالضرورة، وفي المقام الأول، أن يخلف على امتداد عمله أثاراً ممن اتخذه نموذجاً له؛ ثم عليه في المقام الثاني، أن يتعلم شيئاً حول الميتاليتراتورا؛ ثم ثالثاً، أن يتوصل إلى قسط من الشهرة. لأنه إذا حقق هذه المطالب الثلاثة، يكون قد شكّل حراسته الامبراطورية.

ولنفترض ـ من أجل شرح قاعدتي الدفاع الأولين ـ أن المنتحل قد استخدم لأهدافه إحدى قصص كيبلينغ؛ وأنه قد تقدم في القصة كثيراً في الزمن وجعلها تدور فيما حول كوكب أورانوس. ولا بد للمنتحل إذن لكي ينجز القاعدة الأولى من أن يطلق على رائد الفضاء اسم كيم.

ـ اسمح لي الآن أن أوجه إليك سؤالاً ينطوي على قليل من سوء النية ـ هكذا سيقول له أحد الصحفيين بعد بضعة أيام من نشر عمله ـ. يبدو أن القصة التي ترويها في كتابك تشبه إلى حد هائل إحدى قصص الكاتب بيكينغ. بل هناك من استخدم كلمة انتحال في هذا الشأن. ما هو ردك على ذلك؟

فيبدأ المنتحل الرد بوقار شديد:

ـ أعذرني، ولكن اسمه كيبلينغ وليس بيكينغ ـ ثم يضيف بعد ذلك وابتسامة ازدراء تطل على شفتيه: ـ لو أن هؤلاء الذين يتهمونني هم قراء حقيقيون، ولو أنهم بدل شحذ مخالبهم عكفوا على قراءة أعمال كيبلينغ كاملة، لكانوا انتبهوا على الفور إلى أن عملي ليس إلا تكريماً مكرساً للمعلم المذكور. ولهذا السبب تحديداً، أطلقت اسم كيم على رائد الفضاء. لأن أحد الأعمال التي كتبها ذلك الامبريالي الفاتن تحمل هذا العنوان. وهذه غمزة لا أظن أنه من الصعب التقاطها في نهاية المطاف. ولكن، وكما قلت لك، فإن هؤلاء الذين يتهمونني لا يملكون ولو مجرد فكرة واضحة عن ماهية القراءة.

ـ أظنني سمعتك تقول، وصحح لي إن كنتُ مخطئاً، **الامبريالي الفاتن**، وأرجو أن تعذرني، ولكن يبدو لي غريباً جداً سماع هاتين الكلمتين متحدتين معاً... ـ هكذا يجدد الصحفي حصاره، مهاجماً الآن من جبهة أخرى. ولكن المنتحل لا يتيح له مع ذلك التقدم من هذا الطريق، ويلجأ إلى القاعدة الدفاعية الثانية ليشن هجوماً جديداً على العدو.

ـ يجب أن أقول لك أيضاً أن هؤلاء الذين يجهدون أنفسهم في البحث عن شعر للبيضة من أجل إلغاء مصداقية الآخرين ما هم إلا متخلفين جداً فيما يتعلق بميدان النظرية الأدبية. بل ربما أنهم لم يسمعوا كلمة واحدة حول الميتاليتراتورا...

ـ أنا سمعت شيئاً من هذا القبيل، ولكنني لا أتذكر...

ـ حسن، ما تعنيه هذه التسمية هو، في التحديد النهائي... أنه لا جديد تحت الشمس، حتى ولا في مجال الأدب. فتلك الأفكار التي أنضجها الرومنسيون...

ـ أجل، الحب وكل هذه الأشياء...

ـ حسن، لا، بل نعم، مفهومهم حول الحب أيضاً، ولكنني أعني الآن أفكارهم الأدبية، فالرومنسيون كانوا يرون أن العمل الأدبي هو محصلة شخصية خاصة وفريدة، وحماقات أخرى من هذا القبيل...

ـ والميتاليتراتورا؟

ـ هذا هو ما أعنيه، فنحن الكتاب لا نبدع شيئاً جديداً، وإنما جميعنا نكتب القصة نفسها. ومثلما يقال عادة، فإن جميع القصص الجيدة قد كُتبت، وإذا لم تكن مكتوبة فهذا دليل على أنها سيئة. فالعالم الآن ليس سوى اسكندرية هائلة، ومن نعيش فيها نكرس أنفسنا للتعليق على ما جرى إبداعه من قبل، ولا شيء سوى ذلك. لقد تبدد الحلم الرومنسي منذ زمن بعيد.

ـ لماذا الكتابة إذن؟ إذا كانت جميع القصص الجيدة قد كُتبت...

ـ لأن الناس، مثلما يقول شخص لا أذكر اسمه الآن، ينسون تلك القصص. ونأتي نحن الكتاب الجدد لنذكرهم بها. هذا هو كل شيء.

ويبدو جلياً من خلال ما قيل حتى الآن أن كرامة المنتحل قد بقيت بعيدة عن أي شكوك. ولكن تحسباً لأي وضع ـ آخذين في الاعتبار أنه ليس هناك من يصدق شخصاً مجهولاً ـ فإنه من المناسب للمنتحل أن يلجأ إلى مطلب القاعدة الدفاعية الثالثة. وبكلمات أخرى، عليه أن يكون قد حقق بعض الشهرة. لأنه إذا كان اسمه معروفاً، ويتردد بكثرة، فإن المبررات المذكورة آنفاً تكتسب قوة وأهمية استثنائيتين.

ولا يفزعن أحد حيال عملية اشتهار الاسم هذه، مهما بدت شاقة وعسيرة في البدء. لأنه بوجود كل هذا العدد الكبير من الصحف، وكل تلك

القضايا التافهة ـ إذا ما كان هذا السياسي أو ذاك قد قال أم لم يقل، وإذا ما كان توقيت الكرنفال جيداً أم غير جيد، إذا ما تم حل مشكلة المرور أو المرورة ـ وتمكن المنتحل من جعل اسمه يظهر كل أسبوع أمام الرأي العام ــ مجيباً على استفتاء، أو موقعاً على بيانات، الى آخره ــ سيكون سهلاً سهولة الخياطة والغناء.»

كانت الشمس قد بلغت ذروتها عندما انتهيت من كتابة السطر الأخير من المنهج، وكان الدخان المتصاعد من مداخن بيوت أوبابا يثبت أن الوقت هو موعد الغداء. ولكنني لم أكن أشعر بالجوع لكثرة ما أكلت من التين، فقررت البدء في تلك اللحظة بالذات بنموذج عملي. كان لا بد من اثبات فعالية المنهج بمثال. وهكذا ذهبت إلى المكتبة واخترت قصة ذات حبكة واضحة من كتاب أعيدت طباعته مرات ومرات. وقبل حلول الليل كنت قد أنهيت وبيضت القصة المنتحلة التي سأعرضها فيما يلي: «صدع في الثلج المتجمد.»

وأنجزت بذلك رغبة العلامة أتشولار.

صَدع في الثلج المتجمد

شبح موت ذرع المعسكر رقم واحد عندما وصل الشيربا[1] تامنغ حاملاً خبر سقوط فيليب أغوست بلوي في صَدْع. توقف الصخب والضحك المعهودان على العشاء فجأة، ونُسيت على الثلج فناجين الشاي التي مازال البخار يتصاعد منها. لم يتجرأ أي فرد من أعضاء البعثة الاستكشافية على طلب التفاصيل، ولم يكن بمقدور أحد التكلم. وخشي الشيربا ألا يكونوا قد فهموا ما قاله، فكرر لهم الخبر. لقد ابتلع الجليد فيليب أغوست، ويبدو أن الصدع عميق جداً.

ألم تستطع إخراجه أنت يا تامنغ؟ ــ سأل أخيراً الرجل الذي يقود البعثة.وهو ماتساس ريمز، جينيفي يرد اسمه في كل موسوعات متسلقي الجبال بفضل ارتقائه قمة دوغاليري.

فهز الشيربا رأسه نافياً. وقال:

ـ تشيسو، يا مستر ريمز. ليل تقريباً.

وكان هذا سبباً وجيهاً. فعندما يخيم الليل، يصل البرد ــ تشيسو ــ في محيط ذلك المكان إلى أربعين درجة تحت الصفر؛ وهي درجة حرارة قاتلة بحد ذاتها، ولكنها تؤثر فوق ذلك على استقرار كتل الجليد الضخمة في

---

[1] شيربا (*sherpa*) هم سكان جبال الهيملايا من النيبال، ويعمل الأشداء منهم حمالين ومرشدين للبعثات التي تتسلق قمم الجبل.

الجبال. ففي الليل تنفتح صدوع جديدة، وتنغلق إلى الأبد بالمقابل صدوع أخرى قديمة. وقد كانت أي محاولة للإنقاذ شبه مستحيلة.

ـ وما العلامة التي تركتها يا تامنغ؟

فاستدار الشيربا عارضاً ظهره الخالي. إن العلامة التي تركها هي حقيبة الظهر الحمراء المصنوعة من النايلون، وقد تركها مثبتة جيداً بأوتاد عند حافة الصدع الجليدي.

ـ أكان ما يزال حياً؟

ـ لا أعرف يا مستر ريمز.

وقد فكر الجميع أنه ليس هناك أي هدف لتلك الأسئلة سوى التحضير لحملة بحث تخرج في اليوم التالي، مع بزوغ أول أشعة الشمس. ولكنهم فوجئوا عندما بدأ ريمز بانتعال جزمة تسلق الجبال، وطلب أن يجيئوه بمصباح يدوي وحبال. كان الجينيفي ينوي الخروج فوراً.

صرخ شيربا عجوز وهو يبدي امارات المفاجأة. ويعترض على ذلك القرار الذي بدا له انتحارياً:

ـ *Lemu mindu!*.

ـ القمر سيساعدني يا غيالزين. رد عليه ريمز بذلك وهو يرفع عينيه باتجاه السماء. وكان القمر الذي يكاد يكون مكتملاً يضيء بنوره الثلج المتساقط حديثاً، ويجعل لونه أشد شحوباً.

ثم توجه بعد ذلك إلى رفاقه، وأعلن أنه لن يتقبل مساعدة أحد منهم. سيذهب وحيداً. فهو الذي عليه أن يجازف بحياته، لأن ذلك هو واجبه.

كان ماثياس ريمز وفيليب أغوست بلوي يعملان معاً في محطات التزلج القريبة من جينيف، ولهذا فقد فهم أوربيو الحملة قراره على أنه محصلة للروابط الناجمة عن طول أمد التعامل الشخصي. أما الشيربا غير المطلعين على ذلك، فقد عزوا القرار إلى كونه رئيس الجماعة والمسؤول عنها.

عندما أختفى شبح سترة ريمز البرتقالية الصوفية وسط الثلج والليل، تعالت همسة إعجاب في المعسكر رقم واحد. لقد كان تصرفاً مثيراً للتقدير،

فهو يعرض حياته للخطـر مـن أجـل إنقـاذ حيـاة شـخص آخـر. وتحـدث البعـض عـن قـوة الصداقـة، والقلـب. وتحـدث آخـرون عـن روح متسـلقي الجبال، وعن الجرأة والتضامن. وهز العجوز غيالزين وشاح صلواته الأبيض في الهواء: فليحالفه الحظ، وليحفظه «فيشنو» العظيم.

لم يتصور أي واحد منهم الحقيقة. ولم يخطر ببال أحد أن الدافـع وراء ذلك القرار هو الحقد.

كان فيليب أغوست بلوي يتألم في أثناء ذلـك مـن سـاقه المكسـورة ومـن الجرح العميق الذي أصاب خاصرته. ولكنه مـع ذلـك راح يغفـو؛ فالنعـاس الذي كان يسببه له برد الصدع كان أقوى من ألمه، وأقوى منه هو نفسه. لم يكن بإمكانه الإبقاء على عينيه مفتوحتـين. ولقـد بـدأ يشـعر بذلـك الـدفء الذي يسبق دوماً الموت اللذيذ لمتسلقي الجبال.

كان يستلقي على الجليد، مستغرقاً في صراعه الخاص، يحاول قلقـاً أن يميز ما بين ظلمة الصَدْع الجليدي وظلمة نعاسه، فلم ينتبه إلى الحبال التي ألقيت من الأعلى، وسقطت على جزمته. ولم ير كذلـك الرجـل الـذي نـزل عليها ثم جثا بجواره.

عندمـا صـوب الرجـل ضـوء المصبـاح نحـوه، انتفـض فيليـب أغوسـت صارخاً. فقد أفزعه الضوء.

ـ أبعد هذا المصباح عن عيني يا تـامنغ! صـاح بذلـك وهـو يبتسـم لـرد الفعل الذي قام به للتو. وأحس بأنه قد نجا.

وعندئذ سمع صوتاً له رنة متوعدة:

ـ أنا ماثياس.

حرك فيليب أغوست رأسه ليتفادى ضوء المصباح. ولكـن المصبـاح بـدّل موقعه كذلك. فانبهر بصره من جديد. وسأل أخيراً:

ـ ما الذي جاء بك؟

ورن صوت ماثياس ريمز العميق في الصدع الجليـدي. كـان يتكلـم ببـطء مثل رجل متعب جداً.

ـ سأكلمك كصديق يا فيليب، كرجل لرجل. وربما بدا لك مضحكاً ما سأقوله. ولكن لا تضحك يا فيل. فكر في أنك أمام رجل يتعذب كثيراً.

اتخذ فيليب أغوست وضع الاحتراس. فوراء ذلك التصريح كان يشعر بفحيح أفعى.

وواصل ماثياس:

ـ لقد تعارفنا أنا وفيرا مذ كنا فتيين جداً يا فيل. كنا في حوالى الخامسة عشرة، هي كانت في الخامسة عشرة وأنا في السادسة عشرة من عمري. ولم تكن آنذاك فتاة جميلة. بل إنها كانت قبيحة في الحقيقة يا فيل. كانت طويلة جداً بالنسبة لسنها، وبارزة العظام لشدة نحولها. ولكنني أحببتها رغم كل ذلك حين رأيتها. أتذكر أنني أحسست برغبة في البكاء، وبدا لي كل شيء فجأة بنفسجي اللون. قد تستغرب يا فيل، ولكنها الحقيقة، كل شيء كنت أراه بهذا اللون. كانت السماء بنفسجية، والجبال بنفسجية، والمطر كان بنفسجياً أيضاً. لست أدري، ربما أن الحب يبدل من حساسية العينين. ولدي الآن الإحساس نفسه يا فيل، فتلك الأحاسيس لم تنمح مذ كنت في السادسة عشرة من عمري. بل إنها لم تنمح عندما تزوجنا، وأنت تعرف ما يقال عن أن الزواج يقضي على الحب. لكن ذلك لم يحدث في حالتي. فأنا ما زلت أحبها، وأحملها في قلبي على الدوام. وهذا هو ما جعلني أتمكن من الصعود إلى قمة دهاوغاليري يا فيل، لأنني كنت أفكر فيها، فقط من أجل هذا!

الصمت الذي تلا كلماته فاقم من عزلة الصدع. فصرخ فيليب أغوست فجأة:

ـ لم أضاجعها مطلقاً يا ماث!

واصطدمت صرخته بأربعة الجدران الجليدية.

فأفلت ماثياس ضحكة جافة:

ـ كدت أصاب بالجنون عندما أروني صوركما معاً يا فيل. أنت وفيرا في فندق أمباسادور في ميونيخ، أيديكما متشابكة، يومي السادس عشر والسابع

عشر من آذار. أو في تريفولي زيوريخ، في العاشر والحادي عشر من نيسان. أو في شقق ترومير في جينف نفسها، في الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من أيار. وكذلك في بحيرة فيلير، طوال أسبوع كامل، في الوقت الذي كنت أُعد فيه لهذه الحملة بالتحديد.

كان فم فيليب جافاً. وعضلات وجهه المتيبسة من البرد تشنجت، وهتف:

ـ إنك تول اهتماماً لأمور لا أهمية لها يا ماث!

ولكن أحداً لم يسمعه. وكانت عين المصباح وحدها هي التي تنظر إليه دون رحمة.

ـ لقد راودتني شكوك كثيرة يا فيل. فأنا لست قاتلاً. لقد كنت أشعر بالاستياء الشديد من نفسي كلما فكرت في قتلك. وكنت على وشك أن أفعل ذلك في كتمندو. وكذلك عندما هبطنا من الطائرة في لوكلا. ولكن تلك الأماكن لطيفة بالنسبة إلي يا فيل، ولا أريد أن ألوثها بدمك. ومع ذلك، فقد حكم عليك **الجبل** بدلاً مني يا فيل، ولهذا أنت هنا الآن، لأن الجبل أدانك. لست أدري إذا ما كان سينهي حياتك، لست أدري. ربما تبقى حياً حتى الفجر وينقذك بقية أعضاء الفريق. ولكنني لا أظن ذلك يا فيل، لدي انطباع بأنك ستبقى في هذا الصدع إلى الأبد. ولهذا السبب جئت إليك، حتى لا تمضي من هذه الدنيا دون أن تعرف مدى حقدي الشديد عليك.

كانت شفة فيليب أغوست السفلى ترتعش:

ـ أخرجني من هنا يا ماث!

ـ لست أنا من سيفعل لك هذا يا فيل. لقد أخبرتك للتو أن **الجبل** هو الذي سيقرر.

تنفس فيليب أغوست بعمق. ولم يعد أمامه سوى تقبل مصيره.

امتلأ صوته بالازدراء:

ـ أنت تظن نفسك أفضل من الآخرين يا ماث. تظن أنك جبلي نموذجي. ولكنك لست سوى مهرج بائس. لم يتحملك أي واحد ممن عرفتهم جيداً.

ولكن ذلك كان متأخراً جداً. فقد كان ماثياس ريمز قد صعد على الحبال.

وصرخ فيليب أغوست بكل ما في صوته من قوة:

ـ فيرا ستبكيني! ولكنها لن تبكيك أنت مطلقاً!

وساد الظلام الصدع من جديد.

* * *

الانفعال الذي أثارته الزيارة أيقظ جسد فيليب أغوست. صار قلبه ينبض الآن بقوة، والدم الذي كان على وشك التجمد بدأ يصل بكل سهولة إلى جميع العضلات. وفجأة، ربما لأن دماغه صار يعمل بصورة أفضل، تذكر أن متسلقي الجبال لا يلتقطون مطلقاً الحبال التي يستخدمونها عند النزول إلى الصدوع. فهي حمولة غير مجدية، وعرقلة في رحلة العودة إلى المعسكر.

فكر: «إذا كان ماثياس...» وسيطر الوهم عليه.

نهض واقفاً وراح يضرب بيديه في الظلام. كانت لحظة واحدة، ولكنها بلغت من الزخم حداً جعله يقهقه طرباً. فقد كانت هناك الحبال الثلاثة التي لا بد أن ماثياس قد تركها بحكم العادة.

كان يئن من جراحه، ولكنه كان يعرف أن ألماً أكبر، بل أكبر الآلام كلها، ينتظره في قاع الصدع. ضغط فيليب أغوست شفتيه وتعلق بالحبال وبدأ الصعود، ببطء، محاولاً ألا يصطدم بالجدران المتجمدة. وكان يستغل الأماكن الضيقة ليصنع قنطرة من ظهرة وساقه السليمة، لكي يستريح قليلاً بهذه الطريقة. بعد ساعة من ذلك كان قد صعد الأمتار العشرة الأولى.

عندما بلغ في صعوده ثمانية عشر متراً، أفقده انهيار ثلجي توازنه ودفعه للارتطام ببروز في الحائط. أحس فيليب أغوست بضربة في خاصرته الجريحة نفسها، فملأ الألم عينيه بالدموع. فكر للحظة بالموت اللذيذ الذي ينتظره في قاع الصدع. ولكن الأمل كان ما يزال رغم ذلك موجوداً في قلبه، وكان يهمس له «ربما» لا يمكنه عصيانها. وأخيراً حالفه الحظ. لقد منحه

القدر فرصة أخرى. ليس له الحق في أن يشك في ذلك. ثم إن الثلج المتساقط كان يشير إلى أن المخرج بات قريباً جداً.

بعد نصف ساعة من ذلك، تحولت جدران الصدع إلى اللون الرمادي أولاً، ثم إلى اللون الأبيض بعد ذلك. وفكر فيليب أغوست أن القدر عندما طوح به ليرتطم بالبروز كان يريد اختباره؛ وأنه في هذه اللحظة، يكافئه أخيراً.

صرخ:

ـ السماء!

وكانت بالفعل سماء الفجر الوردية. إنه يوم جديد في نيبال.

كانت الشمس قد بدأت تنعكس على الثلج. وقبالته، إلى الشمال، كانت تنتصب قمة لوتسي العملاقة.

إلى يمينه، عبر الوادي، كان يتعرج الدرب المؤدي إلى المعسكر رقم واحد.

أحس فيليب أغوست أن رئتيه تستردان الحياة بهواء الصباح النقي. فتح ذراعيه أمام تلك الإمدادات الفسيحة، ورفع عينيه نحو السماء الزرقاء متمتماً ببعض كلمات الشكر إلى الجبل.

وكان على تلك الحال عندما أقلقه إحساس غريب. بدا له أن ذراعيه اللتين مدهما قد ارتدتا من جديد، وأنهما تحتضنانه رغم إرادته. ولكن، من الذي يحتضنه؟

أخفض بصره ليرى ما الذي يحدث، فارتسمت تكشيرة رعب على وجهه. فقد كان ماثياس ريمز يقف أمامه مبتسماً بسخرية. وسمع قبل أن يشعر بالدفعة:

ـ ليس من اللائق استخدام الخدع يا فيل.

وللحظة، بينما هو يهوي نحو قاع الصدع، ظن فيليب أغوست بلوي أنه قد فهم مغزى تلك الساعات الأخيرة من حياته.

فكل ذلك الذي حدث ـ الزيارة، ونسيان الحبال ـ كان تعذيباً مخططاً له: فماثياس ريمز لم يشأ كذلك أن يغفر له عذاب الأمل الواهم.

نبيذ من الراين

ـ ما رأيكما في أن نترك شراب الفيرموت المقــرر في البرنـامج إلى مناسـبة أخرى؟ ـ اقترح علينا العم مونتيفيديو ذلك وهو يـترك ملفاتـه وينهـض عـن مقعده الجلدي. كانت جلسة القراءة على الشرفة قد انتهت.

فقلنا مازحين:

ـ هذا يعتمد عليٍ ما ستقدمه لنا مقابل ذلك.

ـ أقدم لكما نبيذاً لذيذاً من الراين أحتفظ بـه في القبـو. وعندمـا سمعـت قصة كلاوس هـانهن تلـك داخلتـني الرغبـة في فتـح الزجاجـة. مـاذا؟ هـل أضعها لتبرد في الفونتيفريدا؟

وكان عمي يطلق تسمية فونتيفريدا على بئر موجودة داخل البيت، إلى جوار المطبخ.

فقلت له:

ـ أنـا أوافـق بكـل سـرور. لأنـني في الحقيقـة لم أتـذوق نبيـذ الرايـن في حياتي.

فقال عمي وهو يضحك ويهز رأسه:

ـ لم تتذوقه في حياتك، ولكنك تذكره رغم ذلك في القصة! يا لوقاحتك!

ـ هـا أنـت ذا تعـود رجـل القـرن التاسـع عشـر مـن جديـد! التجربـة والأصالة، وإذا كان ممكناً فخيانة زوجية أو اثنتين في الرواية. كيف يمكـن للمرء أن يثق بإيمانك الجديد! إنني أراهن أن القصة التي انتحلتها هي مـن القرن التاسع عشر أيضاً!

فتدخل صديقي:

- بما أنك قلت هذا الآن. فإنني أود أن أعرف أيها العم إلى أي كاتب استندت لتكتب ما قدمته عن الصدع الجليدي؟ فأنت لم تخبرنا بذلك في النهاية.

مضى عمي نحو الباب مثل طفل يريد أن يضفي على نفسه الأهمية. فقد كان يعرف أن قراءته قد أثرت فينا.

- ولا كلمة واحدة! البرنامج يقول إن الأسئلة والتعليقات الأخرى تبقى محفوظة حتى كأس الكونياك الثاني في المساء. وهكذا لا يبقى أمامنا حتى ذلك الحين سوى أمرين: فإما أن نبقى صامتين، أو نتحدث في التوافه. اذهبا الآن للجلوس إلى طاولة الحديقة. فالنبيذ سيبرد خلال خمس دقائق.

فقلت له وأنا أنهض:

- مثلما تريد سعادتكم أيها السيد آكل التين.

- الطاولة في الظل، أليس كذلك؟ قال صديقي وهو ينظر من النافذة. ولا بد أن درجة الحرارة في الخارج كانت فيما حول الخامسة والثلاثين التي تنبأ بها المذياع.

- إنها تحت شجرة الماغنوليو التي في الركن. ولكنني بعد أن فكرت في الأمر الآن، فإني أجد أنني قد أكون أسأت في استغلال ثقتكما بوضعها هناك. فلا يمكنني أن أجبركما على التصرف مثل سيدات القرن التاسع عشر الشاحبات. وإذا رغبتما فإنني مستعد للخروج ونقل الطاولة في لحظة واحدة إلى الحداثة.

فقلنا له معاً ونحن نخرج :

- يا لظرافتك!

الحداثة التي تكلم عنها العم كانت تملأ الحديقة كلها. فمن المستحيل الإحساس بشيء لا يكون دِفؤها، ومن المستحيل رؤية شيء لا يكون نورها. غناء الزيزان الرتيب وحده كان يتعالى من السكون الشامل الذي فرضه الحر في يوم الأحد ذاك على أوبابا.

سارعت أنا وصديقي للبحث عن شجرة الماغنوليو، وبعد أن جلسنا وسط ظلها، بدأنا نتحدث في التوافه مثلما يتطلب البرنامج. ومحادثتنا التي بدأت حول الحر الشديد والجفاف، انتهت في التحول إلى الحديث عن غرابة تلك الشجرة التي تظللنا.

قال صديقي ملاحظاً:

ـ أشجار الماغنوليو لا توجد إلا في حدائق البيوت التي يشيدها الانديانيون.

ـ إنهم يحضرونها من أمريكا كتذكار. مثلما هو الأمر مع أشجار النخيل.

ـ كتذكار؟ أنا لست متأكداً تماماً من هذا. لا أتصور انديانو ينظر إلى حديقته ويشعر بالحنين للأيام التي أمضاها في بنما أو فنزويلا.

ـ ولماذا يحضرونها إذا لم يكن هذا هو السبب؟

ـ لأنهم بحاجة إلى رمز للثراء الذي حققوه هناك. لا يمكنهم العودة إلى بلدهم والعيش في بيت عادي. إنهم يريدون أن يُظهروا لمواطنيهم أنهم قد نجحوا، وأن الهجرة تستحق العناء.

ـ لست أدري ماذا أقول...

عندئذ قاطعني عمي:

ـ يا للغرابة. كنت أظن أن شبان هذه الأيام يعرفون كل شيء. ـ وكان يحمل صينية من المقبلات ـ نبيذ من الراين، كؤوس صغيرة، زيتون إسباني، أنشوجا من بيرميو... ـ كان يرتل أسماء هذه الأشياء وهو يضعها واحدة بعد أخرى على الطاولة، ثم أضاف: ـ ما رأيكما؟ أيبدو لكما هذا جيداً؟

ـ إنك تنتمي إلى القرن التاسع عشر ياعماه، ولكن لا بد من الاعتراف بأنك تساوي الكثير في بعض الأمور.

ثم سألنا عندما تذوقنا النبيذ:

ـ أهو نبيذ جيد؟

وقلنا له:

ـ جيد جداً وبارد تماماً.

فقال وهو يجلس قبالتنا:

ـ هذا يسعدني. ثم سألنا بعد ذلك وهو ينظر إلينا بارتياب: ـ هل يمكنني أن أعرف عم كنتما تتحدثان؟

ـ لا تنظر إلينا هكذا يا عماه، فقد أحسنا التصرف. لم يدر أي تعليق أدبي على هذه الطاولة. كلمة شرف.

ـ عم كنتما تتحدثان إذن؟ هذا إذا كان بالإمكان معرفة ذلك بالطبع.

ورد عليه صديقي بنعم، وبأن ذلك ممكن، وأخبره بمناقشتنا حول شجرة الماغنوليو.

فقال العم ساهما:

ـ ليس بالموضوع السيئ.

ـ ما رأيك أنت يا عماه؟

ـ الحقيقة أنني لا أعرف الكثير حول هذا الأمر، لأنني أشتريت البيت مثلما هو الآن، مع الحديقة وكل شيء. ولكنني أقول إن أولئك الانديانيين من الجيل الأول، الذين كانوا يخرجون لآول مرة من قراهم ويذهبون مباشرة إلى أمريكا، كانوا ينبهرون بالطبيعة وبالناس هناك. وحين كانوا يرجعون فيما بعد، يحاولون أن يُحضروا معهم دليلاً من ذلك العالم.

فقلت له:

ـ أنت تفكر مثلي إذن. ترى أنهم يُحضرون أشجار الماغنوليو والنخيل كتذكار، لكي يكون لديهم شيء ينظرون إليه حين يشعرون بالحنين إلى أمريكا.

ـ لا، ليس هذا ما عنيته. فأنا لا أعتقد بأنهم يُحضرون أي شيء كتذكار. ليس هناك كآبة في ساعة العودة. أما ما هو موجود، فهو الرغبة في عرض أشياء. ولكي تريا الأمر بوضوح أكبر، فإن الرجل الذي شيد هذا البيت...

قلت له:

ـ كان اسمه تيليريا، أليس كذلك؟

ـ بالضبط، كان اسمه خوسيه تيليريا. لقد اجتاز الغمر، وبعد عشر سنوات أصبح ثرياً. أظن أنه قد تحول إلى مالك لكل محلات بيع المنسوجات في مونتيفيديو. وعندما رجع بعد تلك السنوات العشر إلى أوبابا، عاد ومعه نماذج من كل ما عرفه في أرغواي. لم يُحضر معه بذور هذه الأشجار وحسب، بل أحضر كذلك مجموعة كبيرة من الحيوانات. ببغاوات، طيور، قردة...

فقلت:

ـ قردة أيضاً؟ هذا أمر لم أكن أعرفه.

ـ لم تكن تعرف؟ ولكنها قرود اشتهرت في هذه الأنحاء. لأنه لم يكن هناك أحد بالطبع في أوبابا قد رأى قرداً، حتى ولا في الصور. وصحيح أنه لم يكن أحد قد رأى كذلك طيوراً بألوان جذابة، ولكنها لم تكن سوى طيور في نهاية المطاف، لها أجنحة ومناقير، ولم تكن لتثير كثيراً من الدهشة. أما القردة، بمظهرها ذاك الذي كمظهر أطفال يغطيهم الشعر... أضف إلى ذلك أن أحد تلك القردة، وهو شمبانزي اعتاد الانديانو أن يُلبسه سروالاً وقميصاً، كان قد عمل قبل ذلك في سيرك في مونتيفيديو، وكان يتقن أداء الشقلبات وكل أنواع الحركات الظريفة. وكان الناس الذين يأتون لمشاهدته يبولون من شدة الضحك، ولستُ أقول هذا لمجرد البذاءة، وإنما لأن ذلك كان يحدث بالفعل. كانوا يقفون فيما حول سور الحديقة، يتفرجون عليه لدقائق ثم يهرعون راكضين «ليرتاحوا». ولكن شهرة البيرتو ورفاقه اتسعت كثيراً فيما بعد، فاضطر الانديانو إلى تخبئتهم.

ـ ولماذا اضطر إلى إخفائهم؟ ـ سأل صديقي وهو يوجه إلي نظرة تواطؤ. ولكنني كنت أقل تيقظاً منه، ولم أستطع أن أربط ما بين شمبانزي الانديانو تيليريا ومونكي مونتيفيديو الذي سمعت به في استراحة على الطريق، ولهذا لم أفهم رسالة صديقي. وكان لا بد لي من دقائق أخرى لكي أسمع خطوات الراقص، على حد تعبير غوتييه.

وأوضح عمي:

ـ لقد اضطر إلى إخفائهم لأن المكان تحول إلى مزار. فقد كان يأتي مئات الأشخاص لرؤية القردة والتبول من الضحك. وقد كان الانديانو سعيداً بذلك في أول الأمر، لقد كان يبتهج وهو يرى مدى استمتاع الجميع بعرض نماذجه الامريكية. ولكنه ملّ بعد مضي ثلاثة شهور من كل ذلك الصخب، ولم يعد يعرض القردة منذ ذلك الحين إلا في احتفالات أوبابا.

سأله صديقي:

ـ وهل رأيت تلك القرود أنت أيها العم؟

ـ تقريباً. فقد رأيت القرود، ولكن عندما كنت صغيراً. والحقيقة أنني لم أروِ لكما القصة مثلما أتذكرها أنا، وإنما مثلما يتذكرها صديق لي في مونتيفيديو.

وألح صديقي:

ـ صحيح؟ ومن كان ذلك الصديق؟

ـ إنه صمويل تيليريا أوربي، ابن الانديانو. وقد هاجر صمويل نفسه أيضاً إلى أميركا، ولكنه لم يذهب لجمع ثروة مثلما فعل أبوه، وإنما بحثاً عن المغامرات، وكان في نيته استكشاف الامازون. لقد تعرفت عليه في مسامرات المقهى الملكي في مونتيفيديو، وهناك روى لي هذه القصة التي كنت قد نسيتها.

عاد صديقي للنظر إلى للمرة الثانية. **هل أنا منتبه لما يحدث؟** أجل، لقد انتبهت أخيراً، وقد بدأت أشعر أخيراً بخطوات الراقص. **مونتيفيديو، القرد، الامازون**... الكلمات الثلاثة تشير إلى الشخص نفسه.

وساله صديقي:

ـ أين يعيش صمويل الآن؟ في دبلن؟

فنظر إليه عمي وهو يفتح عينيه على اتساعهما:

ـ أجل، إنه يعيش هناك. ولهذا أنا أملك هذا البيت الآن. لأن صمويل باعني إياه عندما ذهب ليتزوج من امرأة ايرلندية أسمها لاورا. ولكن، كيف تعرف أنت ذلك؟

فسألناه:

ـ ألا تنتظر زيارته أيها العم؟

ـ إنه يقول دائما أنه سيأتي، ولكنني لم أتلق أية رسائل منه منذ زمن طويل. ولكن، ما الذي يحدث؟ لماذا يبدو هذا الاستغراب على وجهيكما؟

لم يكن هناك أي استغراب في وجهينا. وكل ما هنالك أننا كنا نبتسم.

ـ الآن ستتحجر فعلاً أيها العم العزيز. فصديقك صمويل تيليريا أوربي...

ولكنه لم يتح لنا الوقت لاستكمال الجملة. فقبل أن نفعل ذلك قام الراقص بحركته الدورانية الأخيرة وصعد على الكأس. وقد فعل ذلك مرتين أيضاً.

لقد سمعنا محرك سيارة تصعد نحو البيت، وبعد قليل دخلت اللانسيا الحمراء إلى الحديقة. ونزل من السيارة رجلان.

قلت أنا وصديقي بدهشة:

ـ اسماعيل ومستر سميث معاً!

وهتف عمي بدهشة أكبر من دهشتنا:

ـ صمويل!

ثم نهض من وراء الطاولة، ومضى ليعانق صديقه القديم.

صمويل تييريا أوربيه

ما الذي يريد عمله أولاً؟ أيريد رؤية البيت؟ ألا يحمل معه حقائب؟ هل يتذكر أوبابا بعد كل تلك السنوات؟ ماذا إذن؟ أيريان البيت من الداخل أم يشربان قبل ذلك قليلاً من النبيذ الأبيض؟ ما الذي جعله يأتي في سيارة ذلك الشاب...؟ كانت الأسئلة تتراكم أمام عمي فيتعطل. ذلك أن الزيارات غير المتوقعة كانت تشوشه، لأنه رجل معتاد على البرامج والطقوس.

همست لصديقي:

ـ إنني ألحظ طفرات قلبه من هنا. إنه يتحرك في صدره مثل الصيصان المحشورة في علبة من الكرتون.

ـ وما قولك في السيد سميث؟ هل انتبهت إلى حاله؟

كان الجد الذي يبلغ طوله مترين ينحني نحو عمي وهو يلوي قبعته بيديه ويهز رأسه الأبيض دون توقف. لم يكن الوقت يكاد يكفيه ليرد على كل أسئلة عمي. وكان يبدو خجلاً أكثر مما هو مرتبك.

ـ لماذا لا نمد له يد المساعدة؟ إذا ما بقينا على هذه الحال فسوف يختنقان ـ اقترح علي صديقي ذلك. فغادرنا ظل شجرة الماغنوليو وخرجنا إلى الشمس.

ولكن إسماعيل سبقنا. وكان هو من قطع المحادثة الانفعالية الدائرة بين الرجلين. فقد بدأ القول بنبرة صوته العذبة وهو ينظر إلى عمي:

ـ كنت قادماً في سيارتي ورأيته مطروحاً على ظهرة في حقل تفاح. الحقيقة أنني نزلت من السيارة خائفاً. ظننت أن شيئاً قد حدث له. ولكن

لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل. لقد كان ساكناً تماماً، وينام بعمق. وبما أنه قال لي أنه قد ولد هنا، فقد أحضرته معي.

فوافق عمي:

ـ لقد أحسنت صنعاً.

وشكره السيد سميث:

ـ شكراً جزيلاً. *Vary kind of you*. لم تكن هناك أي سيارة أجرة، واضطررت إلى النوم *on the grass*. ولكن جيداً، جيداً جداً.

فقلنا له عندئذ:

ـ كان عليك أن تأتي معنا!

ولكنه لم يكن يتذكر كما يبدو أي شيء من الليلة السابقة، وبدت على وجهه امارات عدم الفهم.

سأله صديقي:

ـ ألا تتذكرنا؟ لقد تحدثنا معك بالأمس.

صوب السيد سميث نظره إلى قبعته. ثم قال بصوت مخالف:

ـ أمس *drinking* كثيراً. كثيراً جداً! لحسن الحظ أن لاورا سيلغو قد بقيت في دبلن.

ـ لماذا لم تأت معك؟ كنت سأفرح جداً بتحيتها من جديد!

وكان عمي هو الذي سأل الآن. وبدا واضحاً أنه يريد تغيير الحديث.

ـ صناعة الفخار!

ـ صناعة الفخار؟

ـ لاورا سيلغو تتعلم شيئاً جديداً على الدوام. وهي تتعلم الآن صناعة الفخار. وقد قالت لي أنها لا تحب التغيب عن الدروس، وأنها، *well*، تفضل البقاء هناك. هكذا هي، امرأة مثابرة.

ابتسمنا جميعنا، بمن فينا إسماعيل.

وحثه عمي:

ـ وماذا الآن؟ هل تريد رؤية البيت الذي ولدت فيه أم لا؟

وكان يبدو الآن أكثرنا اطمئناناً، ولكنه كان راغباً في البقاء على انفراد مع ضيفه.

ـ *Go ahead!* ـ قال السيد سميث موافقاً وهو يضع قبعته على رأسه. ومضيا كلاهما على الدرب المؤدي إلى مدخل البيت.

وبينما نحن نراهما يبتعدان، اعتبرنا أنا وصديقي أننا قد توصلنا إلى حل للسر الصغير الذي اصطدمنا به قبل اثنتي عشرة ساعة. لقد أصبحنا نعرف الآن من هو ذلك المستر سميث الذي تعرفنا عليه في إحدى استراحات الطريق. إنه صمويل تيليريا أوربي، ابن انديانو من أوبابا؛ وهو رجل حازم ذهب أولاً إلى الأمازون ثم بعد ذلك إلى دبلن. لقد كان رجلاً جيداً، شخصاً من نوعية عالية. وقد ابتهجت أنا وصديقي لتعرفنا عليه.

ولكن الراقص لم يُحضر لنا الجد الأبيض وحسب، بل جاءنا كذلك بإسماعيل، وسرعان ما بدأ وجوده في الحديقة يزعجنا. كان يستند إلى سطح سيارته اللانسيا الحمراء وينظر إلينا بطرف عينه باسماً، وساخراً من فضولنا تجاهه. كان يحاول بتلك الابتسامة أن يلمح لنا:

ـ تريدان أن تعرفا أي نوع من الناس أنا، أليس كذلك؟

وقد أجبناه نحن بنظراتنا:

ـ أجل، هذا هو ما نود معرفته. ولكن ليس هذا وحده. فنحن نريد أن نعرف أيضاً ما تخبئه وراء ميلك إلى الحراذين. ولا تتباهي إلى هذا الحد، ولا تذهب بك الظنون إلى أنك تبهرنا. ربما تكون قد أخفتنا قليلاً على الطريق ليلاً، لأننا كنا متعبين ولأننا لم نكن ننتظر ظهورك المفاجئ حاملاً حرذوناً في يدك. أما الآن، فلن تخيفنا. فنحن الآن في وضح النهار وصفير هذا الزيز يطمئننا كثيراً. يمكنك أن تبدأ متى تشاء، فنحن مستعدان لسماع قصتك.

جلسنا ثلاثتنا في ظل شجرة الماغنوليو، وسكبنا نبيذاً في الكؤوس الصغيرة. وعرض علينا إسماعيل سجائر بنبرة أكثر عذوبة مما كانه في أي وقت آخر.

ـ أنتما من مرا بي أمس، أليس كذلك؟ أعني أنكما مررتما في حوالى الساعة الثالثة فجراً بمنعطف المحجر. أجل، أليس كذلك؟ ـ وجه السؤال بعد أن انتهينا من اشعال السجائر. ولم يكن غبياً على الإطلاق في قراءة ما تقوله العيون.

أجبناه موافقين:

ـ أجل، لقد كنا نحن. وإذا كنت لا تمانع، فاننا نرغب في معرفة شيء عما بدا لنا أننا رأيناه هناك.

ـ أي شيء تعنيان؟

شد ظهره إلى الوراء وبقي ينتظر. اعوج فمه قليلاً. فقد كان يعب دخان السيجارة وهو يلوي شفتيه.

فعاجلته موفراً المقدمات:

ـ ما الذي كنت تفعله وأنت تحمل حرذوناً بيدك؟

ضحك. وبدا أن ذلك الوضع يمتعه:

ـ آه! هكذا! لقد رأيتماني إذن! بالطبع. لا شك في أنكما رأيتماني. ـ ثم واصل قائلاً: ـ لهذا السبب مررتما بأقصى سرعة، لأنكما أردتما الابتعاد من هناك بأقصى سرعة. أجل، أعرف ما الذي فكرتما فيه...

صمت لحظة. وعاد يعب دخان سيجارته ويلوي شفتيه.

ـ أنتما تظنان أني مريض، وأنني أصبت بالجنون بعد الذي حدث لألبينو ماريا. تفكران أن هوسي بالحراذين قد نشأ منذ ذلك الحين، وأن هذا هو سبب اهتمامي الدائم بهذه الكائنات المقززة...

فقاطعته:

ـ المهم الآن هو مجال استخدامك لها.

ـ بماذا أستخدمها؟ ولكن، ألم تدرك بعد؟ إنني أستخدمها لأفعل بآخرين كثيرين ما فعلته بألبينو ماريا! الأمر واضح جداً، أليس كذلك؟

تركناه يضحك. ثم واصل بعد قليل وهو ينحني نحونا:

ـ إذا سمحتما لي، فأنتما المجنونان ولست أنا. لأنه لا بد للمرء من أن يكون مجنوناً إلى حد لا رجاء فيه لكي يتقبل قصة الحراذين هذه. من الذي يصدق أنها تدخل من الأذن ثم تأكل الدماغ؟ إنهم الأطفال والمجانين فقط...

سكت للحظة لكي يلتقط أنفاسه ثم نظر إلينا باعتداد. لقد بدأ يبدو ظافراً.

فقال صديقي عندئذ مضيفاً فئة ثالثة:

ـ والأطباء أيضاً يصدقون ذلك، وليس الأطفال والمجانين وحدهم. فصنف الحراذين الخضراء Lacerta viridis يسبب أذى للدماغ، ويمكنه أن يؤدي إلى الخبل. أو هذا ما تقوله الكتب على الأقل. وأريد أن أقول لك شيئاً آخر. فما رأيناه ليلاً ليس بالأمر الطبيعي على الإطلاق. فليس من الطبيعي الالتقاء بشخص يحمل حرذوناً في الساعة الثالثة فجراً على طريق مقفر.

غيّر إسماعيل ملامح وجهه واتخذ موقفاً جديداً. ولكنه ليس موقف الاحتراس الذي يمكن انتظاره بعد كلمات التأنيب الموجهة من متخصص في الموضوع، من طبيب، وإنما موقف مغاير تماماً. فقد بدأ إسماعيل بالتعبير عن نفسه، مثلما يفعل أي شخص يحب الزهو بعد الاستماع إلى آراء جاهل:

ـ يمكنني أن أتكلم مطولاً وباسهاب عن صنف الحراذين الخضراء *Lacerta viridis* ـ هكذا بدأ الكلام ـ. ولكن الموضوع شديد التعقيد ولا يمكن معالجته في دقائق قليلة. وأقول لك فقط أن الـ *lacerta viridis* في بلادنا لا يشبه مثيله في أميركا الجنوبية في أي شيء. إنهما يشتركان في الاسم وحسب. ولكن مواصلة الحديث في هذا الموضوع لا يستحق العناء الآن. فأنا أفضل توضيح النقطة الأخرى. تقول إنه ليس من الطبيعي الالتقاء بشخص يحمل حرذوناً في يده، وهذا صحيح. فهذا وضع غير طبيعي للاسف. فالطبيعي هو أن ندهس الحرذون الأعزل عندما نراه على الطريق؛ أن نمر فوقه بسيارتنا ونسحقه. ولهذا صرنا إلى ما نحن عليه.

حضر لذاكرتي عندئذ ذلك الإسماعيل شبه المتوحش في المدرسة الابتدائية، فلم أستطع الخروج من ذهولي. لقد كان صحيحاً ما تقوله صورة المدرسة الابتدائية القديمة. أجل، فالحياة معرضة لتبدلات كثيرة. وفي تلك الحديقة كان إسماعيل يتكلم مثل بروفسور، بمهابة وبأسلوب خطابي بليغ. ولم نكن نعرف أنا وصديقي ما الذي نفعله حيال حججه العقلانية.

ـ ولكن، لماذا مازلت تواصل اصطياد الحراذين؟ هذا ما لم تقله بعد.

ـ لست أصطادها، إنني ألتقطها. لكي أنقذها بالطبع.

ـ لكي تنقذها؟

ولكن ذهولنا لم يكن نزيهاً هذه المرة. فنحن لم نكن قد نسينا بعد التعليق الايكولوجي الذي تفوه به إسماعيل أمام اللوحة البحرية المعلقة على جدار الحانة، ولم تكن هناك حاجة لأن نكون أذكياء من أجل أن ندرك ما الذي يعنيه بالضبط كلامه ذاك عن **إنقاذها**. وبدأنا نشعر أنا وصديقي بأننا مضحكين.

وراح هو يشرح لنا:

ـ إنني عضو في جمعية. ونحن نرعى الحيوانات التي يتعرض وجودها للخطر. أنا أهتم بالحراذين. إن وضع هذه الحيوانات سيئ جداً. فكثير منها يموت بسبب المبيدات التي يستخدمها المزارعون. الحرذون الذي وجدته في الليل مثلاً، كان في حالة خطرة. وقد حملته إلى كوخ العناية، ولكنني لا أعرف... لست أدري إذا كان سينجو.

فسأله صديقي:

ـ وهل لديك كوخ للعناية؟

ـ أجل، هنا في القرية، بجوار الكنيسة. إنه أشبه بمستشفى صغير. وهل تعرفان من الذي يهتم بكل شيء عندما أكون في عملي؟

فقلنا برأسينا أن لا.

ـ إنه ألبينو ماريا. وهو يحب الحراذين كثيراً. أكثر من حبي أنا لها. كما أنني أعطيه بعض المال مقابل عمله.

قال ذلك وهو يبتسم ويوجه نظره نحوي. ولكنني لم أكن أشعر بالقدرة على النطق بأي تعليق. لقد كنت عاجزاً عن الكلام.

ولحسن الحظ أن عمي قطع المحادثة في تلك اللحظة. فقد نادانا من مدخل البيت قائلاً:

ـ ماذا؟ هل أنتم على مايرام؟

ـ على أحسن حال! إن ظل هذه الشجرة رائع! ـ وكان إسماعيل بالطبع هو الذي رد عليه.

ـ يجب أن نعدّل البرنامج. فقد دخل صمويل للاستحمام. ما رأيكم لو أجلنا الغداء إلى الثانية والنصف؟

ـ مثلما تشاء يا عماه. فليس هناك ما يدعونا إلى الاستعجال.

لم أقل الحقيقة، لأن رغبتي الوحيدة في تلك اللحظة كانت تبديل الجو، ولكن... من الذي يمكنه الاستغناء عن الكذب حين يكون من المستحيل قول الحقيقة؟ ولم يكن بإمكان عمي أن يتصور الحديث الذي دار حول تلك الطاولة.

واقترح إسماعيل:

ـ إذا رغبتما يمكننا الذهاب لرؤية الكوخ. إنه لا يبعد أكثر من خمس دقائق عن أدراج الكنيسة.

ولم يبق أمامنا إلا قبول العرض.

ـ هذا هو الطريق نفسه الذي اجتزناه عندما التقطت لنا تلك الصورة، هل تتذكر؟ ـ سألتُ إسماعيل ونحن نصعد طريق السفح. وكانت نبرة صوتي تدعو للمصالحة. فقد كنت في أعماقي أريد الاعتذار عن الظلم الذي اقترفته ضده. لم يكن شخصاً لطيفاً، ولكنه لم يكن كذلك مريضاً فيه مس من الحراذين.

فرد علي بجفاء، وكان قد وضع عندئذ نظارته الشمسية:

ـ أجل، هذا صحيح.

بيت آل **إيلوباتي**، آل **موينو**، **بيبان**، آربيه، **ليغارا**، **زومارغاين**، **إتشيبيري**، **أوتاتو**، **موتسي**...، خلفنا وراءنا تلك البيوت التي طالما

رأيناها في طفولتنا، ووصلنا إلى الادراج الحجرية. وكانت ما تزال مثلما هي في الصورة: عتيقة، صارمة، ومملوءة بالشقوق.

ـ أنا وقفت هنا، على هذه الدرجة العليا. وألبينو ماريا وقف هناك، أمامي بالضبط ـ قال إسماعيل ذلك وهو يتوقف في أحد طرفي الدرجة الثالثة ويمسح بمنديل أبيض العرق الذي سال منه أثناء الصعود.

لقد كانت سخرية غير مباشرة موجهة إلي تحديداً: «لماذا لا تقول الآن ذلك الكلام الذي تلمح به إلى أن ألبينو ماريا قد أصيب بالجنون بسببي؟»، كان هذا هو ما أراد أن يُفهمني إياه بعبارته التي قالها.

حينئذ نادانا صديقي الواقف في ظل مقبرة الكنيسة، وقد انتبه إلى اضطرابي من البقاء على انفراد مع إسماعيل:

ـ ماذا تفعلان هناك؟ إذا لم تسرعا سنتأخر!

ـ أجل، ها نحن قادمان. ولكن لا تقلق. لقد وصلنا تقريباً.

كان الكوخ وراء الكنيسة، وسط مرج محاط بأسلاك شائكة. وكان مبنياً من الاسمنت ومطلياً بالأبيض، طوله حوالى عشرة أمتار، وعرضه وارتفاعه ثلاثة أمتار. وكانت نوافذه الصغيرة مغطاة بشبك معدني. وبوابته الحديدية خضراء اللون.

قال لنا إسماعيل بعد أن اجتزنا بوابة السور:

ـ الكوخ مقسوم إلى قسمين. في أحدهما أضع الحرذونات التي صارت على وشك الشفاء. وفي القسم الآخر تلك التي ما تزال مريضة.

فسأله صديقي:

ـ وما الذي تفعله بعد ذلك بالحراذين التي تشفى تماماً؟

وأجابه إسماعيل وهو يُخرج مفتاح الكوخ من جيبه:

ـ أبحث عن نهر نظيف وأطلقها على ضفافه.

ما أن فتح الباب حتى شممنا الرائحة. لقد كانت مقززة حقاً، تثير الغثيان.

ـ أه! إنها الرائحة! ـ قال إسماعيل حين رآنا نغطي أنفنا وفمنا ـ إنها ليست لطيفة في الحقيقة! ولكنني لم أعد أشعر بها منذ زمن طويل. ـ ثم أضاف وهو ينزع نظارته الشمسية: ـ ما رأيكما؟ أليست لوحة جميلة؟

لا، لم يكن المكان لوحة جميلة ولا أي شيء آخر من هذا القبيل. فقد كان يبدو أشبه بمستودع لتخزين التفاح والخضروات المتعفنة، حتى الأغصان ذات الأوراق الخضراء التي كانت في الأركان لم تكن قادرة على تلطيف ذلك الانطباع. أضف إلى ذلك أن الحر كان فظيعاً هناك في الداخل.

ـ أين هي الحراذين؟ ـ سأل صديقي وهو ينظر إلى الأرض مثلي.

فقال لنا إسماعيل:

ـ لا تنظرا إلى الأرض. أنظرا إلى الجدران.

وقد كانت هناك، ملتصقة بالجدران الاسمنتية. رأيت خمسة على الجدار الأيسر، وثلاثة على الجدار الأيمن، وواحد آخر على السقف. وكانت لُغدها تنتفخ وتنبسط. وتفتح بين الحين والآخر أفواهها الكبيرة بالمقارنة مع أجسامها، وتُخرج منها فتلة طويلة هي لسانها.

قلت ورغبتي في التقيؤ تصبح أكبر فأكبر:

ـ لقد رأيت كفايتي، سأذهب خارجاً.

ـ انتظر لحظة واحدة، سنذهب لرؤية الأقفاص في القسم الآخر.

رفضت رفضاً جازماً. وخرجت إلى المرج، ولحق بي صديقي. فقال لنا إسماعيل وهو يقترب منا:

ـ لا تبدو لي مقرفة إلى هذا الحد ـ ثم وضع نظارته الشمسية من جديد: ـ الطبيعة بالنسبة لي هي وحدة مطلقة، شيء كليّ، ولهذا فإنني أحب كل الحيوانات. فالحراذين مثلاً تذكرني بالعصافير، لأنني أعرف أنها هي نفسها تقريباً. يجب ألا ننسى أن الطائر الأول قد ولد من حرذون. أعرف أنكما لا تشعران هذا الشعور نفسه، ولكن...

ـ لا، لا نشعر الشعور نفسه. ـ قاطعه صديقي وهو يتوجه نحو السور. وكانت معدته قد انقلبت أيضاً.

ـ انتظرا لحظة ريثما أُغلق الباب وأرافقكما. يجب أن آخذ سيارتي من الحديقة.

همس لي صديقي:

ـ لم يبق إلا أن يحدثنا في اللاهوتيات.

كان غاضباً جداً. فإحضارنا إلى ذلك المكان قبل الأكل مباشرة كان لعبة خبيثة.

ولحسن الحظ لم يصر إسماعيل على شرحٍ وجهة نظره حول الطبيعة، وقطعنا طريق العودة في صمت كامل تقريباً.

وصلنا إلى بيت عمي في الوقت الذي كانت الساعة تشير فيه إلى الثانية والنصف. وقال لنا إسماعيل ناصحاً وهو يطل من نافذة اللانسيا الحمراء:

ـ إلى هنا وتنتهي قصة الحرذون. أرجو ألا تضفيا كثيراً من الخيال على القضية في المرات القادمة.

ـ سنحاول ذلك.

رجع بسيارته إلى الوراء وخرج من الحديقة. وتوارى عن نظرنا بعد ثوان قليلة. فقال صديقي مقلداً السيد سميث:

ـ *At last!*.

لم ندخل إلى البيت مباشرة، فقد بدا لنا أنه من المناسب التعرض للهواء قليلاً قبل ذلك ومحاولة نسيان القرف الذي سببته لنا الحراذين.

وبدأ صديقي القول وكأنه يفكر بصوت عال:

ـ أخيراً... ما الذي يمكننا عمله! يبدو أننا قد بالغنا قليلاً عندما وضعنا فرضيتنا. ولكن هذا غير مهم، فمن المناسب أن يقع المرء في وضع مضحك بين حين وآخر. أظن أننا انقدنا لهوانا القصصي. وقد كنا على أي حال محقين في العمق. فإسماعيل هذا شخصية مشؤومة جداً.

ـ أجل، إنني متفق معك. ـ قلت موافقاً، ولكنني كنت مكتئباً.

وعندئذ أخبرنا عمي من نافذة الصالون:

ـ هذا موعد تناول الفيرموت!

ـ في كل مرة أشعر بمزيد من التعاطف مع عمك. بعد دقيقتين معه سنكون قد نسينا الحراذين.

ـ وهذا ما أظنه أنا أيضاً. سيكون غداء لطيفاً جداً. ولا بد أن السيد سميث سيضيف شيئاً من جانبه.

لم نخطئ في تنبؤاتنا. فتناول الطعام مع الاندیانیین جرى في جو من المزاح والطرائف، واستطعت أنا وصديقي أن نقدر عالياً ـ مرة أخرى ـ الامتلاء الذي تبدو عليه سيرة حياة كبارنا.

في حوالى الساعة الخامسة مساء ـ التزاماً منا بالبرنامج ـ وبينما القهوة والكونياك أمامنا، بدأنا نتحدث في الأدب: ما هو جوهر الأصالة، أين هي حدود الانتحال، ما هي الوظيفة التي يجب أن يؤديها الفن... وكانت تلك هي اللحظة التي اختارها السيد سميث، ليقدم لنا *surprise* (مفاجأة)، على حد قوله.

قال لعمي:

ـ *Oh, my friend!*. أحكامي ليست شديدة *strict and severe* (الحزم والصرامة) مثلما هي أحكامك. وأنا أيضاً أؤيد هذا الـ *intertextuallity* *(التناص)*، إنني متفق مع هذين الشابين.

ـ أتتكلم بجد؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك!

ـ إنها الحقيقة. وسأقدم لك الآن فوراً *the proof* (البرهان).

شعت عيوننا بالحماسة. وكانت فوق الطاولة آلة تسجيل السيد سميث الصغيرة. فقلت له:

ـ انتظر لحظة. إذا ما سجلت هنا قصة أخرى فستمحو قصة الامازون. عماه، أليس لديك شريط تسجيل؟

ـ بلى، لدي. ـ أجاب العم وهو مستغرب بعض الشيء. لأنه لم يكن قد عرف أي شيء بعد عن مغامراتنا الليلية.

ولكن السيد سميث طمأننا:

ـ *Don't worry!* (لا تقلقا). مازال أحد وجهي الشريط فارغاً.

وبـدأ يـروي بالإنكليزيـة، وبلهجـة دبلـن، حكايـة عنوانهـا *Wei Lie Deshang, fantasia on the Marco Polo's theme*.

لقد حانت إذن لحظة التوقف في معترضة أخـرى، لأنـه مـن المستحيل عليّ مواصلة البحث عن الكلمة الأخـيرة قبـل أن أنسـخ هـذه القصـة. وقـد حاولت أن أترجمها بأفضل ما يمكن. ولنر الآن نتيجة عملي.

ويي لي ديشانغ

فنتازيا عن موضوع ماركو بولو

لم يكن ويي لي ديشانغ مثل الخدم الآخرين في القصر الذي بناه أغا كوبالاي، آخر حكام كيانغسي، في جزيرة صغيرة في خليج المدينة، ولم يكن مستسلماً لقدره كذلك. فبينما كان الآخرون يتحسرون، كان هو يفكر بصمت؛ وبينما عيون الآخرين تبكي، كانت عيناه المتلئتان بالحقد تتطلعان ببرود.

بعد خمس سنوات في مسلخ القصر، وبلوغه العشرين من العمر، ظن أن رغبته في الانتقام ستودي به إلى الجنون، لأنه كان يرى رأس أغا كوبالاي في رؤوس كل البهائم التي كان يقطعها، ولأن تلك الصور كانت تملأ أحلامه فيما بعد. ولكنه كان صلب الطباع، فقد واصل حقده، وواصل البحث عن الطريق الذي سيقوده إلى تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه، باسم أبويه، منذ وطئ الجزيرة وهو في الخامسة عشرة من عمره. لا بد من موت كوبالاي، وإحراق كيانغسي، المدينة التي قبلت به حاكماً.

بعد عشر سنوات أخرى، وحين كان قد بلغ الثلاثين، سمع كلاماً عن دين جديد يدعو إليه فقير اسمه محمد، ورأى أخيراً ذلك الطريق الذي طالما بحث عنه. لقد كان طريقاً ينطوي على المجازفة، خصوصاً في جزئه الأول، ويصعب شقه، لأنه يتطلب الهرب من المدينة كل ليلة تقريباً والعودة إليها قبل أن تضيء السماء أول نجوم الفجر. ولكنه فضل المجازفة

بالموت على يد الحراس، بدل الموت مسمماً بحقده مثلما يحدث لبعض الأفاعي.

استغرق ثلاث سنوات في تنفيذ غايته. وعندئذ تأكد له أن أحداً لن يستطيع كبحه، فقرر هجر الجزيرة والذهاب نهائياً إلى جبال آنام. وهناك كان الرجال الذين سيؤمنون به وسيكونون رسل الانتقام. لقد صارت أيام كيانغسي معدودة.

انطلق ويي لي ديشانغ في رحلته الأخيرة في ليلة غير مقمرة، عبر درب يقطع غابة الصيد الخاصة بالحاكم، ويصل ما بين المسلخ وشاطئ الجزيرة الصغير. كان ذلك الدرب هو طريقه المعهود، الطريق نفسه الذي كان يقطعه على الدوام في كل مرة يخرج فيها خفية، ووصل إلى حيث يخبئ زورق الشمبان الذي اشتراه قبل ثلاث سنوات من المدينة. وبعد لحظة من ذلك كان يجدف باتجاه الساحل.

كيانغسي، أكثر مدن بحر كاثاي ازدهاراً، كانت تقوم على خليج فسيح، فوق تلال ناعمة تشرف على الشاطئ. لقد كانت بديعة في النهار، ولكنها بفضل المشاعل التي تضيئها ليلاً كانت تبدو أكثر روعة حين تفقد مبانيها هيئتها وتتحول إلى توال من أسطحة حمراء ولامعة. لم تكن كيانغسي تبدو في الليل مدينة، بل تشبه سرباً من العصافير يوشك أن يحط في البحر.

ولكن ويي لي ديشانغ لم يكن يعبأ بكل ذلك الجمال، وقد جذف دون أن يرفع نظره عن الأمواج. وبعد ذلك، حين أصبح في الخليج، وجه زورق الشمبان نحو معبد الباغودا الكبير في المدينة.

نزل من مركبه إلى جوار أدراج تغص بالمرضى والمتسولين، واتجه من فوره إلى حيث ينتظره منذ ثمانية عشر عاماً إلهه سيدهارتا. فهو لم يدخل المعبد منذ اليوم الذي اقتادوه فيه إلى الجزيرة.

كانت الصورة الهائلة مغطاة بأزهار برتقالية. وكان ويي لي ديشانغ إلى جوارها يبدو رجلاً تافهاً.

وما أن جثا على ركبتيه حتى سمع صوتاً في داخله:

ـ ما الذي تريده أيها الخادم؟

إنه سيدهارتا يكلمه بصوت أب صارم.

ورد ويي لي ديشانغ مرتلاً بتذلل:

ـ صيحيح أنني أبدو خادماً. ولكنني أنتمي إلى أسرة عسكريين، وما زالت دمائي دماء جندي.

فقال سيدهارتا:

ـ ولماذا لست جندياً؟

ـ لأن أسرتي تمردت على أغاكوبالاي، الحاكم الأجنبي. وكان عقابهم الموت. أما أنا، وكنت طفلاً آنذاك، فقد حكم علي بمذلةِ أن أكون خادماً.

أغمض ويي لي ديشانغ عينيه وبقي صامتاً. لقد آلمه أن يتذكر كل ما حدث في فترة التمرد. لماذا سُلّمت مدينة كيانغسي إلى رجل مثل أغا كوبالاي؟ لأن أحداً لم يقبل أن يتبع نداء أسرته، ولم يشأ أحد النضال ضد الوضع الجديد. فلا التجار ولا الكهنة، بل ولا قادة الجيش أنفسهم رغبوا في المقاومة. ولكن تلك الخيانة لن تبقى دون عقاب.

وتابع ويي لي دتشانغ وهو ساجد أمام إلهه:

ـ والآن أريد الانتقام يا أبتاه. كل شيء جاهز. ولا تنقصني إلا المباركة.

ولكن سيدهارتا لم يستجب لتوسلاته. بل صار صوته أكثر صرامة:

ـ أخبرني أولاً ـ جاءه الصوت من داخله ـ لماذا تحولت إلى لص وقاتل. لقد قتلت في ثلاث سنوات أكثر من ثلاثين تاجراً.

ـ كنت بحاجة إلى بيزنطياتهم الذهبية يا أبتاه.

ـ ولماذا تحتفظ في ذلك البيت في توشي بتلك القائمة الطويلة من الأسماء والأرقام؟

ـ إنها أسماء جميع خونة هذه المدينة يا أبتاه. والأرقام تشير إلى أماكن سكن أولئك الخونة.

ـ يجب ألا تنتقم أيها الخادم. فالحقد لا يمكنه أن يوقف الحقد؛ الحب وحده هو القادر على وقف الحقد. هذا قانون قديم.

ـ أنا أريد قتل من قوضوا القانون القديم وسمحوا لأجنبي بأن يحكم كيانغسي.

غضب سيدهارتا الجبار، وتبدلت نبرة صوته:

ـ اصمت أيها الخادم! أبعد عن قلبك هذه الرغبات الخبيثة. عد إلى الجزيرة واعترف بخطاياك.

فصرخ ويي لي ديشانغ وهو ينهض واقفاً:

ـ لماذا تتكلم الآن بصوت أغا كوبالاي؟

ـ لا تتوجه بمثل هذا الكلام إلى معبودك!

ـ أنت أيضاً خائن! ـ هتف ويي لي ديشانغ وهو يتراجع نحو مخرج المعبد. وقال باضطراب: ـ سأحرق هذا المعبد أيضاً يا سيدهارتا!

خرج راكضاً من الباغودا ولم يتوقف إلا في البيت الذي اشتراه منذ ثلاث سنوات في حي توشي. لقد فقد حماية إلهه، ولكنه ما أن رأى البيزنطيات الذهبية والرقع الجلدية المتلئة بالأسماء والأرقام حتى نسيه. وفي تلك الليلة دخن أفيونا للمرة الأولى منذ زمن طويل، ورأى ـ بتفصيل ووضوح ـ نهاية ذلك الطريق الذي تصوره يوم سمع بالفقير محمد. ستدفع كيانغسي ثمن خيانتها: سيكون انتقامه رهيباً.

في اليوم التالي، ارتدى ملابس تاجر، وبدأ الرحلة نحو منطقة جبال آنام، مختلطاً بتجار حقيقيين وسائراً في ركاب قافلة عرباتهم وخيولهم الصاخبة. ولكن ما أن ابتعدوا عن كيانغسي حتى عن انفصل الجماعة، وراح يسأل في القرى التي يمر منها، ويجند الناس الذين يحتاج إليهم لتنفيذ خططه. ففي إحدى القرى رأى أن البيوت مبنية بناء متيناً، فطلب منها نجارين وحجارين، وطلب من قرية أخرى فتيات وطباخين. وكانت بيزنطياته الذهبية تفتح له كل الأبواب.

بعد خمسة عشر يوماً، وبعد انتهاء رحلته ووصوله إلى جبال آنام، اختار الخادم القديم ويي لي ديشانغ وادياً صغيراً بدا له أكثر وديان المنطقة بُعداً وعزلة. ثم بدأ بإصدار الأوامر، فقال للنجارين والحجارين:

ـ شيدوا خمسة قصور. ـ وقال للزارعين: ـ حولوا الوادي كله إلى روضة غناء، ولا تنسوا شق الجداول وإقامة النوافير. ـ وقال لجنوده المرتزقة: ـ احرسوا الفتيات والمواشي. ولا تسمحوا لأي غريب بالاقتراب.

وبعد أن استمعت الجماعة المؤلفة من أكثر من خمسمئة شخص إلى أوامره باهتمام، انتشر الجميع في جنبات الوادي وبدؤوا بنصب الخيام.

وعندئذ دنا منه مرتزق عجوز، وقال له:

ـ لا بد أن حزنك عظيم جداً. فأنا لم أر أبداً من قبل شخصاً ثرياً ويمكنه أن يعيش سعيداً بين الناس، يختار العزلة والوحدة التي اخترتها أنت.

لقد اهتزت مشاعر ويي لي ديشانغ لتلك اللفتة الأخوية التي أبداها المرتزق العجوز، فقال له:

ـ أرى أنك رجل شريف، وأريدك من الآن فصاعداً أن تكون نائبي. ولكن الأمر ليس مثلما تظن. فالجنة التي سأقيمها في هذا الوادي لن تكون لي، وإنما للآناميين الذين يقطنون هذه المنطقة.

لم يفهم المرتزق معنى تلك الكلمات، ولكنه بقي صامتاً. فسأله ويي لي ديشانغ وهو يرنو إلى الجبال الصخرية العالية المحيطة بالوادي:

ـ ما الذي تعرفه عن الآناميين؟

ـ أعرف فقط أنهم مقاتلون أشداء، وأنه لا ند لهم في صيد النمر.

ـ أجل، هذا ما سمعته أنا أيضاً في أحد مطابخ كيانغسي. وأنهم مثل الأطفال، أبرياء بسطاء ويصدقون أي شيء.

فضحك المرتزق:

ـ لا بد أن سيدهارتا سعيد بهم. أكثر من سعادته بي!

ـ الآناميون لا يؤمنون بسيدهارتا، بل بفقير يدعى محمد. ولهذا أريد تحويل هذا الوادي، لأصنع لهم فيه الجنة التي وعدهم بها نبيهم.

ـ إذا كانت هذه هي رغبتك، فستنالها.

رسم المرتزق العجوز ابتسامة، ثم رجع إلى الجماعة وحثهم على أخذ مواقعهم في العمل.

اشتغل أتباع يي لي ديشانغ طوال سنة كاملة، فأقاموا قصوراً وأبراجاً، وزرعوا وروداً وأشجاراً، وشيدوا نوافير بأربع عيون، يتدفق منها الماء والحليب والعسل والنبيذ. وبعد ذلك، عند انتهاء العمل، تلقوا البيزنطيات الذهبية التي وُعدوا بها ثم رجعوا إلى بيوتهم. ولم يبق في الوادي سوى الفتيات والمرتزقة.

لقد أزفت ساعة الاقتراب من إحدى قرى الآمانيين.

وقال ويي لي ديشانغ للمرتزق العجوز:

ـ اختر عشرة رجال واتبعني.

فأدرك المرتزق مراده:

ـ هل سنبدأ البحث عن أول آنامي؟

وأومأ ويي لي ديشانغ إيجاباً وهو متوتر.

ـ لا تقلق، كل شيء سيمضي على ما يرام ـــ قال له المرتزق مشجعاً. ولكن ملامح التوتر التي بدت على وجه ويي لي ديشانغ لم تختف. فقد وجد نفسه حيال الامتحان الأخير. فالأيام القادمة ستحدد نجاح أو إخفاق جهوده التي بذلها طوال سنوات.

ساروا لساعات وسط غابات كثيفة، وكانوا متيقظين خوفاً من ظهور نمر، وكانوا في الوقت نفسه يقارنون تلك المناظر الفظة مع بهاء الوادي البديع الذي خلفوه وراءهم. وعند انتصاف النهار تقريباً وجدوا درباً، فأمر ويي لي ديشانغ رجاله بالبحث عن مكان يكمنون فيه، وقال لهم:

ـ فلننتظر إلى أن يمر أحد الآناميين.

ثم أصدر الأوامر التي عليهم تنفيذها عند حدوث ذلك.

ولم يكن عليهم أن ينتظروا طويلاً، فقد كان ذلك الدرب قريباً جداً من إحدى قرى الصيادين. وقد رأوا الرجل يقترب حاملاً قوسه وسهامه على كتفه.

وعندما وصل إلى قبالة مكمنهم رفعوا سيوفهم وانقضوا عليه موقعينه وسط عشرة من المرتزقة. وصرخوا به:

ـ مت!

ولكنهم لم يقتلوه. بل جعلوه يشم بدلاً من ذلك مخدراً ونوموه.

ولدى عودتهم إلى الوادي، وعملاً بأوامر ويي لي ديشانغ، تركوا الرجل الأنامي نائماً إلى جوار نافورة تحيط بها أحواض الزهر. وكان المساء قد حل في أثناء ذلك وبدت السماء كأنها مؤلفة من قطع زجاجية زرقاء متعددة. وكانت ريح الشمال تداعب وريقات الأزهار.

ربض ويي لي دتشانغ والمرتزق العجوز وراء إحدى نوافذ القصر الرئيسي لمراقبة الآنامي النائم.

استعاد ذلك الآنامي وعيه قبل أن يعم الغروب تماماً. فنهض عن الأرض وتطلع إلى الجهات الأربع في الوادي، بآجامها ونوافيرها وقصورها. ثم انحنى على النافورة، وبلل يده أولاً بالحليب، ثم بالعسل. ولم يكن بحاجة لمعرفة المزيد: تهلل فرحاً، ورفع ذراعيه إلى السماء وبدأ ينشد التراتيل الدينية.

أضاءت ابتسامة وجه ويي لي ديشانغ. فبعد كل تلك الجهود، هاهو ذا الزمن يؤكد صواب فكرته. لقد كان الآنامي يعتقد أنه في الفردوس الذي وعده به محمد الفقير.

ـ أحضره للمثول أمامي. ـ قال ويي لي ديشانغ ذلك للمرتزق. وكلاهما كانا يلبسان الأبيض.

ولأن الصياد ظن أنه في حضرة النبي، فقد خر ساجداً فور دخوله إلى صالة القصر الرئيسي. فقال له ويي لي ديشانغ الذي لم ينس ما تعلمه في مطابخ أغا كوبالاي:

ـ *لا إله إلا الله*.

فهز الصياد رأسه وهو يرتعش وناداه باسم محمد. ثم شكره على الميتة التي أرادها له. وقال:

ـ لست أستحقها يا مولاي، ولست أستحق الجنة أيضاً، لأنني كنت خاطئاً.

ـ محمد لا يراك خاطئاً، وهو يرحب بك في الجنة. استمتع الآن بالثواب الذي أردته لك.

كانت نافذة القصر تُظهر سماء ممتلئة بالنجوم. ولكن ويي لي ديشانغ لم يكن ينظر إلا إلى تلك التي تشير إلى كيانغسي. وفكر:

«لقد سقطتْ يا كيانغسي حبة الرمل الأولى مشيرة إلى بدء نهايتك»

وسأله المرتزق العجوز بعد أن أخذوا الآنامي إلى قصر آخر يغص بالصبايا:

ـ ما الذي سنفعله من الآن فصاعداً؟

ـ أريد مئتي رجل مثل هذا.

ـ سيتطلب ذلك شهراً.

فرد عليه ويي لي ديشانغ:

ـ إنني أتقن الانتظار.

ولكن المرتزق العجوز لم يحتج إلى كل ذلك الوقت. فبعد خمسة عشر يوماً، أصبحت هناك جماعة كبيرة من الآناميين في القصور والحدائق، وكانوا يضحكون أو يغنون وهم مضطجعين؛ وعندما يأتي الليل، يقضونه مع الفتيات.

وعند غروب كل شمس كانوا يهمسون، دون أن يرتاب أي منهم بحقيقة المكان:

ـ يا ربنا الله، نشكرك من كل قلوبنا.

وكان ويي لي ديشانغ يقول لهم حين يراهم يرتجفون:

ـ لا تخافوا. أنتم لم تقترفوا أي ذنب ولست أفكر في انتزاعكم من سعادتكم.

ثم يحدثهم بعد ذلك عن مدينة في أراضي كيانغسي، يملؤها الجور واحتقار مشيئة الله.

فيقول الآناميون:

- إنهم يستحقون العقاب يا أبتاه.

وعندئذ يعرض عليهم ويي لي ديشانغ اسم أحد الخاطئين في كيانغسي. ثم يبين لهم مع الاسم رسماً - خطه مستعيناً بأرقام رقاقه الجلدية - يشير إلى مكان سكن الخاطئ.

- ستكونون حملة العقاب الإلهي. وهذا الملاك سيقودكم وأنتم خارج الجنة. هيئوا سهامكم واغمسوها بالسم الذي تستخدمونه لصيد النمور. أنجزوا مشيئة الله.

وكان الملاك، الذي هو المرتزق العجوز، يهز رأسه موافقاً. فهو سيرافقهم حتى المدينة، وسيعيدهم ثانية إلى الجنة بعد أن ينفذوا العقوبة المقررة. وكان الآناميون المطمئنون، لأن الخطيئة صدرت عن أناس آخرين، يعربون عن رغبتهم في الانطلاق بأسرع ما يمكن.

ويقول لهم ويي لي ديشانغ:

- ستنامون هذه الليلة في قصري، وغداً في الصباح الباكر، حين تستيقظون، ستنظرون فيما حولكم وترون الطريق الذي يقودكم إلى مدينة كيانغسي.

تنفيذ مشيئة الله، ذلك هو المبدأ الذي كان الآناميون يرددونه باستمرار. وكانت المشيئة الإلهية تُنفذ دوماً. وبدأت عقوبة الموت الرهيبة تنتشر في مدينة كيانغسي. قاض مع كل أفراد أسرته؛ خمسة من قادة جيش أغا كوبالاي؛ ثلاثة تجار.

وجميعهم كانوا يموتون عند أبواب بيوتهم وبواسطة سهام مسمومة.

وكان الآناميون يرجعون من كيانغسي ضاحكين، سعداء لأنهم تمكنوا من إنزال العقاب بالخاطئين الذين يزدرون الرب.

بعد ستة شهور من ذلك، وحين كان الخوف يعم المدينة بأسرها، اعتقلت دورية اثنين من الآناميين في الفوضى الرهيبة التي انتشرت بعد إحراق معبد سيدهارتا. ونقل قائد الدورية الخبر فوراً إلى جزيرة الحاكم.

اطمأن أغا كوبالاي كثيراً حين سمع كلمات القائد، وأمره بأن يُحضر الرجلين إليه، لأنه يتحرق شوقاً لرؤية القتلة. لقد كان يريد أن يعرف من أين يأتون، ومن يرسلهم، ولماذا يهاجمونه.

ولكنه أصدر للقائد أمراً آخر:

ـ ابحث عن كل تجار المدينة وأعيانها وأحضرهم للمثول في حضرتي. وليسمعوا هم أيضاً اعترافات القتلة.

كان أغا كوبالاي قلقاً من الإشاعات التي تشكك في قدرته كحاكم، وقد رأى أن يُري الجميع انتصاره الأول.

اجتمع الجميع في قبو القصر: التجار، وكبار الأعيان، والقاتلان الآناميان. وبدأ الجلاد تعذيب الأسيرين.

وبعد صرخات الآناميين الأولى سألهما أغا كوبالاي:

ـ من أرسلكما؟

فرد الآناميان:

ـ محمد، نبينا.

ـ من أين أتيتما؟

ـ من الجنة.

أومأ الحاكم إلى الجلاد، فأصبح التعذيب أشد إيلاماً، وأكثر دموية.

وسألهما عندما أنهى الجلاد عمله:

ـ أخبراني الآن. من أرسلكما؟

فصرخ الآناميان:

ـ أرسلنا محمد، نبينا.

أقترب أحد التجار الذين كانوا يراقبون المشهد من الآناميين، ومسح الدم عنهما، ثم قال لهما بعذوبة:

ـ سأعطيكما مالاً. أخبراني من هو قائدكما؟

ـ الله هو قائدنا الوحيد. ـ رد عليه بذلك أحدهما بصوت كسير. وكان الآخر قد مات.

كان أغا كوبالاي يتململ بجنون ويهدد الجلاد. ولكن كل شيءٍ ذهب سدى. لأن الآنامي الثاني ما لبث أن صمت بعد قليل إلى الأبد أيضاً.

وازداد قلق الحاضرين في القبو أكثر لدى مجيء أحد حراس القصر.

ـ سيدي الحاكم ـ قال الحارس وهو يحني رأسه بمذلة ـ لقد مات ابنكم الأكبر. سهم مسموم اخترق قلبه.

تقاطعت نظرات من حضروا عملية التعذيب، ورفع أغا كوبالاي يديه إلى وجهه. بعد ذلك توجه الجميع إلى بيوتهم في جماعات متزاحمة.

X و Y[1]

ـ أرى أن قصة الحرذون قد شغلتكما كثيراً ـ قال لنا عمي حين روينا له كل ما يتعلق بمسألة إسماعيل. وكانت الساعة حينئذ قد بلغت الثامنة والنصف مساء، وكنا جالسين في غرفة المكتبة. وكان السيد سميث المتعب جداً من الليلة السابقة التي أمضاها *on the grass*، قد انسحب لينام بعد أن روى لنا قصة ويي لي ديشانغ.

وأجبنا:

ـ أجل، هذا ما حدث بالفعل. انشغلنا كثيراً وبدونا مضحكين.

فقال عمي وهو يتنهد بمبالغة:

ـ لا يمكن أن يكون أي شيء آخر أيها الشبان.

ـ لسنا نفهمك يا عماه.

ـ ما أعنيه هو أن الأمر، وبسبب ضعف نظرياتكما الأدبية، لا يمكن أن يكون غير ذلك. لأن ما أصابكما لا علاقة له بمساعيكم في الوصول إلى عمق الأحداث، ولا علاقة له كذلك، ولو من بعيد، بالقدرة الكبيرة على التخيل التي تظنان أنكما تتمتعان بها. إنه مرتبط فقط بتفسيركما الخاطئ لقصة الحراذين البسيطة.

---

[1] المجهولان في الرياضيات (X,Y) ويرمز لهما بالعربية بحرفي (س) و (ع).

ولو أن المستر سميث كان موجوداً معنا لقال: *Strict and severe, my friend.*

وألحينا:

ـ أوضح ما تعنيه بصورة أفضل يا عماه.

ـ الأمر واضح! أنتما تعتبران أن الأدب لعبة وليست له أي فائدة. وبتبنيكما مثل هذا الرأي، لم يكن بمقدوركما اكتشاف السر الذي تنطوي عليه هذه القصة التي كان آباؤكم يرونها لكم. لأننا إذا ما تمعنا جيداً سنتساءل: ما هي العبرة التي تقدمها القصة؟ ما الذي تريد أن تقوله للأطفال؟ ولست أدري إذا ما كنتم تعلمون... أنها تريد أن تقول للأطفال أن النوم على العشب يمثل خطراً كبيراً، وأنه عليهم أن ينتبهوا كثيراً إلى ذلك. فأم الطفل تقول له: **إذا ما نمت على العشب، سيأتي الحرذون ويدخل من أذنك**. ولكن، ما الذي يُقلق الأم في ذلك؟ ما هو الخطر الحقيقي؟ أهو الحرذون؟ لا، ليس الحرذون مطلقاً! ولا بأي حال من الأحوال!

وخطر لصديقي أن يقول:

ـ ما الذي يمكن أن يكونه الخطر إذن؟ الأفعى؟

ـ الأفعى هي احتمال. ولكن ليست الأفعى وحدها. يمكن أن يكون الخطر هو رطوبة العشب، أو كلب مسعور، أو شخص مهووس، أو أي شيء آخر. يمكن للأخطار أن تكون كثيرة؛ بل وكثيرة جداً إلى حد أن تعدادها واحداً فواحداً للطفل سيكون غير معقول. وهذا هو تحديداً سبب وجود خرافة الحرذون، فهي تختصر بصورة مجازية كل الأخطار المحتملة. وضعوا في اعتباركم كذلك أن الحرذون هو تنين صغير، وقد اعتادت الحكايات التقليدية أن تجعل التنانين تحديداً الرمز الذي يجسد الشر. وبعد ذلك ينسجم كل شيء في الخرافة، ففيها كثير من المنطق.

ـ ما يفتقر إلى المنطق يا عماه هو ما قلته من قبل، عن أن الأدب بالنسبة إلينا هو لعبة. ولكن من الأفضل أن نترك هذا النقاش إلى وقت آخر. أما

الآن، فأعود إلى الموضوع وأسألك يا عمي... لماذا الحرذون وليس الأفعى؟ فأنا أرى أن الأفعى ستكون مناسبة أكثر.

فسألنا عمي وهو يبتسم أكثر ابتساماته خبثاً:

ـ ماذا تريدان؟ أن أقدم لكما درساً في الأدب؟

وأجبته:

ـ إننا معتادان يا عمي. لا تقلق بشأننا.

فقد كانت الجلسات الأدبية في ذلك البيت تنتهي عادة بخطبة حامية منه.

ـ ربما تكونان معتادين، ولكنكما لا تعيران ما أقولة أي اهتمام، وخصوصاً أنت يا ابن أخي. فأنا لست بالنسبة إليك سوى أثر قديم من القرن التاسع عشر...

ـ كفاك مبالغة يا عماه. فقد انتبهنا إلى مدى سعادتك فيما يتعلق بتفسيرنا الخاطئ للقصة. ولكن أسرع من فضلك، فقد بدأنا نتأخر.

ـ تأخر؟ ولكن، ما الذي يحدث؟ هل تفكران بالذهاب اليوم؟

ـ أخشى أننا سنفعل ذلك. لا تنسى أنه طبيب. وعليه أن يذهب غداً إلى عمله.

فقال صديقي:

ـ أنا مضطر للذهاب، أما أنت فيمكنك البقاء. سأذهب في القطار.

ـ هذا إذا كان ثمة قطار بالطبع.

ـ أجل، أجل إنه موجود. هناك قطار أسافر به عادة، وهو ينطلق بعد قليل. الآن سأعطيكم موعده بالضبط ـ قال العم ذلك وهو يفتح درجاً ويخرج منه جدول المواقيت، ثم أضاف: ـ في الساعة التاسعة والربع.

ـ إذا كان لا يزعجك الذهاب في القطار إذن، فسوف أوصلك إلى المحطة لتركبه. سنصل في الوقت المناسب إذا خرجنا من البيت في الساعة التاسعة.

ـ لا بأس.

ونظر عمي إلي:

ـ الحقيقة أن بقاءك يناسبني تماماً. فأنت تعرف أنني لا أملك سيارة، وحيث أن صمويل موجود هنا الآن...

ـ اطمئن إذن يا عمي. سأكون سائقكما وسأوصلكما إلى كل الأماكن التي تريدان الذهاب إليها. فلا بد لابن أخ معاصر مثلي أن يفيدك في شيء.

فاقترح صديقي:

ـ لقد تم ترتيب كل شيء. فلنواصل إذن درس الأدب.

ـ أين كنا قد وصلنا؟

ـ كنتَ تتحدث عن سبب اختيار الحرذون وليس الأفعى.

ـ آه، أجل. أنا أرى أن أمهات ذلك الزمان كن شديدات التعقل، وكن يتوخين الحذر الشديد عندما يردن إخافة الأطفال. فمن المناسب في رأيهن إخافة الأطفال، ولكن بمقدار قليل فقط، بحيث لا توقعهم الحكاية في الإحساس بالغم فيصبحون قساة القلوب أو جبناء حيال الحياة. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن الحرذون مناسب أكثر بكثير. لأن الطفل يدرك، بغريزة لا يعرفها أحد، أن الخطر ليس جدياً. وهو سيعمل طبعاً بنصيحة أمه، ولكنه سيفعل ذلك على سبيل الاحتياط، ودون أن يولي القضية اهتماماً كبيراً.

فقلت معلقاً:

ـ من الواضح أننا لا ننعم بتلك الغريزة.

وتدخل صديقي:

ـ قد لا تكون مسألة غريزة. ربما أن الطفل يقرأ في تعبير وجه أمه، أو في صوتها، أو في حركاتها، ويلتقط بهذه الطريقة عدم جدية ما يروى له. ولو ذكرت الأم الأفعى فربما كانت قراءة الطفل ستختلف.

ـ هذه ملاحظة قيمة. فلا يمكن رواية حكاية عن الأفاعي دون الإحساس بالنفور أو الضيق. ربما كنتَ محقاً.

وقلتُ:

ـ ولكن هناك حرذونات خطرة أيضاً. حراذين النوع الأخضر المسمى *Lacerta viridis* مثلاً.

ـ لا أظن ذلك يا ابن أخي. فحراذين هذه البلاد، مثلما أخبركما إسماعيل، هي من النوع المسالم. ويمكنني أن أستطرد وأقول كذلك أن حراذين إنكلترا من هذا النوع المسالم أيضاً. وتذكر في هذا المقام الحرذون المسكين بيل الذي تعرفت عليه أليس. فليس هناك في كتاب كارول شخصية أكثر تعاسة من بيل.

قلتُ معترفاً:

ـ لست أذكره.

وقال صديقي:

ـ وأنا أيضاً.

ـ انتظرا. الآن سأريكما إياه.

توجه العم إلى المكتبة، وبعد أن تفحص رفاً أو رفين، رجع وهو يحمل في يده كتاب كارول:

ـ انظرا، أمعنا النظر.

كان يظهر في الرسم التوضيحي مجموعة من الحيوانات، بينهم الأرنب والفأر، وهم يمسكون بضب صغير متضايق جداً، ويجبرونه على شرب البراندي.

ـ إنهم يريدون إجباره على السكر رغم أنفه. إن بيل هذا بائس حقيقي.

ـ وأنت من تقول ذلك أيها العم.

كانت رسوم الكتاب التوضيحية آيه في الجمال، وقد رغبنا في أن نراها كلها. ولكن العم مونتيفيديو كان أستاذاً قليل الصبر. فكان علينا أن نواصل الدرس. وعاد إلى التقاط نبرته الـ *strict and severe*:

ـ على أي حال، نعود إلى موضوع التفسير الخاطئ للقصة، وأقول أنكما تصرفتما على العماء. وكان عماء أكبر بكثير مما يمكن انتظاره من هاويين جيدين للأدب. ولكننا إذا ما تأملنا جيداً، فيمكننا أن نفسر القصة أيضاً حسب وجهة نظريكما. أعني أنه بالإمكان فهمها إنطلاقاً من هذا الـ *intertextuality (التناص)* الذي يروقكما كثيراً.

ـ فلتواصل سعادتكم أيها السيد العم، فأنت تتكلم مثل سليمان نفسه.

ـ يمكنك أن تضحك مثلما تشاء يا ابن أخي. ولكن، ما الذي يمكنك أن تقوله لي عن أغنية المهد هذه: **يا طفلي الصغير، إياك أن تنام في الغابة؛ يمكن لصياد أن يأخذك، معتقداً أنك أرنب بري.**

فقال صديقي:

ـ لا شك في أنها تتعرض للموضوع نفسه. وهو ما يُثبت أن قلق الأمهات من فقدان أبناءهن كان سائداً على نطاق واسع.

ـ وهناك المزيد. فما قولكما مثلاً في شخصية **ساحب الشحم**؟ أم أنكما لم تعودا تتذكران ما كان يقال لنا حميعنا ونحن صغار؟ **لا تمش وحيداً بعد حلول الظلام، لأن ساحب الشحم سيظهر لك ويأخذك معه.**

فوافق صديقي:

ـ إنني أتذكر بالطبع. فقد كان يظهر في كل كوابيسي.

وكانت عينا عمي تلمعان بتألق.

ـ والآن سأقدم لكما مفاجأة حقيقية! ما رأيكما في القول أن جميع هذه الحكايات وضعت في القرن التاسع عشر!

فأجبته:

ـ هذا ما لا أرضاه يا عماه. أنني أوافقك على عالمية الموضوع، وأوافق أيضاً على أن قصة الحرذون ليست إلا تنويعاً على هذا الموضوع؛ أما ظهور كل هذه الأشياء في القرن التاسع عشر، فهو أمر لا أصدقه. ومع احترامي الكامل، فإنني أرى في ذلك مبالغة كبيرة.

ـ حسن، لا شك أنني مضيت بعيداً جداً. من المحتمل ألا تكون قد ظهرت في القرن التاسع عشر، لأن الأمهات كن موجودات بالطبع منذ الأزل. ولكن ما أردت أن أقوله هو أنه في القرن التاسع عشر، وفي القرن التاسع عشر تحديداً حققت هذه الحكايات رواجاً كبيراً، وأصبحت شعبية. وهذا صحيح تماماً يا ابن أخي العزيز.

ـ وما هو السبب؟ ما الذي حدث وجعل الأمهات يخفن أكثر مما كن يخفن عادة؟ أخبرنا بذلك سريعاً يا عم، وإلا فإنني سأتخلف عن موعد القطار!

ـ السبب هو القطار! لقد قلته أنت نفسك!

كان عمي منفعلاً جداً حين قال ذلك.

ـ وما دخل القطار؟

ـ هل تمنحانني ثلاث دقائق لأخبركما بكل شيء؟

ـ إنها التاسعة إلا ربعاً. ولديك متسع حتى التاسعة يا عماه.

ـ انتبها إذن. وصلت السكك الحديدية إلى هنا في منتصف القرن التاسع عشر وفرضت تبدلات هائلة، وهي تبدلات لا يمكننا حتى أن نتصورها الآن. لاحظا أن الشيء الوحيد الذي كان معروفاً حتى ذلك الحين هو الحصان، فكل الرحلات وكل عمليات النقل كانت تتم على الحصان. حسن، كان الجميع مع أحصنتهم في البيت عندما ظهر فجأة جهاز تصل سرعته مئة كيلومتر في الساعة. أخاف ذلك الناس، وكان هناك كثيرون لم يتجرؤوا على ركوبه والسفر فيه. ومن فعلوا ذلك، أعني من كانت لديهم الجسارة الكافية وكانوا جريئين إلى حد الركوب في القطار، كانوا يقضون وقتاً عصيباً. ففي المقام الأول، أصيبوا جميعهم بالدوار. وفي المقام الثاني، كانوا ينظرون من النافذة ولا يرون المشهد الخارجي، أو أنهم كانوا يرونه مطموساً، مثل الصور الفوتوغرافية التي تخرج مهزوزة.

هتفت:

ـ أهذا جدي؟ غير ممكن!

فأكد صديقي:

ـ أجل، أجل؛ هذا ممكن بالطبع. يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن أعيننا تبدأ الاعتياد على السرعة من اللحظة التي نفتحها فيها. ولكن الأمر لم يكن على هذه الحال في ذلك العصر. على الأقل بالنسبة إلى الجيل الأول الذي عرف القطار. لا بد أن أعينهم لم تكن معتادة.

ـ قصة القطار هذه تعني الشيء نفسه بالضبط. ـ قال لنا عمي ذلك وهو ينهض من جديد، ويعرض علينا مجلداً سميكاً.

فقلت له:

ـ بقي أمامنا عشر دقائق يا عماه. لا يوجد لدينا وقت لقراءة الكتاب.

ـ سأتابع الكلام إذن. فمثلما قلت لكما، كان القطار هو الصدمة الحقيقية لأولئك الناس. وحيث أن الأمر كان على هذا النحو، لم يمض وقت طويل إلا وبدأت الإشاعات بالظهور؛ فمن قائل إن تلك الآلة هي إشارة إلى الاقتراب الوشيك لنهاية العالم، وأنها تسبب ما لا أدريه من الأمراض... وباختصار، إشاعات من هذا النوع. كان هذا هو الوضع عندما خطر لأحدهم الخاطر السعيد بطرح هذا السؤال: **لماذا يسير القطار بهذه السرعة الكبيرة؟** وكان الجواب: **لأنهم يُشحّمون عجلاته بزيت خاص. أليس كذلك؟ وكيف يحصلون على هذا الزيت الخاص جداً؟ كيف؟ الأمر بسيط جداً، إنهم يذيبون أطفالاً صغاراً. يمسكون الأطفال الذين يهيمون على وجوههم ويأخذونهم إلى إنكلترا. وهناك يذيبونهم في مراجل ضخمة، و...**

ـ أكان هذا هو ما يقال؟

ـ أجل، هذا ما كان يقال. كان ذلك هو عصر الصناعات الأولى، ولا بد أن عدد الأطفال الذين يختفون بينما آباؤهم يعملون في المصانع كان كبيراً جداً. وكل ما فعله الناس هو الربط بين الواقعتين كلتيهما. وقد صدقوا هذه القصة إلى حد أنهم راحوا يهاجمون محطات القطارات ويحرقونها. انظرا هذه الصورة...

فتح عمي مجلد تاريخ القطار وعرض علينا صورة محطة محروقة تماماً. وكانت في أسفل الصورة الكتابة التالية: **الحالة التي صارت إليها محطة مارتوريل بعد إحراقها على يد ربات بيوت القرية.**

ـ ربات البيوت، وليس الرجال.

ـ بالضبط. إنهن الأمهات.

ـ ولكن، كيف أمكن لك يا عمي أن تربط مسألة القطار بقصة الحـرذون؟ هل يمكنني معرفة ذلك؟

ـ *Intertextuality* يا ابن أخي، *intertextuality*.

ـ حدد من فضلك.

ـ عبر أقصر الطرق إذن يا ابن أخي. ما الذي قلناه من قبل؟ لقـد وصلنـا في النتيجة إلى أن قصة الحرذون وقصة ساحب الشـحم همـا قصـة واحـدة، أليس كذلك؟ أي أنهما قصتان الهدف الوحيد منهمـا هـو حمايـة الأطفـال. وقل أنت الآن: ما هو معنى عبارة **ساحب الشحم**؟

فسبقني صديقي إلى الرد:

ـ من يستخرج الشحم أو الزيت.

ـ يمكننا أن نطيل الجملة قليلاً لتصبح هكذا: **مـن يسـتخرج الشـحم أو الزيت اللازم لعجلات القطار**.

ـ أأنت متأكد من هذا؟

ـ إنني متأكد بالطبع. لأن **ساحب الشحم** كان قـاتلاً مشـهوراً في الفـترة التي وصل فيهـا القطـار. ومـا توصلـت إلى معرفتـه هـو أنـه لم يكـن يقتـل الأطفـال، وإنمـا كـان ضحايـاه مـن الأشـخاص المتقدمـين في السـن، أنـاس مسنون. ولكن هذا كان تفصيلاً لا تتوقف الأمهـات عنـده بـالطبع. فالشـيء الوحيد الذي كن يعرفنه هو أنه يمكن لأطفالهن أن يختفوا. وكـان هـذا هـو خوفهم الكبير. ومن هذا الخوف الكبير خرجت الشخصية.

ـ ولم تكن شخصية قاتل المسنين، وإنما سارق الأطفال.

ـ بالضبط. وهي قصة نموذجية من القرن التاسع عشر، مثلما قلت لكما.

ـ لقد كان درساً ثميناً يا عماه.

ـ شكراً جزيلاً يا ابن أخي. ولنر إذا ما كنتم ستثبتون في المرة القادمـة أنكم أكثر تيقظاً. لديكما فائض من المخيلة، ولكن تفكيركما ضئيل.

ـ هذا ما قاله لنا إسماعيل أيضاً.

ـ لست أستغرب. فمن ذا الذي يخطر له توجيه الاتهام الذي وجهتماه إليه؟ وكل ذلك بسبب حكاية طفولية لا يصدقها بالكامل حتى الأطفال أنفسهم.

فقال صديقي وهو ينهض:

ـ لقد أفادت في شيء ما على الأقل. فبعد سماع هذا الدرس سأصعد إلى القطار بموهبة أخرى.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ إنها التاسعة تقريباً يا عماه. يجب أن نذهب.

الحديقة لم تعد مثلما كانت عليه في الظهيرة. فغناء الزيزان الرتيب قد تلاشى، وهناك الآن قمر أبيض، شديد الهشاشة، يرتع في السماء. لقد حلت أكثر لحظات النهار صمتاً.

طال الوداع بين عمي وصديقي أكثر مما هو مُقدر، وعندما صرنا في الطريق إلى المحطة كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ببضع دقائق.

سألني صديقي:

ـ كم منعطفاً أمامنا الآن حتى المحطة؟

ـ إنها قليلة جداً؛ فالطريق مستقيم تقريباً ومستو. أظن أننا سنصل في الموعد. ولكن، انتبه، فسوف أنطلق بسرعة أكبر.

ـ مثلما تشاء. إنني أسلم روحي لمهارتك في القيادة.

ـ لم تكن نهاية الأسبوع سيئة، أليس كذلك؟

ـ بكل تأكيد. أضف إلى ذلك أن كل المجاهيل قد انكشفت.

ـ الـ X والـ Y.

ـ X السيد سميث وY إسماعيل.

ـ على كل حال، من النادر هنا أن يلتقي مجهولان بهذا الاختلاف في معادلة واحدة!

فهتف صديقي بلهجة مسرحية يستخدمها عادة في نطق هذا النوع من العبارات:

ـ إنها شؤون الحياة!

ولكن السرعة التي وجدت نفسي مضطراً للسير بها لم تكن تساعد على المضي في المحادثة، فقطعنا بقية الطريق بصمت، مستمعين إلى موسيقى المذياع. وقد وصلنا إلى المحطة قبل دقيقتين من انطلاق القطار.

تنهد صديقي عندما صرنا على رصيف المحطة:

ـ لقد انتهى الأمر. غداً إلى العمل.

وعندئذ سألته:

ـ أليس صحيحاً أنه لم تكن هناك أي لوحة على محمية إسماعيل؟

وكانت صورة مستشفى الحراذين المقرف ذاك تمر في خاطري.

فقال وهو ينظر إلى عيني:

ـ وما سبب هذا السؤال الآن؟

ـ لا شيء، لقد تذكرت فقط ما قاله لنا إسماعيل عن انتمائه إلى جمعية وما إلى ذلك.

أبدى صديقي إمارات عدم الفهم. فقلت:

ـ ألا تتذكر؟ لقد قال لنا أنه عضو في جمعية لحماية الحيوانات. ولكن ما يؤرقني الآن هو عدم وجود أي علامة للجمعية المذكورة على باب المحمية. لست أدري. فالمنطق يستدعي وجود شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

ـ ما الذي تعنيه بهذا؟ أتعني أن المجهول الثاني لم ينكشف بعد؟ أولم تسمع ما قاله عمك؟ أولم يشرح لنا إسماعيل كل شيء بدقة !

كانت مكبرات الصوت في المحطة تعلن عن وصول القطار. ولم يعد لدي وقت للدخول في التفاصيل.

ـ أجل، أجل. ولكنني راغب على أي حال في التأكد من أمر اللوحة.

فهتف صديقي وهو يفتح ذراعيه:

ـ وما أهمية ذلك؟ وحتى إذا افترضنا أن إسماعيل قد كذب علينا، ما الذي يعنيه ذلك؟ يجب أن تعاهدني على أمر. ألا تذهب لترى إذا ما

كانت المحمية اللعينة تحمل لوحة أم لا! إنني أعرفك جيداً، وأنا متأكد من أنك تنوي عمل ذلك.

فقلت له:

ـ هاهو ذا القطار قد وصل.

يجب أن أعترف بأنني قد أمضيت الشطر الأكبر من حياتي برفقة أفكار متسلطة على عقلي، وبأنني لم أعرف مطلقاً، حتى في طفولتي، أن أستجمع الحماسة الكافية التي تمكنني من أن أطرد من رأسي المستأجرين الذين يسببون الضرر أو الذين لا يروقونني. فبإمكان أي فكرة، مهما بدت نادرة، أن تستقر في رأسي وتمتلك فيه حياتها الخاصة؛ وتبقى فيه فوق ذلك طوال الوقت الذي يروقها.

لقد طلب مني صديقي ألا أذهب إلى المحمية، وهو الشيء نفسه الذي كان يطلبه مني كذلك جزء من دماغي: أن أتخلى نهائياً عن تلك القصة وأذهب للنوم. ولكن دون جدوى. فقد كانت الفكرة مستقرة في رأسي ولا تريد الخروج منه. ولم يبق أمامي سوى الذهاب إلى المحمية للتأكد من مسألة اللوحة.

رجعت إلى أوبابا بالسرعة نفسها التي نقلت فيها صديقي قبل ربع ساعة إلى المحطة، وخلفت ورائي بيت عمي لأوقف سيارتي عند أدراج الكنيسة الحجرية.

وقد ترددت لحظة قبل أن أواصل السير قدماً. هل أنا متأكد من أنني أريد الذهاب إلى المحمية؟ لماذا مازلت أرتاب بإسماعيل؟ هل أضمر له الكراهية؟ وفي نهاية المطاف، ومثلما قال صديقي، ما أهمية لوحة تافهة...؟

وكلها كانت اعتبارات تستحق أخذها في الحسبان، ولكن أياً منها لم تكن قادرة على جعلي أتراجع. فقد أصبح ذلك المستأجر السيئ هو صاحب البيت. وكان هو من يوجه تصرفاتي ويبررها.

«إنني أعرف ما الذي جاء بي إلى هنا»، فكرت وأنا أجتاز أروقة الكنيسة. إنه التوازي القائم ما بين قصة الحرذون وقصة ساحب الشحم.

هذا هو ما انتصب أمام نظري. وكانت حاستي السادسة تنبهني إلى أنني يجب أن أتقدم بحذر، وأنه يجب علي ألا أنسى أن ساحب الشحم كان قاتلاً.

كانت نيتي الأولى تتمثل في الوصول إلى سياج الأسلاك الشائكة والنظر من هناك. ولكنني ما أن اقتربت حتى أدركت أن ذلك مستحيل. فضوء القمر خافت، وظلمة الليل تلف المحمية. فإذا ما أردت التأكد من أمر اللوحة يتوجب علي أن أقترب أكثر.

فكرت: «لم يبق أمامي مفر من القفز عن السياج». وبعد لحظة كنت إلى جوار المحمية.

«لا وجود هنا لأي لوحة»، قلت ذلك لنفسي بعد أن تلمست الباب. وعندئذ سمعت ضجة. وكانت آتية من داخل المحمية.

ـ من هناك؟

لم يُتح لي الوقت للهرب. فقد فُتح الباب فجأة، وظهر منه رجل نحيل. لقد كان إسماعيل.

لم يتحرك أي منا للحظة. ثم صرخ إسماعيل بعد أن سيطر على ذهول المفاجأة:

ـ أيمكنني أن أعرف ما الذي تفعله هنا؟

حاولت أن أقول شيئاً، ولكنني لم أستطع النطق بكلمة واحدة. لقد أصابني البكم التام.

ـ ولكن، ما الذي تريده مني؟ هل جننت؟

ثم أمسكني بقوة من قميصي وهزني. فقلت له محذراً:

ـ إياك أن تضربني!

ولم يضربني، ولكنه دفعني وألقى بي داخل الكوخ. أحسست بأن يدي تلمسان الخضار المتعفنة الملقاة على الأرض.

ـ بما أنك مهتم إلى هذا الحد بمعرفة ما يحدث في المحمية، فسيكون لديك الليل بطوله لتكتشف ذلك!

ثم أطلق لعنة وأغلق الباب. وسمعتُ صوت المفتاح في القفل.

ـ افتح الباب! ناديته وأنا أنهض واتجه إلى إحدى النوافذ الضيقة. ولكن جهدي كان دون طائل. فقد اجتاز إسماعيل بوابة السياج وابتعد بخطوات واسعة.

الشخص الغاضب لا يشعر عادة إلا بغضبه؛ فهو لا يرى شيئاً، ولا يسمع شيئاً، ولا يشم شيئاً. فالنار التي تحرقه من الداخل تستحوذ على كل حواسه، وتمنعه من إقامة أي تواصل مع ما يحيط به. ولكن هذه اللحظة تنقضي، وتنطفئ النار، ويبدأ الإحساس بالأشياء المحيطة التي كان يتجاهلها بزخم غير معهود. ويظن الشخص الذي كان غاضباً عندئذ بأن ما يحيط به قد أصبح أكثر اتساعاً، وأكثر قوة، وأكثر إيلاماً. فهو لم ير كل ذلك مطلقاً من قبل، ولم يسمع كل ذلك مطلقاً من قبل، ولم يشم كل ذلك مطلقاً من قبل. وإذا كان ما يزال لديه بعض القوة فإنه يعود للغضب من جديد، ويعود للصراخ. ولكنه لا يملك القوة، ويتوجب عليه الاستسلام للألم.

هذا هو ما كان علي أن أعانيه في ذلك الكوخ. في البدء رحت اتنقل هائجاً، ألعن إسماعيل وأصرخ دون توقف، أو ألعن نفسي بالذات لتصرفي على ذلك النحو. ولكن ما هو قاس فعلاً جاء عندما بدأت أعي وضعي.

فالرائحة التي تفرزها الحراذين كانت تثير تقززي، وكان غمي يتضاعف كلما أحسست بالضجة الصماء التي تصدر عنها وهي تمضغ الخضروات المتعفنة.

«لا يمكنني البقاء هنا!» هذا ما كنت أقوله كلما لمحت عيناي شبح الحراذين الملتصقة بالجدار. ولكنني لم أكن لأستفيد شيئاً من الشكوى والتذمر مثل طفل. فقد كان علي أن أبقى هناك.

وبينما كنت أقف إلى جوار إحدى النوافذ الضيقة، حاولت مرة بعد أخرى أن أنسى ذلك السجن القذر. فكنت أستغرق في تأمل القمر الذي يلمع في السماء، وأتساءل عن سبب نوره الأصفر. لماذا يتبدل لون القمر؟ وعبر أي

عملية أتلقى أنا ضوءه؟ ولماذا يؤثر كثيراً على الخضروات...؟ وعندما استنفد الموضوع، أبحث عن موضوع آخر في كل أركان ذاكرتي. وعندما يُستنفد هذا أيضاً، استحضر الرحلات التي قمت بها عبر العالم، أو أتلهى بتخيلات جنسية.

ولكن محاولة تجاهل وجود الحراذين كان أمراً مستحيلاً.

أمضيت ساعتين أو ثلاث ساعات في خوض تلك المعركة، حين لم يعد بإمكاني مقاومة الألم لوقت أطول وتراخت ركبتاي، فقررت الجلوس.

ـ ولكنني لن أنام! ـ صرخت بذلك لكي أشجع نفسي.

وكنت أعرف مع ذلك أنني لن أستطيع الصمود. لا، لا يمكنني البقاء مستيقظاً، سأنام؛ وبعد أن أنام سيأتي حرذون ليدخل من أذني، وعندئذ... ولكن، كيف يمكنني التفكير بمثل هذه الحماقات؟ أولست أثق بما قاله عمي؟ أوليس بيل ـ *the poor lizard* ـ هو الأكثر طيبة وتعاسة بين كل الحيوانات التي في كتب كارول؟ أم أنني في جنوبي أمريكا؟ لا، إنني في أوبابا. وحراذين أوبابا ليست لها أي علاقة بأي نوع من الأمراض العقلية التي لا شفاء منها.

القلق الذي كانت تبعثه فيّ هذه التأملات أبقاني مستيقظاً لساعتين أخريين. وبعد ذلك استسلمت للنوم.

سمعت:

ـ ألم تجد مكاناً أفضل من هذا للنوم؟ لو أنك جئت إلى بيتي! ففي البيت لدينا كثير من الأسرة.. عشرة أسرة على الأقل.

كان ألبينو ماريا ينحني علي. يبتسم لي بمودة، ويريّل واللعاب يسيل من فمه المفتوح.

ـ أشكرك كثيراً، ولكن الأمر سيان الآن! ـ قلت له ذلك وأنا أنهض بأقصى سرعة. ولكن صممه حال دون فهمه لأي شيء، فأطلق ضحكة خنناء.

ثم قال لي بعد ذلك وهو يلتقط حرذوناً ويضعه على راحته:

ـ أليست جميلة؟ ثم أضاف: ـ شديد الخضـرة... وكنـت قـد أصبحـت عند باب الكوخ.

ـ أجـل، جميلـة جـداً. ولكـن علـي أن أنصـرف الآن يـا ألبينـو ماريـا. أعذرني لأني لا أستطيع البقاء معك. ـ وخرجت راكضا باتجـاه السـور دون أن أضيف شيئاً.

صرخ ألبينو ماريا من باب الكوخ:

ـ عد عندما تشاء!

المشعل

أردت العثور على كلمة لأنهي بها الكتاب. أعني أنني أردت العثور على كلمة وحيدة، ولكن ليس أي كلمة، بل كلمة تكون حاسمة وجوهرية. بعبارة أخرى، أعني أنني أردت أن أكون جوبيتير، وأن أتوصل إلى ما كان يتوصل إليه: *"s'il est un homme tourmente par la maudite ambition de mettre tout un livre dans une page, toute une page dans une phrase, cette phrase dans un mot, c'est moi"*[1]. أجل، هذا الرجل كان جوبيتير، وأنا ـ مثلما قلت قبل قليل ـ أريد أن أكون جوبيتير آخر.

كنت أحس بالتعب وخيبة الأمل، وبالشيخوخة قبل الأوان، أجلس قبالة ورقة بيضاء وأبكي. أعني أن استنباط وجمع شمل الجمل كان يصبح أكثر صعوبة وسُميّة، وكنت أعاني كثيراً، ولهذا كنت أحلم بجوبيتير، مثلما قلت من قبل.

ولكنني لا أجد الكلمة الأخيرة. أنظر من النافذة، وأرى أمواج البحر تكبر وتتحطم، فأسأل تلك الأمواج، ولا أحصل على شيء. ثم أسأل نجوم السماء، وتكون النتيجة نفسها. أسأل الناس، ويكون الوضع أسوأ. أعني أنني لم أكن أجد أي مساعدة، وأن الجميع يتركونني وحيداً على الدوام

---

(1) بالفرنسية في الأصل: "إذا كان ثمة إنسان يعذبه طموح ملعون في وضع كتاب كامل في صفحة واحدة، ووضع صفحة كاملة في جملة واحدة، وهذه الجملة في كلمة واحدة، فهو أنا."

أمام الورقة البيضاء. وعندئذ أوجه إلى نفسي هذا السؤال: لماذا لا تروي عن الرحلة التي قمت بها إلى أوبابا؟ فربما تتوصل إلى هذه الكلمة اللعينة إذا ما رويت أحداث نهاية الأسبوع تلك. أعني أنني كنت شجاعاً، وحيث أن الكلمة لم تأتِ إلي، فقد ذهبت أنا نفسي بحثاً عن الكلمة. هذا هو ما أعنيه، أو شيء من هذا القبيل.

ولكن العمل الذي نويت القيام به كان أطول مما فكرت فيه. أعني أن رواية ما جرى في الرحلة لم يكن عملاً موجزاً ولطيفاً مثلما افترضت في البدء، بل على العكس من ذلك تماماً. كانت الأيام تمضي دون أن أحقق أي تقدم. فالكلمة الأخيرة لم تظهر في أي مكان. وكنت أقول لنفسي: اليوم لم تظهر، ولكنها قد تظهر غداً. لا تقلق لهذا. وبدلاً من أن تقلق، لماذا لا تعيد نسخ حكاية بغداد؟ وأفعل ذلك. أعني أنني كنت أنفق الوقت كله في رواية كل الأشياء التي جرت في تلك الرحلة، وهكذا انقضت الشهور والسنوات. وما كنت أرغب فيه فعلاً راح ينزوي أكثر فأكثر، ويتراجع أكثر فأكثر، ويبتعد أكثر فأكثر. في بعض الليالي كان يظهر لي جوبيتير في الغرفة، ويطلب مني الحساب. لماذا تستخف بعملك الحقيقي مثل الكلب المريض الذي يحتقر قطعة العظم؟ لست أزدريه أيها المعلم، وكل ما هناك أنني مضطر إلى كتابة قصة أخرى أولاً.. تلك القصة التي رواها لي رجل عجوز في أحد الاحتفالات: الاسم لاورا سليغو، أعني اسم بطلة القصة وليس اسم العجوز. فيقول لي جوبيتير: لا، لا، لا. لا تخدع نفسك، حقيقة الأمر أنك مثل كتّاب كثيرين في عصرك، مثلهم، أو مشابه، أو مماثل، أو مناظر لهم. وما إن يقول جوبيتير ذلك حتى ينصرف، وأبقى أنا حزيناً. أعني أنه ليس هناك من يحب سماع الحقيقة.

ولكن المسألة هي أنني أترك دائماً عملي الحقيقي إلى اليوم التالي، مرة بعد أخرى، وقد كان ذلك هو ضياعي. لأن الوقت قد فات، ولأنني لن أجد مطلقاً الكلمة الأخيرة، الحاسمة والجوهرية. ولهذا يمكنني القول إنني مثل الحجاج الذين ينطلقون آملين برؤية البحر ويموتون دون أن يكونوا قد وطئوا

الشاطئ. فأنا أيضاً ميت، حسب ما يقوله عمي. أنا ميت، دون أن أكون قد وجدت الكلمة الأخيرة. ولهذا تكلمت عن البحر والحج إليه. ولست أدري إذا ما كان ذلك واضحاً.

ولكن ربما كنت أمضي الآن مسرعاً جداً، وهو أمر يبدو مضحكاً تماماً. أعني أنني أضحك حين أفكر بأن بطئي السابق هو الذي يفرض علي المضي مسرعاً الآن. وبعبارة أخرى، لدي وقت قليل جداً وعليّ أن أسرع. وهذا هو على الأقل ما يقوله لي صديقي وعمي. وأنا لا أعرف لماذا يقولان ذلك، ولكنهما على حق بكل تأكيد. يجب عدم نسيان أن صديقي طبيب، وهذا يعني الكثير. ولكن، حسن، ما كنت أقوله هو أنني أمضي بسرعة واضطراب. ولكنني سأشرح الآن ذلك. سأشرح أسباب عجزي، ولماذا لن أجد مطلقاً الكلمة الأخيرة، وكل هذه الأشياء.

فبعد عدة شهور من الرحلة إلى أوبابا، حدث أن قال لي أهل بيتي: أنت بك صمم، صحيح؟ فقلت: أنا أصم؟ لا أظن ذلك. وواصلت عملي. لأني، مثلما قلت من قبل، كنت أعمل آنذاك في كتابة الأشياء التي حدثت في الرحلة إلى أوبابا. ولكن أهل البيت لم يوافقوني الرأي: أجل، أجل، بك صمم بالطبع، لأنك لا تسمع شيئاً إلا إذا كلمناك من الجهة اليمنى. يجب عليك أن تذهب إلى الطبيب. وذهبت. «غشاء الطبل لديك مثقوب» هكذا قال لي صديقي الطبيب. أعني أن الطبيب هو صديقي، وكان هو أيضاً من قال لي ذلك.

صديقي ـ أعني الطبيب، أليس كذلك؟ ـ نظر إلي بإمعان وقال لي: ألا تحس بوجود شيء في رأسك؟ ألا تشعر بألم في الرأس؟ هل تنام جيداً؟ إنني أنام جيداً بالطبع. وسألته: لماذا تسألني هذه الأسئلة؟ فخفض صديقي بصره خجلاً.

في ذلك اليوم بقيت قلقاً بعض الشيء، ولكن ليس كثيراً. وواصلت عملي. أعني أنني كنت أترجم القصة المعنونة ويي لي ديشانغ، ولم يكن لدي وقت للقلق. ثم أنني، في الحقيقة، لم أفهم جيداً سؤال صديقي. وما هي في نهاية المطاف أهمية صمم خفيف؟

القلق، القلق الحقيقي جاءني فيما بعد، بعد مرور شهر على ذلك. أعني أن أصدقائي بدؤوا يكرهونني.. لم يكرهوني كثيراً، وإنما قليلاً فقط. فبينما نكون جميعنا نأكل أو نشرب في إحدى الحانات، ينفجرون بالضحك فجأة. فأسألهم: لماذا تضحكون؟ فيردون علي: ولكن، ما الذي أصابك يا أعني أنني؟ ألم تعجبك النكتة؟ فأغضب: أي نكتة؟ ثم، لماذا تدعونني أعني أنني؟ ألا تعرفون اسمي؟ لم تكن هذه بالطبع طريقة لائقة للتحدث مع الأصدقاء، فبدؤوا يكرهونني قليلاً.. قليلاً فقط، وليس كثيراً، وقد قلت هذا من قبل أيضاً.

عندئذ، ولأن أصدقائي ما عادوا يحبون خروجي معهم، قررت الذهاب إلى أوبابا، إلى بيت عمي. وهناك صرت أقضي ساعات وساعات وأنا أقرأ وأقرأ. وسألني عمي في إحدى المرات: لماذا تقرأ الكثير من كتب الأطفال؟ هل تفكر في كتابة بحث حول أدب الأطفال؟ فأجبته: لا، الأمر ليس كذلك، إنني أقرؤها لأنها تعجبني. بجد يا عماه. كتب الأطفال بديعة. فاستغرب هو: حقا؟ وقلت له: أجل، حقاً. فهذا الكتاب الذي أقرؤه مثلاً هو عن فأر. ويبدو أن هذا الفأر، ويدعى تيمي ويللي، كان يعيش في بساتين قرية صغيرة، وما الذي حدث له؟ ما حدث له أنه اندس في أحد الأيام في سلة ليأكل البازيلاء وجاءه النوم وهو بداخلها. أعني أنه غط في النوم. فيأتي صاحب البستان، ويحمل السلة على كتفه، ويمضي إلى المدينة ليبيع البازيلاء. وتيمي ويللي بداخلها لا يعرف شيئاً مما يجري، وبعد ذلك... ولكن، أعذرني يا عمي، لا يمكنني أن أكبح نفسي من الضحك. وانفجرت ضاحكاً. ولكنني صمتُ على الفور. أعني أنه من غير المستحب الضحك أمام شخص حزين، فذلك قبيح جداً.

وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من حزنه، كان عمي يعتني بي جيداً، بل جيداً جداً، وليست لدي أي شكوى في هذا الشأن. فكل صباح يحمل إلي في السرير عصير برتقال، وجريدة كذلك. ولكن ليس هناك ما يستهوينى لسوء الحظ. أعني أنني كنت أشرب العصير فوراً، أما الجريدة

فلم أكن ألمسها. فقد كنت أرى أن متابعة مغامرات تيمي ويللي أفضل بكثير. فيطالب مني عمي: ولكن، اترك هذا الكتاب الآن يا ابن أخي، واقرأ مقالات الجريدة. ولأنني أحب عمي كثيراً، كنت أبذل جهدي لإرضائه. ولكن دون جدوى. فقد كنت أجد مشقة كبيرة في فهم ما تقوله الجريدة، وخصوصاً صفحة الرياضة، لقد كانت الأكثر صعوبة، حتى أنه لا يمكن مقارنتها بصفحة السياسة.

ولهذا بدأت أخرج خارج البيت. أعني أن عمي لم يتقبل الرضوخ، وأنه كان يمضي دائماً بجريدته في أثري، ولأن ذلك بدا لي كريهاً ومقيتاً، صرت أخرج إلى الشارع وألتقي بألبينو ماريا، وصرت بعد ذلك أقضي اليوم كله معه، وأذهب للنوم في بيته، لأن هناك في بيت ألبينو ماريا أسرة كثيرة، عشرة أسرة على الأقل.

وفي إحدى المرات غضب عمي، فاستدعى صديقي، أعني صديقي الطبيب، وأجبراني كلاهما على الصعود إلى السيارة. ومشينا، ومشينا، حتى وصلنا أخيراً إلى بيت كبير، ولم يكن هناك إلا أناس يرتدون الملابس البيضاء. كان كل شيء هناك أبيض، ومخيف. وأخذوني عندئذ إلى قاعة مغطاة كلها بالفلين، وقال لي عمي: سامحني يا ابن أخي، ولكن هذا لمصلحتك. فما حدث، بعبارة أخرى يمكنك أن تفهمها، هو أن حرذوناً قد انسل إلى رأسك. ويجب علينا إخراج هذا الحرذون، لأنه يسبب لك ضرراً كبيراً.

وأجبته أنا: أتقول إن الحراذين تسبب لي ضرراً؟ هذا غير ممكن يا عماه. الحراذين جميلة جداً، خضراء جداً. ولكنني ما كدت أرد عليه حتى أحسست بالندم. أعني أنني رأيت دموعاً في عيني عمي.

وعندئذ قال صديقي: أنا أتحمل الذنب أكثر منك يا عماه. لم أنتبه إلى أنه كان يكلمني بجد، ظننت أن ما قاله عن إسماعيل لم يكن سوى لعبة أخرى من ألعابه الأدبية، شيء يشبه لعبة التحريين. وجاريته أنا في اللعب مثل أحمق.

فقلت له: لستَ أحمق بأي حـال يـا صديقـي العزيـز. ثـمٍ أنـه لا فـرق عندي، ويمكنكما ترك الحرذون في رأسي. إنه لا يزعجني أبداً.

وبقينا نتحدث هكذا، وبعد ذلك قصـوا شـعري وسـببوا لي ألمـاً، الكثـير الكثير من الألم. أعني أنهم وضعوا حدائد في رأسي، وصرخت مثل شـخص موتور.

كان ذلك منذ خمسة أيام، هذا ما أظنه، منذ خمسة أيام، وكنا ثلاثتنـا علـى مـا يـرام. أعـني أن الألم قـد غـادرني، وأن ذلـك أسـعدنا جميعـاً، وخصوصاً عمي. فقد كان يصرخ قائلاً لي: لقـد عـدت إلى نفسـك. ثـم يقـول بقوة أكبر: **المشعل يبقى حياً طالما احتفظ بلهيبه!** والحقيقة أنه كان يبـدو مجنوناً.

ولكننا عدنا ثانية إلى ما كنا عليه من قبل. فعمي لم يعـد سعيداً. ويـوم أمس بـالذات جـاء إلي، وقـال لي: أكتـب يـا ابـن أخـي مـا رويتـه لي عـن جوبيتير، أكتب نصك الأخير. وافعل ذلك بأسرع ما يمكن. فأنت تموت يـا ابن أخي.

أجبته:

أتقول إنني أموت؟ ولكن، ما الـذي تقولـه؟ إنـك مخطـئ تمامـاً في هـذا الأمر يا عماه.

وأوضح لي عمي:

ـ أعني أن رأسك كان في السابق مثل مشـعل، ولكـن هـذا المشـعل آخـذ بالانطفاء لحظة بعد أخرى.

لم أقل له أي شيء، ولكنني أظن أن عمي بدأ يصاب بالجنون. فرأسـي كان مكوراً على الدوام، ولم يكن في أي يوم مثل مشعل. ثـم أنـني لا أتذكـر أي شيء عن هذا المدعو جوبيتير، ولا أعرف ما الذي علي أن أكتبه. إنـني أمل من الجلوس هنا في المكتبة. لحسن الحظ أن هناك ذبـاب. أعـني أنـني سأذهب بعد قليل مع ألبينو ماريا لصيـد السـمك، وعندئـذ سـتفيدنا كثـيراً الذبابات التي أصطادها هنا الآن.

على سبيل السيرة الذاتية

سمعت من يقول إن لعبة الأوكا، مثلها مثل الحكايات التقليدية، تمثل مفهوماً محدداً للحياة؛ وإنها وصف للأعمال والأيام التي علينا قضاؤها في هذه الدنيا، إنها وصف وتورية.

ومهما يكن أمر هذا المفهوم فإنه يمكن لأي شخص يتذكر الرقعة وقواعد اللعبة أن يراه، ذلك أن الرقعة وقواعد اللعبة على السواء تبين أن الحياة، في جوهرها، هي رحلة مليئة بالمصاعب يتدخل فيها بالتساوي الحظ ومشيئتنا؛ وهي رحلة على الرغم من مشقاتها، يمكن مواصلة التقدم فيها طالما النردان ـ وهما جنيتا حسن الطالع ـ يأتياننا بأرقام مناسبة، ويمكن الوصول بالحسنى إلى تلك المنزلة الأخيرة حيث تنتظرنا **الأوكا ـ الأم العظيمة**.

وليس هناك بالنسبة للاعب ـ المسافر ما هو أفضل من وصول «فيشته» إلى الصورة التي تحمل رسم أوكا، ذلك أنه يمكن لهذا اللاعب عندئذ أن يقفز من أوكا إلى أخرى وأن يرمي النردين مرة أخرى، وأن يواصل التقدم.

وليس هناك بالمقابل ماهو أسوأ من الوقوع في منزلة مثل المنزلة الثانية والاربعين ـ منزلة المتاهة ـ أو الثانية والخمسين ـ منزلة الحبس ـ أو الثامنة والخمسين التي تؤدي إلى الموت. فالوقوع في أي واحدة من هذه المنازل يعني تأخراً في الطريق، أو ربما تعليق التقدم أو مغادرة الطريق.

وأقول، بصورة عابرة، إنه ليس عبثاً أن اللعبة المجازية التي أتكلم عنها تلجأ إلى الأوكا تحديداً، وليس إلى أي حيوان آخر(*). ذلك أن الإوزة تستطيع المشي على الأرض وفوق الماء وفي الفضاء، ولهذا فقد كانت الحيوان الذي اختارته التقاليد ليرمز إلى الحكمة، والاتقان، والكمال.

ورسالة اللعبة بالتالي بسيطة جداً بقدر صعوبة مواصلتها. فهي تتطلب اتقان الأمور، يوماً بعد يوم، أوكا بعد أوكا؛ لأن هذه الاستمرارية وحدها هي التي تضمن الوصول إلى الحكمة والكمال النهائيين.

فلنرجع إلى البداية، ولنتذكر أن لعبة الأوكا يمكن لها أن تكون وصفاً لأي حياة لا على التعيين. لحياة كاتب باسكي ولد سنة 1951 مثلاً.

ولا بد أن المرء سيلمح تشابهات فور إلقائه نظرة على الرقعة. لأن كاتباً باسكياً معاصراً، أي أنه كاتب بدأ الكتابة بلغة اوسكارا في السبعينات، يشبه كثيراً هذا المراهق المرسوم في المنزلة الأولى من المنازل الثلاث والستين الموجودة في الرقعة، وهو لا يحمل من المتاع سوى حزمة صغيرة.

فنحن الذين بدأنا نُترجَم الآن إلى لغات أخرى، انطلقنا في رحلتنا بأمتعة ضئيلة جداً. ننظر إلى حزمة متاعنا فلا نجد فيها سوى خمسة أو عشرة كتب مكتوبة باللغة التي نرمي إلى الكتابة بها. لقد قرأتُ غابرييل أريستي وأنا في العشرين من عمري، وأنهيت بذلك قراءة كل الأدب الباسكي الذي لم يتمكن الدكتاتور من احراقه.

هذا لا يعني ـ مثلما قيل مراراً ـ أنه لم تكن لدينا تقاليد، اللهم إلا إذا استُخدمت كلمة تقاليد بمعنى: قديم ومهجور. فمن المعروف اليوم، ونحن في أوج القرن العشرين ـ وهذه ستكون إحدى خصائص الحداثة ـ بأن كل الماضي الأدبي، سواء العربي أو الصيني أو الأوربي، هو في متناول يدنا وتحت تصرفنا؛ في المتاجر وفي المكتبات العامة وفي كل مكان. وهكذا يمكن

(*) لا بد لنا من الاشارة هنا إلى أن كلمة أوكا (OCA)، تعني اللعبة التي أشرنا إليها في هامش سابق، كما أنها تعني في الوقت نفسه الإوّزة (الطائر المعروف).

لأي كاتب أن يخلق تقاليده الخاصة. يمكنه أن يقرأ **ألف ليلة وليلة** في يوم، ثم يقرأ في اليوم التالي **موبي ديك** أو **المسخ** لكافكا... وهذه الأعمال، بالروح التي تحملها، تنتقل فورا إلى حياته وإلى عمله ككاتب.

ليس هناك اليوم أي شيء خاص بكل معنى الكلمة. فالعالم في كل مكان، والإوسكال هيريا لم تعد مجرد إوسكال هيريا وحسب، وإنما هي ـ مثلما قال ثيلسو ايميليو فيريرو ـ **المكان الذي يتخذ فيه العالم اسم اوسكال هيريا**.

ولهذا لن أقول مطلقاً إننا نحن الكتّاب الباسكيين المعاصرين، نفتقر إلى تقاليد؛ بل أقول إن ما كان ينقصنا هو **السابقة**، كانت تنقصنا الكتب التي يمكننا أن نتعلم منها الكتابة بلغتنا. فعقلة الاصبع لم يمر من دروبنا؛ ومن المستحيل البحث عن فتات الخبز الذي سيوصلنا إلى البيت.

هذه مسألة لها أهميتها، وهي ترتبط ــ مثلما أدرك كثيرون ــ باللغة الأدبية. لأن الكتابة هي الصنعة بالطبع، وهذه الأداة المدعوة الكتابة الأدبية هي شيء يتشكل بمرور الزمن وبجهود أشخاص كثيرين، لتتلاءم بذلك مع الضرورات التعبيرية لكل عصر.

إحدى نتائج هذ الجهود، من أجل إيراد مثال، تتمثل في جعل بعض الكلمات غير مرئية. فعندما يقرأ القارئ بالقشتالية رواية فيها الكثير من الحوار، فمن المحتمل جداً ألا يرى كلمات من نوع: **قال، ردّ، أجاب** التي في النص. إن هذه الكلمات موجودة هناك، ولكن ما يحدث لها هو مثل ما يحدث للأشجار التي في طريقك المفضل: فلكثرة المرات التي قرأتها فيها لم تعد تتوقف عندها.

عندما أكتب بلغة اوسكارا لا أواجه مشكلة مع كلمة **قالَ** (esan)، أو كلمة **أجابَ** (erantzun)؛ ولكنني أبدأ بمواجهة المشاكل مع كلمة **ردَّ** (arrapostu)، ذلك أن هذه الكلمة غير مألوفة لدى القارئ، لأنها مثل شجرة يعرفها ولكنه مع ذلك لم يرها مطلقاً في طريقه. هكذا هي الأمور، فالكاتب الباسكي يعرف أن قارئه سيتوقف عند هذه الكلمة، وأنه سيفترض لها تداخُلاً ما.

أنا أقول إن الواجب الأول لأي لغة أدبية هو ألا تكون مزعجة. وهذا هو بالضبط ما يؤلمنا بسبب انعدام السوابق، وعدم وجود عدد من الكتب يكفي لخلق العادة. وقد كان هذا يؤلمنا في الستينات أكثر بكثير مما يؤلمنا الآن.

ومع ذلك، لا بد أن يكون لدى الكاتب الباسكي الشاب، مثل أي فنان مراهق، ما يكفي من النشاط والطاقة لاجتياز المنازل الأولى من الرحلة دون أن ينتبه تقريباً إلى المكان الذي حشر نفسه فيه. وأظن كذلك أنه لابد أن يكون لدية الكثير ليقوله. فالعالم لم ينته مع باروخا[1] .

المراهق الذي انطلق في الرحلة حاملاً حزمة متاعه سيصل، بهذا الدافع الأول، حتى المنزلة رقم عشرين على الأقل، حتى الأوكا الثانية: فينشر قصة ما (أنا فعلت ذلك في مجلد مختارات الأدب الإوسكالي، 1972)، ورواية قصيرة (ثيوتاتياس، 1976) بل وكتاب أشعار كذلك (اثيوبيا، 1978).

ولكن هذه التجربة الضئيلة ستكون كافية لكي يدرك بؤس متاعه. فيشعر بنفسه على الفور في المنزلة رقم عشرة من رقعة اللعبة، حيث يظهر طفل يبحر في زورق ورقي. وتكون قد أزفت عندئذ ساعة القلق.

ولقد كنا على كل حال كثيرين نحن الذين استطعنا تجاوز محنة الزورق الورقي وتمكنا من الانتقال من المنزلة العاشرة، محاولين الوصول أولاً إلى منزلة الرقم الرابع والعشرين، وهي منزلة الأرنب البري الذي يقرأ في كتاب، وبعدها إلى المنزلة الثالثة والأربعين، حيث يظهر شيخ وقور يفعل ما يفعله الأرنب: يقرأ في كتاب ويستمتع بالبرودة.

هذه المنازل أصبحت الآن في متناول يدنا. ولأعبر عن ذلك بطريقة أخرى أقول إنه أصبح لدينا الآن سوق أدبي يتيح لكتّاب مثلي أن يعيشوا من حقوقهم في أعمال مثل بي ـ اناي (1984) وأوباباكوآك (1988).

---

[1] Baroja، بيو باروخا: كاتب باسكي كتب بالقشتالية.

إن القفز ـ من المنزلة العاشرة إلى المنزلة الثالثة والأربعين ـ كان ممكناً بفضل أوكات عديدة ساعدتنا في الطريق. وقد كان غابرييل أريستي الذي ذكرته آنفاً واحداً منها. وهناك واحد آخر هو لويس ميتشيلينا. فقد عملا كلاهما لكي نجد نحن الشباب لغة أدبية عادية هي المسماة *إوسكارا باتوا*، ولكي نستبدل صرة أمتعتنا بحقيبة جيدة.

الرحلة مازالت متواصلة، وأظن أن معظمنا يفكرون في أن الأمور قد تسير على ما يرام.

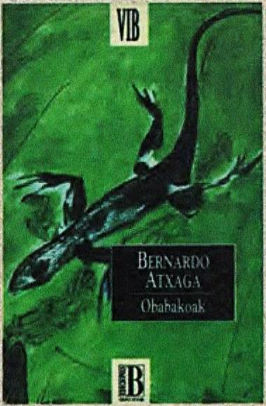
ولكن هذا لا يعني انعدام المخاطر على كل حال. فأنا أنظر إلى الرقعة، وأرى المنزلة الثانية والخمسين ـ منزلة الحبس ـ، وأرى المنزلة الثامنة والخمسين ـ منزلة الموت ـ، وأرى كذلك في المنزلة الثانية والستين تحديداً، وهي السابقة لغدير البجعة الأم الكبرى، أرى رجلاً متجهماً يرتدي الأخضر ويضع قبعة عالية... ولست أملك كل تلك المنازل بعد.

ولكننا سنواصل المحاولة، سنواصل الكتابة. فالرقعة موجودة أمامنا لنلعب عليها.

بيرناردو أتشاغا

الفهرس

أوباباكوآك = Obababkoak/ برناردو أتشاغا؛
ترجمة صالح علماني. ـ دمشق: دار الطليعة الجديدة،
1999. ـ 227 ص؛ 24 سم.
1 ـ 863 أ ت ش أ 2 ـ العنوان
3 ـ العنوان الموازي 4 ـ أتشاغا
5 ـ علماني
ع: 415/ 3/ 1999
مكتبة الأسد



يصر الكاتب برناردو أتشاغا على أن تحمل روايته في كل الترجمات إلى اللغات الأخرى عنوان :(أوباباكواك) وهذا العنوان باللغة الباسكية يعني (أهالي أوبابا) أو بترجمة حرفية :(الذين من أوبابا).

وبناء(أوباباكواك) يذكرنا ويحيلنا إلى :(ألف ليلة وليلة) حيث يتوجب على شهرزاد أن تنال رضى الأمير ليلةً بعد ليلةٍ وأن تبقيه في الوقت نفسه متلهفاً لسماع المزيد. لأنها ستموت إذا أخفقت في ذلك.

وعلى المنوال نفسه ينسج أتشاغا قصصه التي تبدو كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى للوهلة الأولى، ولكنها بفضل اللمسات التي يضيفها المؤلف تشكل في المحصلة واقعاً أدبياً معقداً ومتجانساً في الوقت نفسه، حيث تضيع الحدود ما بين الواقع والخيال.



برناردو أتشاغا هو الاسم المستعار للكاتب الاسباني جوسيبا إرازو الذي ولد في إستياسو بإقليم الباسك سنة 1951. ومع أن أتشاغا درس العلوم الاقتصادية في الجامعة ،إلا أنه تفرغ لمهنة الأدب منذ بلوغه الثلاثين من عمره. فكتب الشعر والقصة والرواية، ولمع نجمه بعد صدور روايته "أوباباكواك" التي تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ونال عليها في عام 1989 الجائزة الوطنية للأدب.

ويعتبر أتشاغا أول كاتب باسكي يحقق شهرة عالمية.

دار الطليعة الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق -ص.ب: 34494 تلفاكس: 2775872